

العدد الثاني - مايو ٢٠١٤ - رجب ١٤٣٥
www.braheen.com

«إعادة المحاكمة»
الداروينية
أحمد يحيى

بين ثبات المؤمن و ارتباك الملحد
المحكمات
عمار سليمان

كبديل عن الدين !
الهيومانية
د.هيثم طلعت

نحو دراسة المكونات الأولى في مجتمعاتنا المعاصرة
من هنا يبدأ الإلحاد
أ.د. خالد الدريس

تقرير مختصر عن الأسباب الشخصية والاجتماعية والمعرفية
الإلحاد في العالم العربي
د. هشام عزمي

عمرو بسيوني
الأسس اللاعقلية للإلحاد
هدية العدد

تقرير مفصل عن دور الوسائل البصرية في تمرير مفاهيم الإلحاد إلى اللاوعي الجمعي
السينما و اللاوعي؛ الخطاب الشعبي للإلحاد
أبو حب الله

دورية فصلية - تصدر عن «مركز براهين» - لدراسة الإلحاد من منظور علمي فلسفي شرعي

دورية فصلية تصدر عن مركز براهين
لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية

للاستفسارات العامة يرجى مراسلة:
info@braheen.com

للمساهمة في الأعداد القادمة:
articles@braheen.com

بقلم المشرف العام

افتتاحية العدد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوكل عليه، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وعلى آله وأصحابه الطيبين، أما بعد،،

فمع صدور العدد الأول من مجلة براهين، وافتتاح الموقع الرسمي للمركز، انهالت على فريق العمل التهاني والتبريكات من الإخوة والأخوات، وكذلك كلمات المؤازرة والتشجيع، وعبارات الثناء والدعاء، ولهؤلاء كلهم نقول جزاكم الله خير الجزاء، وشكر لكم التفاعل الطيب مع هذا الإنجاز الذي ننسب الفضل فيه أولاً وآخراً لله تعالى، فله الحمد كله ومنه نستمد العون، ثم نتوجه بالشكر إلى فريق العمل المُميز الذي بذل وقته وجهده ابتغاء إعلاء كلمة الله -هكذا نحسبهم والله حسيبهم- وذلك رغم قلة الموارد، وكثرة الأعمال، وصعوبة الظروف التي مررنا بها جميعاً كفريق لإنجاح هذه المبادرة، ولكنها ككل المبادرات التي تعتمد على جهود شخصية من أفراد متطوعين ؛ فلن تخلو من نقص أو عيب، وهو ذات الأمر الذي يجعلنا نسدد ونقارب، ونحرص على التطوير قدر الإمكان.

وعلامة ما سبق هو تلقي المركز لاقتراحات مميزة للاستغلال الأمثل لإمكاناته، سواء من ناحية الشكل أو المضمون، وقد تلقيناها بفرح يفوق فرحنا بالثناء على ما فيه، لأن ذلك وبلا شك هو مؤشر تفاعل جاد مع رسالة المركز، فلهؤلاء جميعاً نفتح صدورنا، ونمد أيدينا، لأنهم من أكبر أسباب تحسين أداءنا لما ينفع المتلقين في كل مكان.

وبالإضافة لاهتمام المركز البالغ بما يصله من اقتراحات بنّاءة، فإنه أيضاً مهتم بفتح أبوابه لجميع الباحثين والكتاب المهتمين بملف الإلحاد ولكنه -والحق يقال- حريص غاية الحرص على الإثراء الاحترافي، والمضمون المميز، بالإضافة للابتكار في الطرح وفي عرض مختلف مواده لمتابعي المركز. وكل ذلك ينبع من مسؤوليتنا -هكذا نرجو- تجاه الجمهور الذي يترقب صدور الجديد من المركز فيما نذر نفسه له، وهو الأمر الذي يضع الفريق أمام ضغط مضاعف في



إدارته لمخرجاته.
وقبل الختام، يود مركز براهين أن يشكر، ويرحب، ويحتفي...
فأما الشكر فيسديه للكتاب الفضلاء ، فرسان الكلمة في الأعداد السابقة وفي هذا العدد : رضا زيدان، مصطفى نصر قديح، د. بلقاسم نصر الدين، د. هيثم طلعت، د. هشام عزمي، م. أحمد حسن (أبي حب الله)، أبي بدر الراوي، عمار سليمان، أحمد يحيى.

وأما الترحيب فيوجهه المركز لفضيلة الدكتور خالد بن منصور الدريس أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة الملك سعود، لانضمامه إلى كوكبة الكتاب في هذا العدد، وهو صاحب إسهامات معروفة مشكورة في التعامل مع الحالة الإلحادية وخدمة السنة والعقيدة، فمرحباً به وجزاه الله خيرا ؛ ونرحب أيضاً بفضيلة الشيخ الباحث/ عمرو بن علي بسيوني، وهو من طلبة العلم المتقدمين في المعقول والمنقول، فجزاه الله خيرا على الاستجابة لطلبنا، وعلى إثرائه لهذا العدد.
وأما الاحتفاء فهو بصدور كتاب "ميليشيات الإلحاد" لأخينا الشيخ الباحث/ عبدالله بن صالح العجيري ؛ وهو بحق مدخل مهم توخّى مؤلفه رصد الملامح البارزة لظاهرة الإلحاد الجديد، وقد رصدها بشكل ممتاز، ووفى بشرط العنوان، فجزى الله المؤلف خيراً، ووفقه لمزيد من العطاء المميز.

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب)
آل عمران : ٨

عبد الله بن سعيد الشهري
المشرف العام على مركز براهين

نحو دراسة المكونات الأولى في مجتمعاتنا المعاصرة

من هنا يبدأ الإلحاد!

أ.د خالد بن منصور الدريس

أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة الملك سعود بالرياض

من الحقائق البديهية أن لكل شيء في هذه الدنيا نقطة بداية، و لكي نُحقق الفهم العميق لأي مشكلة إنسانية علينا أن نعرف جذورها، وتحديداً متى تكونت و بدأت؟ ومما يندرج في ذلك من الحالات المعاصرة ما يمكن تسميته بمشكلة (التشكيك في الدين)، و التي هي منطلق إلحاد كثير من الشباب و الشابات.

و قد شد انتباهي أثناء متابعتي لهذا الملف الشائك المدة السابقة، أن هناك أشخاصًا قد تحدثوا عن بدايات تشككهم في تعاليم الدين، فاجتهدتُ في حصر تلك الأمور، لما للتفطن إليها من أهمية في دراسة مكونات الإلحاد الأولى في المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

كما أن دراسة تلك المنطلقات يُسهم في ترتيب أولوياتنا عند مناقشة مشكلة الإلحاد المعاصر في مجتمعاتنا، و كي لا ننساق خلف أطروحات الإلحاد الجديد في الغرب، حيث من الملفت للنظر أن بدايات التشكك الديني في مجتمعاتنا الإسلامية لا يلزم أن تكون مشابهة للظروف الغربية.

وعليه سنجد أن كثيرًا من المساهمات المباركة تركز بصورة واضحة على مسألتين:

الأولى: إثبات وجود الله بأدلة متنوعة تستند على علماء الطبيعة والكونيات المعاصرين.

الثانية: دحض نظرية داروين في التطور.

ولا شك أن هاتين المسألتين في غاية الأهمية، لكن ظهر لي من خلال تجربة شخصية في الحوارات مع بعض الشباب والشابات أن مسألة وجود الله ليست هي القضية الكبرى في تشككهم، وحتى نظرية داروين يجدونها ليست حتمية علمية غير قابلة للنقاش، ولذا وجدت لديهم انصرافًا عما يطرحه كثير من الفضلاء في مناقشة الإلحاد الجديد في مجتمعاتنا، ويرونها لا تلبي حاجاتهم.

ومن هنا أعدتُ النظر في جذور قصص الشباب المتشكك، وتوصلت إلى رسم خارطة أولية قابلة للتعديل والتطوير حول نقطة بداية التشكك في الدين، وبصورة مختصرة وجدت التالي :



أولاً: مسألة عدم إجابة الدعاء، كانت هي نقطة البداية في التشكك في نصوص الوحي الإلهي عند كثير من الأشخاص، و لقد قرأت و سمعت هذا الأمر مراراً، سنبدأ بنص عباس عبدالنور و سنفترض أنه صادق في دعواه -لأننا لا نملك أدلة دامغة على التشكيك في أصل القصة-، و إن كان حديثه عن نفسه في مقدمة كتابه لا يوجد ما يثبته واقعياً و عملياً مما يُلقي بظلال من الشك، و اسم عباس عبد النور مستعار لعدم وجود شخصية حقيقية تحمل هذا الاسم بالمواصفات الواردة في أول كتابه "محنتي مع القرآن".

و هذا غير مستغرب على شخص مثله يطرح طرحاً إلحادياً حاداً يطعن به في القرآن بلاغة و مضموناً في مجتمع مسلم محافظ، كل هذا في حال استبعادنا لاحتمال أن يكون المؤلف غير مسلم أصلاً -و هو احتمال لا أميل إليه-، يقول في "محنتي مع القرآن" ص ٢٦ - ٣٠:

"فقد وقعتُ في أزمات وشدائد، و ركبتني ديون و هموم و غموم لا مخرج منها، لقد أقفلت الدنيا في وجهي، و انسد أمامي كل أفق، فلم أترك باباً إلا قرعته، و لا طريقاً إلا سلكته.. ثم لما أحسست بعجزي، و سقط بالكلية اختياري، تذكرتُ قوله تعالى (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ) النمل: ٦٢.

و هكذا أفرغتُ كل ما في جعبتي من أدعية و تضرع و استغاثة.. يا إلهي استمع إلي من قلب الجوع، من قلب الحاجة، من قلب الحرمان، من قلب المعاناة أناديك، لقد تراكمت ديوني و عظمت كثيرًا. إلهي لقد ادخرتك لهذه الساعات السوداء، كيف أقضي هذه الديون؟ هل أبيع بيتي و هو كل ما أملك؟ أين عساي أن أسكن أنا و عائلتي إذن؟

انتظرت ثم انتظرت عسى الله أن يأتي بالفرج، و لكن عبثًا، و أخذت الشكوك تستيقظ في نفسي بعد أن كانت هاجعة مقموعة، و ما أنا حتى هب في نفسي الإعصار، و تداعى في متناول الإعصار كل ما كان في نفسي قائمًا ثابتًا، و بقيت مدة أعاني من أعقد أزمات الفكر و أشدها وطأة".

و في حالة أخرى موثقة كتب عنها الصحفي ناصر بن حسين في صحيفة الحياة بتاريخ الجمعة ١١ /٤ / ٢٠١٤ تحت عنوان "عائد عن الإلحاد"، قال:

"و ذكر الشاب أن انتقاله من مسقط رأسه في جنوب المملكة إلى المنطقة الشرقية لإكمال دراسته في مجال الصحّة كان «بداية الانتكاسة»، و قال: «حينما بدأت الدراسة، كنت أطلب من الله النجاح دائما، و رسبت في ٣ مواد، ما جعلني أسهب في المقارنة بين حياتي و حياة كثيرين غيري، ممن ليس لديهم اهتمام بالصلاة و الصيام و غيرها من الأمور الدينية، على رغم أنهم يعيشون حياة مستقرّة»، و من هنا «بدأت الشكوك تدهم روحي و عقلي».

و حول اتساع دائرة الشكوك، ذكر أنها بدأت في إجازة الصيف عام ١٤٣٠هـ «إذ كنت في فترة أحتاج إلى الله كثيرا، لكنني لم أوفق»، موضحا أنه لم يكن يحكي ما يشعر به لأحد، و أضاف: «بدأت في تحليل الأحكام العامة و القرآن الكريم و السنة النبوية، ما أوصلني إلى الإحساس بوجود تناقض حول الأدلّة و القضايا الخلافيّة بعد محاولة

الربط بينها كثيرًا»، لافتا إلى أنه لم يكن متأكداً من إلحاده الفعلي، إلا أنه يعلم أنه حينها لم يكن مؤمنا، ما دفعه إلى ترك الصلاة و عدم الصيام مؤقتا".

- و الملاحظ أن الكتابات المعاصرة المعمقة التي تعالج هذا الفهم الأعوج لمفهوم الدعاء قليلة، كما أننا نعاني من نُدرة الكتابات المُيسرة، التي توضح مدى الارتباط بين الدعاء و حتمية مراعاة سُنن اللّه الكونية التي سيّر بها سبحانه هذا الكون، فلا يمكن لشخص مهما بلغت عبادته و تقواه و زهده و انقطاعه لفعل الطاعات أن يدعو اللّه -مثلا- أن يُنبت أرضه و هو لم يزرعها و لم يسقها، بل يُعد هذا من الاعتداء في الدعاء، أو كأن يسأل اللّه أن يرزقه الولد و هو لم يتزوج، أو يسأل اللّه بإلحاح أن يرزقه مالا و هو لم يسلك سُبل الحصول عليه، إن تجاهل تلك السُنن الربانية الكونية هو الذي أوقع عباس عبد النور في فهمه المقلوب بأن قضاء دينه يكفي فيه الدعاء دون السعي و العمل و المثابرة و الجد في دفع ذلك القضاء بقضاء من نوع آخر، يريدون حلولا كسولة بلا مثابرة أو عمل دؤوب لدفع الضرر و الشر. و كذلك ذلك الطالب المشوش الذي لم يَجِدْ في دراسته، و لم يعالج مشكلة غربته وتغير نمط الحياة عليه، فأدى تجاهله لهذه القوانين الحياتية إلى إخفاقه في المواد، و أخذ يسأل اللّه مُلحا في دعائه كالمتمنن على المولى سبحانه بالصلاة و الدعاء و العبادة، بدون مراعاة منه لسُنن اللّه في النجاح.

- و من أعظم المصائب الفكرية المنهجية ظن أمثال هؤلاء أن القرآن لا يلزم أن تأخذه كله كالجملة الواحدة التي يفسر بعضها بعضا، و لذا يقعون في مزلق منهجي كبير، و هو أنهم يعزلون آياته و يفهمونها بعد تلك التجزئة المتعسفة وفق رغباتهم و حاجاتهم الآنية. و في خضم النقاش مع أحدهم سألته مرة هل تجد في آيات القرآن أصولا منصوص عليها عن كيفية الفهم الصحيح لمعاني القرآن؟

فأجابني بأنه لم يفكر في هذا السؤال، و أنه يفهم الآيات بحسب ما يظهر له، و بدون بذل أي جهد منهجي، و هذا مما يؤكد أن قضية (منهجية فهم القرآن من خلال القرآن نفسه) غائبة تماما عن فهمهم، و يجب التنبه لها في الكتابات المعالجة لهذه المشكلة التي تكاد تكون منبع كثير من مشكلات التشكك الديني لدى الشباب.

هذا فضلا عن وجود مشكلة من نوع آخر، و هي أن العبد في مثل تلك المواقف يريد أن (يختبر) خالقه و يمتحنه لا العكس، كما نص عباس عبدالنور صراحة على ذلك في كتابه ص ٢٦، و هذا الفهم المعكوس يدل على تكبر متجذر لأن الشخص هنا كان يقدم طاعاته للّه و عباداته و هو يتمنن على اللّه بذلك، فأنى يُستجاب لمثل هذا؟

و في المقال القادم بإذن اللّه سنكمل الحديث عن نوع مختلف من بدايات التشكك التي تكون بسبب تناقض أفعال بعض الدعاة إلى اللّه مع تعاليم الدين، و سنذكر قصة حقيقية للأستاذة (مرام. س) عبرت فيها عن ذلك بكل وضوح و صراحة.

شذرات معرفية

كامل الإلحاد

رضا زيدان



- هل الإلحاد سهل ؟

- ما المطلوب من الملحد كي أصدقه حين ينفي وجود إله مطلقا ؟

- هل هناك مؤهلات -أو قل تنازلات- نفسية ليصبح الشخص غير مؤمن بصدق بما وراء المادة ؟

- ويمكن صياغة السؤال بلسان ملحد ناشئ: ما الذي علي أن أفعله لأكون ملحدًا (كامل الإلحاد) ؟

- لا شك أن الإلحاد الكامل عقليًا ونفسيًا لا يستطع الإنسان مهما فعل أن يصل إليه ، فكما أن كمال الخير نادر جدا في البشر ممثلا في الأنبياء، فكمال الشر مثله، وكما أن المؤمن يجاهد الشر في نفسه كي يزداد إيمانه، فسيحتاج الملحد أن يجاهد الخير في نفسه كي يزداد إلحاده ومن ثم يواصل نحو كمال الإلحاد.

وهذا المقال يكشف للملحد درجة إلحاده العقلية والنفسية، أما العقلي فسيكون من خلال تحليل مقولة أو فكرة الملحد بأن الله ليس موجودًا، و أما النفسي فسيكون من خلال عرض لإيمانيات الملحد، ولنبدأ بالعقلي ونسأل:

ما معنى: عدم وجود لله ؟

إن نفي وجود الله لا يستطيع الملحد مهما فعل أن يدلل عليه، و أنا هنا أتكلم عن أي نفي. وذلك لأن مفهوم النفي في ذاته ليس ماديًا، حيث لا وجود ماديًا لكلمة ليس في قولنا: زيد ليس في البيت، فمن أين للمادة تصور النفي ؟

الواقع إثبات فقط، كيف يستطيع الإنسان تصور النفي؟

الإجابة الشهيرة هي انتزاع من الإثبات، وهي تسلسل فقط، فسنقول: و أين مفهوم النزع أو التجريد في الواقع ؟ العالم به قضية (+ ق) فقط ليس فيه (- ق) فكيف ابتكرها الانسان ؟

الآن يستغيث الملحد بداروين ولن يفيده، وذلك لأن البيئة أو الحاجة لا تطلب مفهوم النفي أصلا.

فالنفي غاية في التجريد لأنه عكس الواقع، ولتقريب الأمر: هل يستطيع المشاهد لفيلمٍ ما تصور السيناريوهات التي مرت في ذهن المخرج والمؤلف في تحضير العمل ؟!

المادة تحتوي على أحداث في زمن ما ومكان ما وكلها مثبتة، وعلى ذلك: فكيف سيتصور الإنسان النفي بمعزل عن الزمان والمكان ؟



لا مكان هنا للتجربة ، وسكوتها عجزها ،فماذا ستقول العقلانية ؟ سيجد الملحد وجها للهروب في العقلانية التي لا ينصرها ، والتي تقول: بأن الإنسان يفرض للقضية الواحدة الإيجاب والسلب كاستعدادات فطرية ، وهو لنا لا له ، فهذه الغريزة بالذات في منتهى الصعوبة لكي تعطيها البيئة عشوائيًا للإنسان أثناء تطوره، وللتقريب أيضا: هذا الكلام معناه أن الإنسان يولد باستعداد للقبول بجميع السيناريوهات البيئية التي ستواجهه والتي لن تواجهه، فهل للبيئة غاية من ذلك ؟

ثم إن القضيتين: (+ق) و (- ق) تتعلقان بانتزاع اللا موجود من الموجود في زعمهم، و ليس الأمر في نفي اللّه كذلك، بل انتزاع لا موجود (النفي) من موجود (العالم)، لتطبيقه على لا موجود عندهم و هو اللّه! فكان الأمر شديد التجريد، تأمل حيوانا أفكاره داخله الآن و هنا، لا يفكر إلا في الموقف الذي سجن فيه، يتطور إلي درجة نفي الوهم!

الآن أقول: قول الملحد اللّه غير موجود لا معني له على مذهبه.
و قس على ذلك قوله: كان خطأ بشريا بدافع الجهل أن يخلقوا الأديان، فمفهوم الخطأ لا وجود له في المادة أصلا!

و هناك إشكال منطقي على المادية في تعاملها مع التجريد و اللغة، و هو: من الأسبق النمو العقلي أم التطور اللغوي؟

و الإشكال بمعنى آخر: هل نحن ندرك مفهوم النفي أولا؟ أم أن اللغة هي التي احتوت كلمات مثل: ليس، غير، لكن وغيرها من المفاهيم أولا؟

فإن كانت الثانية: فيجب تدخل من خارج العالم، يوجه العقل و يعلم الإنسان البيان!

و إن كانت الأولى: فهذا قول من لا يعلم شيئا عن التجريد و التسمية الإنسانية، فأقول له: هناك خلط كبير بين تجريد الحيوانات -كالدولفين مثلا- و بين الإنسان، فالتجريد الحيواني هو لصق صورة ذهنية كالبطاقة على المتماثلات كتصور النخلة، فهي توجد في ذهن الحيوان بصورة خلاف التجريد و التسمية الإنسانية الفريدة لها، حيث دلالة النخلة عند الإنسان: هي رمز لـ نبات أرضي + طويل + ثماره البلح، و هكذا..

و كلا من الدلالات نستطيع قصها و استخدامها بمعزل عن أصلها، بل و حتى مع غيرها كقولنا في وصف شاب طويل: جاء النخلة على حصانه، و هكذا..

و السؤال الآن: ما حاجة العقل البشري لتحويل اللصق لتجريد دلالي؟ إذ لو كمل العقل أولا فما الحاجة لجعل لغة دلالية؟ و لو كملت اللغة أولا لكانت من خارج العالم لعقل لا يستوعبها، و لاشك أن القدرات العقلية لا تنتظر تطور اللغة، لأن إهمال القدرة يضعفها إن لم يزلها.

هذه هي مشكلة المادية أو التجريبية الشهيرة، ألا و هي سعة العقل على الحدث، أو تعالي العقل على السيناريو الواحد الذي سيواجهه، و التي ليس لها إلا حلين:
- التنازل عن الإنسانية و التفكير داخل الحدث فقط.
- أن تصبح ملحدا ناقص الإلحاد (اتباع الهوى)!

لنختم الآن بالمتطلبات النفسية لتكون ملحدا: للإنسان خاصية فريدة عن باقي الحيوانات و هي إدراك المطلق (Extrasensory Infinity)، و ليس في الرياضيات فقط بل مطلق الصفات النفسية و العقلية - ليس لهذا علاقة بما قاله القديس أنسلم [1] -، و ذلك مثل إدراك معاني الخير و الرحمة، و النفي و التناقض، و كلهم بمبدأ واحد غير مادي، و هو التسخير و التمهيد لخلق الإنسان لإدراك الله و مطلق صفاته فيكون كامل الايمان لو عمل بهما، كذلك الملحد لو تنازل عن مطلقه / إنسانيته سيتنازل عن عقله و علمه، اللذان يعتمدان على التعميم و الفرض و التجريد، و كلها من المطلق، فإما التنازل مطلقا عن الأخلاق و عن العقل الواسع، و إما قبولهما معا، و لاشك أن الوصول لمرتبة كمال الإلحاد يحتاج أن يطمس الإنسان فطرته، بأن ترى تقطيع جسد طفل بلا ذنب مساو لإنقاذه من الموت، بل و التضحية بالنفس لذلك، فلو لم يستطع فليرجع لربه، و لو استطاع فالنار يخلد فيها من لم يكن في قلبه مثقال ذرة من الخير.



(1) و خلاصته: دائما ما يجد الانسان في ذهنه كائنا كاملا من كل وجه، هذا الوجود الذهني لمطلق الصفات الجميلة، الأكمل له أن يكون ذا وجود خارجي واقعي و ليس ذهني فقط، و هو برهان ضعيف تنبه له الكثير، منهم الراهب جانيلون الذي قال: ليس كل ما يمكن تصوره له وجود خارجي، فالخطأ ليس له وجود، و هو رد قوي ظاهر، للمزيد راجع "فلسفة العصور الوسطى" لعبد الرحمن بدوي ص ٦٥ إلى ٧٨.



الجاذبية أم الإله!

مصطفى نصر قديح



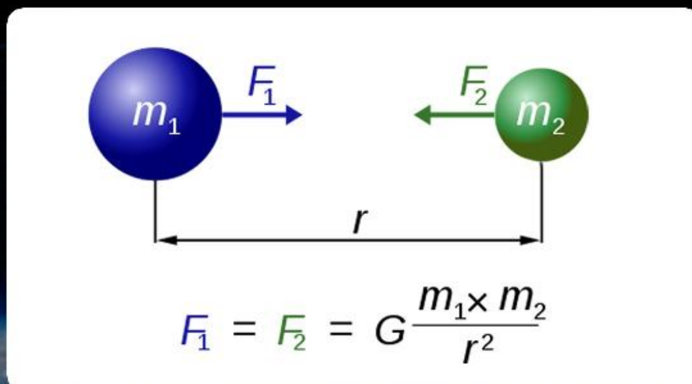
طالعت مؤخرًا كتاب التصميم العظيم أو The Grand Design من تأليف الفيزيائيَّيين ستيفن هوكينج و ليوناردو ملودينو.. و الكتاب يحوي في طياته نقض فكرة الإله جملة وتفصيلا، و يصف الإله بأنه مجرد فكرة ليس لها أي أساس علمي و إن العلم ينفي وجوده مطلقا. هكذا زعم المؤلفين وهكذا دائما يزعم هوكينج، و حاول أن يستدل على صحة ما ذكره بمجموعة من النظريات و القوانين العلمية التي تعد أحد أعمدة الفيزياء، فهل نجح في ذلك أم جانبه الصواب ؟!

- دعونا نناقش سويًا ما طرحه ستيفن هوكينج في كتابه، بموضوعية و حيادية، و في ضوء الأدلة العلمية التي توصل إليها العلم، و ننظر في صحة كلامه من عدمه.. هل ما قاله بُني على أساسٍ علمي تقره الفيزياء أم أن العكًس صحيح؟ و هل كان موفقًا في طرحه و استدلالاته و ما ذهب إليه؟ هذا ما سنتعرض له في موضوعنا..طرحه أم خالفه الصواب؟ فإن كان صحيحا قبلناه، و إن لم يكن رددناه..

و حيث أن المقام لن يتسع لجميع ما جاء في الكتاب من أطروحات، فسوف نسعى جاهدين لنفند ما طرحه المؤلف جزئية جزئية في هذا المقال و في مقالات قادمة إن يسر الله لنا ذلك.. و حيث أن هذا المقال يعتبر كمقدمة و تفنيد لجزئية طرحها المؤلف، فقد قمت باختيار جزئية مما أشار إليه، و أرجأت الأطروحات الأخرى للقاءات قادمة إن شاء الله تعالى، و قد وضعت عنوانا لها "الجاذبية أم الإله؟!"
أعلم أن الأمر يثير التعجب و يبعث الاندهاش، إلا أن الأمر يتطلب منا شيئا من الاهتمام، و الوقوف على حقيقة ما طرحه هوكينج.
يقول هوكينج في كتابه التصميم العظيم في ص١٤٢ :
"لأنها تشكل الزمان و المكان، فإن الجاذبية تسمح للزمكان باستقرار موضعي، و عدم استقرار عالمي. و على نطاق الحديث عن الكون بأكمله، فإن الطاقة الموجبة المتمثلة فى المادة يمكن أن تكون في توازن مع الطاقة السالبة المتمثلة في الجاذبية، و بذلك فإنه لا قيود تمنع من تخليق أكوان كاملة".
"طالما أنه يوجد قانون كالجاذبية، فالكون يستطيع و سيقوم بخلق نفسه من لاشيء! الخلق التلقائي هوسبب وجود شيء بدلا من لا شيء.. ليس لزاما أن نقحم إلها ليبدأ عمل الكون".

يدعي هوكينج هنا أن سبب خلق الكون هو وجود قوة الجاذبية، ويدفعنا ذلك إلى التساؤل.. ما هي الجاذبية؟!
- الجاذبية هي ميل (الكتل و الأجسام) للتحرك و الانجذاب نحو بعضها البعض -كما في الجاذبية بين الأرض و الشمس مثلا- و كمحاولة لوصف قوى الجاذبية بين الأجسام غير المشحونة، استنبط نيوتن قانون الجذب العام من خلال مشاهدات فلكية عديدة.
حيث ينص قانون الجذب العام لنيوتن: "إنّ كل جسم يجذب جسمًا آخر في الكون بقوة محمولة على الخط الواصل بين المركزين، و شدتها متناسبة طرديًا مع كتلتيهما وعكسيًا مع مربع المسافة بينهما."
- الصورة القياسية لقانون الجذب العام لنيوتن:

$$F = G\frac{m_1 m_2}{r^2}$$



حيث:
F هي القوة الناتجة عن الجاذبية.
G هو ثابت الجذب العام بين الكتل.
m_1 هي كتلة الجسيم الأول.
m_1 هي كتلة الجسيم الثاني.
r^2 هو البعد بين الجسيمين.
يتبين لنا من التعريف السابق أن الجاذبية ناشئة عن المادة، طارئة عليها، حيث وُجدت الأجسام (الكتل) أولا ثم عملت الجاذبية على ربطها ببعض..! و هذا هو مفهوم نيوتن عن الجاذبية.

و بعد أن تعرضنا لمفهوم الجاذبية و قانون الجذب العام، هيا بنا الآن عزيزي القارىء لنرى كلام هوكينج عن خلق الجاذبية للكون! حيث يقول هوكينج في بداية كلامه: "إن الجاذبية هي التي تشكل الزمان و المكان (الزمكان)" و هذا صحيح، فوجود الجاذبية هو السبب في ربط الكتل مع بعضها البعض، بل و ربط الزمان بالمكان -كما بين آينشتاين- و هذا ما سنعرفه بعد قليل، و لكن دعنا نكمل كلامه، حيث يقول: "و على نطاق الحديث عن الكون بأكمله ، فإن الطاقة الموجبة المتمثلة في المادة يمكن أن تكون في توازن مع الطاقة السالبة المتمثلة في الجاذبية، و لذلك فإنه لا قيود تمنع من تخلق أكوان كاملة" هذه جزئية سنتعرض لها فيما بعد عندما نتحدث عن نظرية الأكوان المتعددة، و نظرية إم M-Theory (واحدة من الحلول المقترحة لنظرية كل شيء TOE) تفصيليا، و لكن دعنا نعرض الجزء الذي ارتبط بكلامه الأول؛ ألا و هو:
"طالما أنه يوجد قانون الجاذبية فإن الكون يخلق نفسه من لا شيء"
حيث لا أعلم أين الأساس العلمي الصحيح الذي بنى عليه هوكينج كلامه هذا؟!، إذ بعد أن تعرضنا لكلام نيوتن و تعريفه للجاذبية، نجد أن أطروحات هوكينج تعارض ما طرحه نيوتن حول الجاذبية و فهمه لها، حيث يقول نيوتن إن الجاذبية هي عبارة عن: "قوة بين أجسام مادية"، و بالتالي فإنها وجدت بعد وجود الأجسام لا قبلها، فوجودها مترتب على غيرها، لا العكس.. و لأن فهم نيوتن عن الجاذبية لم يكن مكتملا، لنذهب إلى أينشتاين و مفهومه الأوضح و تفسيره الأصح عن الجاذبية. ففي أوائل القرن العشرين، و في بحثين نُشر أولهما في عام ١٩٠٥، و ثانيهما في عام ١٩١٥، قام الفيزيائي الشهير ألبرت أينشتاين بتغيير مفهوم الجاذبية. فحسب نظرية نيوتن كانت الجاذبية هي قوة، بينما أثبتت النسبية أن الجاذبية هي مجال، فحسب النسبية: (الجاذبية هي عبارة عن انحناءات في الفراغ تُسببها الكتلة، فكلما كانت كتلة الجسم أكبر كلما كان انحناء الفضاء حوله أكبر، و الأجسام الأقل كتلة سوف تقع في هذا الانحناء الذي صنعه الجسم الأول، و بالتالي سيأسرها بجاذبيته). و هو ما يعرف بنظرية النسبية لأينشتاين، و بالتدقيق في تعريف أينشتاين، نجد ثلاثة أشياء في غاية الأهمية قد ذكرها واستنتجها من مفهومه للجاذبية:
أما الأول فهو الفراغ؛ و هنا ربما يتصور البعض أن الفراغ هو العدم، و هذا خطأ بالطبع لأن العدم هو اللاشيء، أي ليس هناك شيء لا مادة و لا طاقة، بل و لا حتى فراغ، فالفراغ الذي يقصده أينشتاين هو الفراغ الفيزيائي، و يمكن تعريفه بأنه "المكان أو الحيز الخالي من أي مادة أو طاقة، سوى جزء ضئيل جدا من الطاقة" حيث لا يوجد ما يسمى فراغًا كاملا، فلم يستطع أحد إفراغ حيِّز ما من كل جزيئات الطاقة (المادة)، أي في كل الأحوال فإنه سيحتوي على جزء -ولو ضئيل جدا- من الطاقة.

و أما الشيء الثاني الذي أثبته أينشتاين، فهو المجال؛ و المجال هو المنطقة التي تظهر فيها آثار الشيء، كالمجال المغناطيسي مثلا، فهو المنطقة التي تظهر فيها آثار المغناطيس، و لأنه لا يوجد مجال دون شيء ناتج عنه بالمثل، فالجاذبية هي الأخرى لا يمكن أن توجد دون أن يوجد ما نتجت عنه، و هو المادة (الكتلة).

ثالثا: حسب نسبية أينشتاين: الجاذبية هي عبارة عن انحناءات في الفراغ تُسببها الكتلة، و بإلقاء الضوء على هذه الجملة جيدا، و بالأخص آخر كلمتين (تُسببها الكتلة)، و الضمير في تسببها عائد على الجاذبية، نجد أن الجاذبية ناتجة عن وجود الكتلة و ليس العكس! فعلى حسب كلام كلا من نيوتن و أينشتاين، يتبين أن الجاذبية ما هي إلا قوة ناشئة عن الكتلة (مفهوم نيوتن)، أو مجال ناتج عن وجود الكتلة (مفهوم آينشتاين)، و هو ما يجعل كلام هوكينج غير مقبول لأنه جعل الجاذبية المتولدة بسبب وجود المادة خالقة للمادة.
و كما أنه من المعروف أن بداية الكون و الزمان، و القوى الأربع بما فيها الجاذبية هو الانفجار الكبير، فالحديث عن ما قبل الانفجار الكبير هو شيء خارج نطاق قوانين الفيزياء.
- يجدر بنا أيضا الحديث أنه حتى في الأوساط العلمية لم يلقى كتاب هوكينج "التصميم العظيم" قبولا يذكر، ونرى ذلك واضحًا في آراء علماء الفيزياء، نذكر هنا بعضها فقط..

يقول البروفيسور بول ديفيز الفيزيائي الإنجليزي في صحيفة الجارديان منتقدًا هوكينج بشدة:
"تبقى القوانين المطروحة غير قابلة للتفسير، هل نقبلها هكذا كمعطى خالد؟ فلماذا لا نقبل الله؟ حسنا و أين كانت القوانين وقت الإنفجار الكبير؟ إننا عند هذه النقطة نكون في المياه الموحلة" (١)

- أيضا الفيزيائي و عالم الفضاء مارسيلو جليسر يقول:
"إن ادعاء الوصول لنظرية نهائية يتنافى مع أساسيات و أبجديات الفيزياء و العلم التجريبي و تجميع البيانات، فنحن ليس لدينا الأدوات لقياس الطبيعة ككل فلا يمكننا أبدا أن نكون متأكدين من وصولنا لنظرية نهائية، و ستظل هناك دائما فرصة للمفاجآت كما تعلمنا من تاريخ الفيزياء مرات و مرات، و أراها ادعاء باطل أن نتخيل أن البشر يمكن أن يصلوا لشيء كهذا.. أعتقد أن على هوكنج أن يدع الله و شأنه" (٢)

- عالم الفيزياء النظرية بيتر ويت من جامعة كولومبيا:
"لست من أنصار إدخال الحديث عن الله في الفيزياء، لكن إذا كان هوكنج مصرا على دخول معركة الدين و العلم، فما يحيرني هو استخدامه لسلاح مشكوك في صلاحيته أو فاعليته مثل النظرية إم" (٣)
كما أفردت جريدة الإيكونومست حديثا عن كتاب هوكنج، و وصفت كلامه بغير القابل للاختبار.. مضيفة:
" يبدو أن الفلسفة حلت محل العلم" (٤)

- الفيلسوف الأمريكي ويليام كريج يقول ساخرا هو الآخر:
"لا شيء جديد علميًا في هذا الكتاب بالمرة، و لكن نقاش فلسفي بحت خصوصًا في الثلث الأول! و هو شيء غريب إذا علمنا أن هوكنج في أول صفحة من كتابه يقول: إن الفلسفة قد ماتت" (٥)

كما يقول محمد باسل الطائي أستاذ الفيزياء الكونية بجامعة اليرموك بالأردن:
"قوانين الفيزياء على الحقيقة بحاجة إلى مُشغل، هذا ما نتعلمه من ميكانيكا الكم، فجميع الصياغات القانونية في ميكانيكا الكم تتخذ الصياغة الرياضية الإجرائية Operator formulation و هذه الصياغة تخفي في مضمونها وجود المُشغل، و من جانب آخر فإن جميع الفيزيائيين الدارسين لميكانيكا الكم يعلمون أن الصفة المؤسسة لميكانيكا العالم و ظاهرات العالم هي الصفة الاحتمالية و ليست الحتمية، أي أن نتائج فعل قوانين العالم (القياسات) ليست حتمية بل هي احتمالية، هذه الحقيقة تغيب عن عقل واينبرج، و عن عقل هوكنج حين يتحدثون عن اللّه" (٦)

البروفيسور الرياضيات جون لينوكس والذي أفرد كتابا بعنوان "الإله وستيفن هوكنج.. لمن التصميم إذاً؟" يحدثنا قائلا:
"إن القول بأن الفلسفة قد ماتت، خطير جدا، خصوصا عندما لا تتوقف أنت نفسك عن استخدامها، و لأن هوكينج لديه فهم مغلوط لكل من الفلسفة و الدين، فهو يريدنا أن نختار بين اللّه و قوانين الفيزياء، إن القوانين الفيزيائية لا يمكن أن تخلق شيئا فهي مجرد الوصف الرياضي للظواهر الطبيعية، فقوانين نيوتن للحركة لن تدفع كرة البلياردو على الطاولة بدون لاعب يضربها، القوانين لن تحرك الكرة فضلا عن خلقها.. إن ما يقوله هو هوكينج خيال علمي بحت.

من أين جاءت الخطة الكونية التي تحدث عنها هوكنج؟ إنها ليست من الكون حتما، فمن جعلها تعمل إن لم يكن اللّه؟ إن محاولة العلماء الملحدين الهروب من فكرة الخالق يجعلهم يعزون الوجود لأشياء أقل مصداقية كالطاقة و القوانين أو الكتل! بالنسبة لي: كلما زاد فهمي للعلم كلما زاد إيماني باللّه، لتعجبي من اتساع و تعقيد وتكامل خلقه" (٧)

ولعل السؤال المطروح بشدة الآن، أيهما وُجد أولا الجاذبية أم المادة؟!
فإن قلنا الجاذبية كما يدعي هوكينج، و أنها سبب خلق الكون نفسه، فمن أين جاءت؟ و من الذي كتب لها القانون الذي تسير عليه؟ و إن كانت المادة هي من وُجدت أولا (حسب ما فسره نيوتن و أينشتاين) فلا يوجد أي حجة لهوكينج فيما ذهب إليه، و يصبح مقاله مجرد فلسفة لا دليل على صحتها، و على عكس ما ذكره لنا في كتابه بأن الفلسفة قد ماتت !

و أخيرا ربما يطرأ على الذهن اعتراض على ما ذكرناه: أن كلام ستيفن هوكينج عن الجاذبية ربما يحتمل شيئا آخر غير ما تقدم، كوجود عوالم أخرى غير عالمنا ربما يكون قد نشأ منها، و قد كنت أود أن أستعرض لكم الكتاب بالكامل حتى لا يدور بالذهن مثل تلك الاعتراضات، ذلك أن أطروحات الكاتب كثيرة و مترابطة ببعضها البعض، إلا أن المقام لا يتسع لذلك مع الأسف. فلعل اللقاءات القادمة تفي بهذا الغرض إن شاء اللّه، فإلى موعدنا القادم..

(1) Paul Davies, "Stephen Hawking's big bang gaps", The Guardian, Saturday 4 September 2010.
<www.theguardian.com/commentisfree/belief/2010/sep/04/stephen-hawking-big-bang-gap>

(2) Marcelo Gleiser, "Hawking And God: An Intimate Relationship", September 09, 2010.
<www.npr.org/blogs/13.7/2010/09/08/129736414/hawking-and-god-an-intimate-relationship>

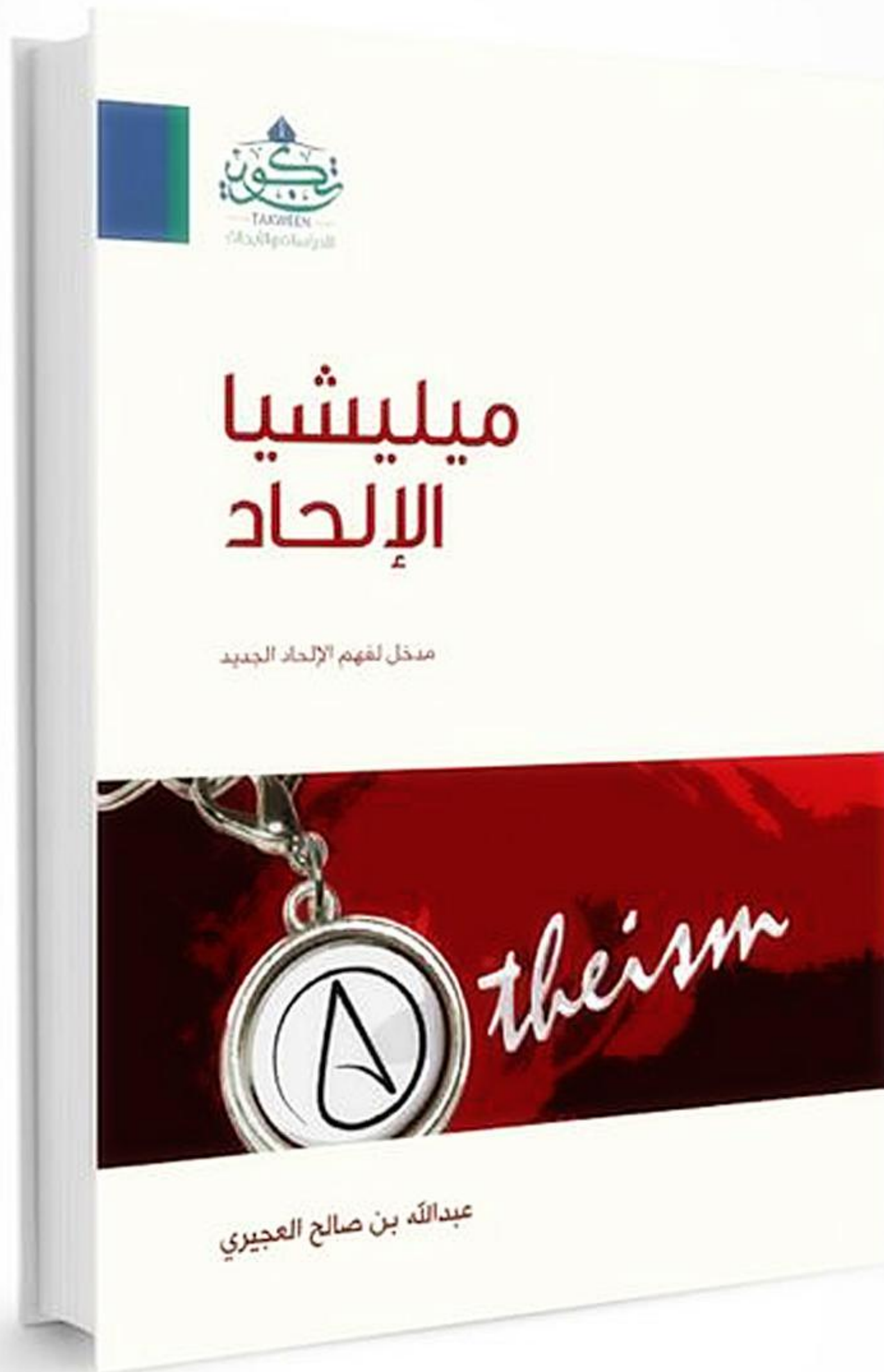
(3) Peter Woit, "Hawking Gives Up", Posted on September 7, 2010.
<www.math.columbia.edu/~woit/wordpress/?p=3141>

(4) "Even Stephen Hawking doesn't quite manage to explain why we are here", The Economist Newspaper, Sep 9th 2010.
<www.economist.com/node/16990802?story_id=16990802>

(5) The Grand Design: A Critique (1 of 3) - Youtube
<www.youtube.com/watch?v=OSYmBsGleT8>

(6) محمد باسل الطائي، "ستيفن هوكنج وخلق العالم؟"، الحوار المتمدن-العدد: ٣١٥٠ - ١٠/١٠/٢٠١٠
<www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=231582>

(7) John C. Lennox, "God and Stephen Hawking: Whose Design Is It Anyway?", Lion UK (September 1, 2011).


TAKWEEN
للدراسات والأبحاث
ميليشيا
الإلحاد
مدخل لفهم الإلحاد الجديد
theism
عبدالله بن صالح العجيري


تكوين
TAKWEEN
للدراسات والأبحاث

تقرير مختصر عن الأسباب الشخصية و الاجتماعية ومعرفية

الإلحاد في العالم العربي

د. هشام عزمي



يعتبر الإلحاد الجديد New Atheism مصطلحًا معروفًا متداولاً في الدوائر الفكرية والفلسفية، ويمكننا أن نؤرخ لبداية صعوده في الغرب بأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، ففي عام ٢٠٠٤ صدر كتاب الملحد سام هاريس Sam Harris (نهاية الإيمان) End of Faith الذي كان من أكثر الكتب مبيعًا في أمريكا، وكان فاتحة سلسلة من كتب الإلحاد الأكثر مبيعًا في العالم.

في هذا الكتاب أشار سام هاريس إلى أن أحداث ١١ سبتمبر - التي ألقى فيها اللوم على دين الإسلام بشكل مباشر - هي الدافع لكتابته هذا الكتاب، وهاجم الإسلام واليهودية والنصرانية بشكل عنيف. وبعد عامين قام هاريس بكتابة (رسالة إلى أمة نصرانية) Letter to A Christian Nation الذي انتقد فيه أيضًا النصرانية بشدة. في عام ٢٠٠٦ عرض ريتشارد دوكينز Richard Dawkins الفيلم الوثائقي (أصل كل الشرور) Root of All Evil طاعنًا في الله عز وجل وفي جميع الأديان، ثم أتبعه بكتابه الأشهر على الإطلاق (وهم الإله) The God Delusion الذي ظل شهورًا طويلة على قائمة الكتب الأكثر مبيعًا في العالم وطبع منه ملايين النسخ وترجم إلى العديد من اللغات.

لماذا نسعى لمعرفة أسباب الإلحاد في مجتمعاتنا العربية؟

١) تفيدنا معرفة أسباب الإلحاد في توصيف الحالة الإلحادية وتشخيصها بدقة وموضوعية، وبالتالي إجراء العلاج الصحيح. وإذا فشلنا أو عجزنا عن تحديد التشخيص بشكل سليم، لن نحدد العلاج بشكل سليم.

٢) معرفة التنوع الكبير في أسباب الإلحاد يجعلنا أكثر موضوعية في تناول الظاهرة ويقينا من اختزالها بشكل سطحي في سبب واحد فقط مثل المؤامرات الخارجية أو حب الشهرة أو الموضة أو حب الشهوات.

يحكي المهندس عبد الله العجيري عن موقف وقع له مع أحد طلبة العلم عندما تطرق الحديث عن الشباب الملحد، فقال إن كل هؤلاء الملحدين طلاب شهرة! [1] فهذا الاختزال المجحف لأسباب الحالة الإلحادية يبعدنا كثيرًا عن الموضوعية وعن تفهم أحوال الملحدين، وبالتالي يخلق حواجز عالية تحول بيننا وبين دعوتهم إلى الحق.

٣) كذلك معرفة نقاط ضعفنا المعرفية والمجتمعية التي يتسلل منها الإلحاد إلى شبابنا تفيدنا في السعي لإصلاح هذه العيوب ورتقها ؛ فيهتم الآباء بالحوار مع أبنائهم الصغار والإجابة على أسئلتهم قبل أن يكبروا ويصبحوا خناجر مسمومة في قلب دينهم وأمتهم، وتهتم المؤسسات الدعوية بتحصين المجتمع ضد الأفكار والأطروحات الإلحادية ونشر الأجوبة على تساؤلات الشباب في صيغ عصرية كتابية و مرئية بحيث تكون في متناول العوام، وتهتم مراكز الأبحاث بتفكيك العلاقات بين النصوص الشرعية و معطيات العلم التجريبي وتحليلها بالشكل الذي يدرأ الشبهة ويرفع التعارض الموهوم بين النقل والعلم، و هكذا..

أسباب الإلحاد في العالم العربي

يمكن تقسيم أسباب وقوع الشباب العربي في الإلحاد إلى أسباب شخصية واجتماعية ومعرفية، لكن قبل سردها أجد أنه من المهم التركيز على بعض الأسباب المحورية التي أبرزها كثيرٌ من الباحثين في قضايا الإلحاد الجديد.

الثورات العربية:
يرى عدد غير قليل من الباحثين والمتكلمين في قضية الإلحاد أن الثورات من الأسباب البارزة للإلحاد ؛ فالشيخ عبد المنعم الشحات يرى أن وقوع الثورات من أسباب الإلحاد، ويعلل ذلك بأن المزاج الثوري يدعو للثورة على كل الثوابت ومن أهم هذه الثوابت الدين [٢]. كذلك المهندس فاضل سليمان يذكر نفس الرأي في حلقة تليفزيونية من برنامج (مصر الجديدة) على قناة الناس مع خالد عبد الله بتاريخ ٢٢-٥-٢٠١٣ [٣]، ويستشهد بصعود الإلحاد بعد الثورة الفرنسية والثورة البلشفية، وينقل عن ألكسي دو توكفيل صاحب كتاب (الديمقراطية في أمريكا) الذي خصص فصلاً من الكتاب حول الإلحاد. وممن يرى هذا الرأي كذلك د. حسام أبو البخاري ود. أحمد الغريب في حلقة من برنامج (القاهرة اليوم) مع عمرو أديب بتاريخ ٢٩-٥-٢٠١٣ [٤].

ومما يلفت النظر في هذا السبب تحديدًا أن الباحثين المصريين دون غيرهم هم الذين يشيرون إليه باستمرار، ونحن عمومًا لا نخالفهم في أهميته وإن كنّا لا نرغب في تضخيمه بدليل أن الإلحاد موجود في مجتمعات عربية وإسلامية لم تبلغها الثورات مثل بلاد الخليج.

صعود الإلحاد في الغرب:
يرى المهندس عبد الله العجيري أنه هناك موجة إلحادية عارمة في أوروبا وأمريكا حيث شهد هذا بنفسه عندما كان مبعوثًا للدراسة بالخارج، وأن هذه الموجة العالية لا بد أن تبلغ آثارها مجتمعاتنا العربية بسبب أننا في موقع التبعية الفكرية للغرب. لكن المهندس عبد الله كان يأمل أن يتأخر بلوغ هذه الموجة لبلادنا العربية بعض الشيء بسبب عائق اللغة، ثم اكتشف سقوط هذا العائق أمام الحركة النشطة جدًا والدعوبة لترجمة الكتب والمقالات والأفلام والوثائقيات الإلحادية إلى اللغة العربية [٥].

ثنائية القابلية والتأزم:
ذكر الأستاذ عبد الله الشهري في محاضرته ضمن فعاليات دورة (تهافت الفكر الإلحادي) [٦] أن السبب الأول والأهم لوقوع الشخص في الإلحاد هو وجود القابلية للإلحاد، وهذه القابلية قد تكون نفسية أو فكرية. ودور التأزم هو أنه يحول هذه القابلية إلى إلحاد فعلي، والمقصود بالتأزم هو أن يقع الشخص في أزمة أو ابتلاء أو محنة، لكن الابتلاء قد يؤدي إلى الإيمان أو الإلحاد على السواء ؛ فهناك من الناس من تدفعه المحن والابتلاءات للجوء إلى الله تعالى والقرب منه، ومنهم من تدفعه إلى

اليأس من روح اللّه، فالعامل الذي يدفع الشخص إلى الإلحاد عند الأزمات هو وجود القابلية للإلحاد.

الطبيعة الحدية للمجتمع:
ذكر الدكتور طارق الحبيب استشاري الطب النفسي في برنامج (بيني وبينكم) مع دكتور محمد العوضي في حلقات بعنوان (سيكولوجية الملحد) [٧] أن طبيعة المجتمع العربي -و الخليجي على وجه الخصوص- التي لا تقبل الاختلاف، التي تقوم على اللون الأبيض و الأسود و لا وجود للرمادي بينهما، تجعل الإنسان ربما يتجه إلى الإلحاد كتعبير عن التمرد على ذلك المجتمع، لكن يعيب طرح الدكتور طارق هو تضخيمه لهذا العامل والمبالغة فيه.

بعد هذا العرض لأبرز الأسباب التي اهتم الباحثون بذكرها والإشارة إليها نشرع في ذكر بقية أسباب الإلحاد الشخصية والاجتماعية والمعرفية.

أولاً: الأسباب الشخصية:
وهي التي تعود إلى الشخص نفسه، ويمكن تقسيمها إلى أسباب نفسية وأسباب فكرية، لكن مراعاة لعدم المبالغة في التقسيم سنذكرها مجموعة تحت تقسيم واحد.

١) الثقة الزائدة بالنفس والغرور المعرفي
بعض الشباب عنده ثقة زائدة بإيمانه وصحة اعتقاده، وفي كثيرٍ من الأحيان يكون هذا الإيمان مجرد إيمان قلبي عاطفي ليس مؤسسًا علميًا بشكلٍ صحيح، فهو إيمان بالقلب دون معرفة أو علم سليم بالدين وأدلته وأسباب اليقين به. وعندما يتعرض هذا الصنف من المؤمنين لتحديات واستشكالات وتساؤلات الإلحاد لا يجد لديه من العلم أو المعرفة ما يدفع به هذه التساؤلات والشكوك، وهو في نفس الوقت لا يعترف بجهله بدينه وبأن الأجوبة على هذه التساؤلات موجودة لكنه يجهلها، فتكون النتيجة هي وقوعه في الإلحاد.

٢) الجفاف الروحي
عدم الشعور بلذة العبادة والقرب من اللّه والأنس بذكره ومناجاته تبارك وتعالى يؤدي إلى جفاف شديد في المشاعر الروحانية، وهذا الجفاف يجعل قرار الإلحاد يسيرًا على المرء، بخلاف من عاين وخبر هذه المشاعر.

٣) السطحية الفكرية
بعض الشباب عندما يشرع في قراءة بعض الكتب أو المقالات أو الفيديوهات التي تروج للإلحاد قد ينبهر بما تعرضه نظرًا لافتقاده الحاسة النقدية أو لعدم قدرته على التمحيص والنقد لكل ما يُعرض أمامه من أطروحات، فيكون هذا الأمر بابًا للوقوع

في الإلحاد، بينما لو تريث الشاب حتى يزداد علمًا ورسوخًا في القراءة والمعرفة لكان قراره مختلفًا تمامًا، كما يقول د. هيثم طلعت: (الإلحاد هو حكمٌ سطحيٌ كسولٌ للغاية على قضية عميقة للغاية ممتلئة بالأدلة) [٨]. ومن هذا الباب أيضًا المقولة المشهورة لفرانسيس بيكون: (قليل من الفلسفة يؤدي للإلحاد والتعمق فيها يؤدي للإيمان).

٤) الاندفاع والعجلة
وهذا السبب قريبٌ من الذي قبله لكنه يتعلق بالجانب النفسي لا الفكري.

٥) سطوة الشهوات ومحاولة الهروب من وخز الضمير
وهذا من أبرز أسباب الإلحاد بين المراهقين حيث يتعارض الاستمتاع بالشهوة مع الشعور بالذنب ووخز الضمير، ويكون على المرء أن يختار بين طاعة اللّه والانخراط في الشهوات، فيكون قراره هو التخلص من اللّه والدين وتكاليفه. وهذا هو ما يدندن حوله كثير من منظري الإلحاد في كلامهم عن أن الشخص عندما يتخذ قرار الإلحاد يشعر بحالة من الارتياح والخلاص من التكاليف الدينية، لكن بالطبع هذا الشعور المبدئي بالراحة والتخفف من التكاليف الدينية يليه بعد فترة - طالت أو قصرت - الشعور بالقلق النفسي وفقدان السعادة وعدم القدرة على التلذذ بالمتع الدنيوية حتى مرحلة اليأس والقنوط من مصاعب الحياة الدنيا والرغبة في الانتحار.

٦) الاضطرابات النفسية
هناك علاقة بين الإلحاد وعدد من الاضطرابات النفسية مثل اضطراب الشخصية الحدية BPD الشخصية التي لا تعرف إلا لغة الـ مع و الـ ضد، وكذلك اضطراب الشخصية شبه الفصامية Semi Schizotypal Personality Disorder، الشخصية غريبة الأطوار، تكون في كل حالاتها كذلك و ربما تعتنق الإلحاد كجزء من الاضطراب. و هناك أيضا دوائر تتقاطع مع الاضطرابات النفسية -و هي ليست كذلك- مثل أصحاب الشذوذ الجنسي (Homosexuality - Bisexuality - etc..) يتم استهدافهم في الدعاية للإلحاد بزعم أن الإلحاد هو المذهب الوحيد الذي يمنحهم حريتهم الجنسية. و أخيرًا دائرة مرض الوسواس القهري OCD و التي تتقاطع مع الإلحاد و تبدو كذلك و لكنها قطعًا ليست إلحادًا و لكنه مرض يحتاج إلى العلاج.

٧) نظرية الوالد المشوه "المعيب"
وضع هذه النظرية البروفيسور بول فيتز أستاذ علم النفس بجامعة نيويورك مستخدمًا أدوات المدرسة التحليلية الفرويدية في علم النفس ليخرج بنتيجة مخالفة تمامًا لما وصل إليه فرويد ومنتقدًا إياه [٩].
ولفهم هذه النظرية بدقة من المهم أن نتعرف بإيجاز على المدرسة التحليلية في علم النفس التي وضع أسسها سيجموند فرويد الذي لفت النظر إلى وجود ما يعرف باسم العقل الباطن أو اللاوعي أو اللاشعور، وكيف أن هذا العقل الباطن يؤثر في

سلوكياتنا وأفكارنا وقراراتنا دون أن نشعر.
وينطلق بول فيتز من هذه المدرسة في علم النفس فيقرر أن دوافع الإلحاد وموانع الإيمان بالله تعالى هي بالأساس نفسية وليست عقلية منطقية، وأن هذه الدوافع تنقسم إلى قسمين: سطحية مثل الانتماء لفئة اجتماعية أو علمية معينة أو عدم الرغبة في التقيد بالتكاليف الدينية أو غيرها ؛ وعميقة في العقل الباطن وهي الدوافع التحليلية.
يرى فرويد أن أسباب الإيمان بالله نفسية لا يمكن الاعتماد عليها، وهي تعبيرٌ عن عقدة أوديب حيث يتخلص الأبناء من أبيهم الذي يغارون منه حتى يظفروا بأمهم، ثم ينشأ لديهم الشعور بالذنب تجاهه، ثم يتطور هذا الشعور إلى تعظيم وتبجيل ثم عبادة وتأليه، وهكذا ينشأ الإيمان بالله عند فرويد.
ينتقد فيتز هذا التصور من عدة وجوه لكن أبرزها هو أن الأوقع والأصوب - على سبيل الإلزام - اعتبار الإلحاد تعبيرًا عن عقدة أوديب حيث أن إنكار الإله هو هزيمة هذا الرمز الأبوي والانتصار عليه. لكن فيتز في الحقيقة لا يرى أن العقدة الأوديبية هي الصورة الصحيحة لتفسير الدوافع التحليلية في العقل الباطن للإلحاد.
تتلخص نظرية بول فيتز في أن المرء ينظر إلى الله سبحانه وتعالى على أنه أب مثالي، وعندما تتشوه صورة الأب الأرضي تختل بالتبعية صورة الأب السماوي مما يؤدي إلى الوقوع في الإلحاد والجحود وإنكار الله. ومن صور هذا الأب المشوه أو المعيب أن يكون ضعيفًا أو غير محترم أو عنيفًا أو قاسٍ أو غير موجود، ومن الأمثلة التاريخية لهذا الأمر: فرويد - فولتير - ماركس - هتلر - فيورباخ.

ثانيًا: الأسباب الاجتماعية:
وهي التي تنبع من المجتمع المحيط بالملحد في الأسرة والمدرسة والجامعة والعمل والأصحاب.. الخ..

١) الجمود الديني وضعف المناعة المجتمعية
والمقصود بهذا هو انخفاض مستوى التدين في المجتمع بشكل لا يوفر لأفراده المناعة أو الحصانة ضد الأفكار المخالفة بما فيها الإلحاد وأطروحاته. وهذا الانخفاض في التدين قد يكون على صورتين: انخفاض مستوى العلم بالدين والتفقه فيه بين الناس ؛ وانخفاض مستوى الالتزام بالطاعات ومراقبة الله في الأفعال والسلوكيات بين عوام الناس. في مثل هذا المجتمع الهش دينيًا يسهل على أفكار الإلحاد أن تتسرب بيسر إلى عقول وقلوب الشباب الذين لم ينشئوا على علم بالدين أو استحضار مراقبة الله في سلوكياتهم.

ولا يعني هذا الكلام أن أبناء الأسر المتدينة سيكونون محصنين ضد خطر الإلحاد والانحراف، بل الواقع أنه إذا كان المجتمع الخارجي في عمومه متحجرًا دينيًا وغير قادر على مواجهة الأفكار المنحرفة ويسود فيه الجهل بالدين وعدم الالتزام به عمليًا وسلوكيًا، فليس هناك حصانة حقيقية فعلية لأبناء الأسر المتدينة، بل هم عرضة للوقوع في الإلحاد وسائر الانحرافات كغيرهم.

والمقصود بالجمود أو التحجر الديني هو عدم تطور أدوات وصياغات الخطاب الشرعي لتواكب الأطروحات الثقافية والعلمية الجديدة والتحديات التي يفرضها العصر والأوضاع الاجتماعية المستحدثة لكثير من الفئات المجتمعية، ولا يُقصد بهذا التطور تبديل الدين أو تغييره ليناسب الأفكار الدخيلة عليه.

٢) كبت الأسئلة

بعض الأسر أو المجتمعات تمارس نوعًا عجيبًا من القهر على أبنائها فتمنعهم من طرح الأسئلة أو الاستشكال، وتهددهم بأن مجرد طرحها يعني الكفر والمروق من الدين، أو قد يقابلون أسئلة الشاب أو استشكالاته بالسخرية والتهكم والاستهزاء مما يدفعه لكتمانها صيانةً لمروءته وكرامته من الامتهان.

هذه الممارسة لكبت أسئلة الشباب تدفعهم للتفكير في أن الإسلام نفسه لا يملك أجوبة على التساؤلات وأنه يكبتها ويحرّمها حتى لا يقع الدين في الإحراج، وبالتالي تتضخم قوة هذه الاستشكالات والشبهات في ذهن الشاب إلى درجة تفوق حجمها الحقيقي ويظن أن الإسلام دين ضعيف لا يملك أجوبة ولا حلولاً لأسئلته حتى تصبح في نهاية المطاف السبب في إلحاده وتركه للإسلام بالكلية.

٣) اضطهاد المرأة

هذا من أبرز وأكبر أسباب الإلحاد بين الفتيات خصوصًا أن دعاة الإلحاد يستهدفون المرأة بدعاياتهم الإلحادية بزعم التحرر من سلطة الآباء وقهر الذكور وغيرها من الشعارات، فإذا انضمت إلى هذه الدعاية ما تلاقيه المرأة من اضطهاد وظلم وقهر في مجتمعها أو أسرتها كان هذا داعيًا قويًا للوقوع في فخ الإلحاد.

أنا شخصيًا تعرفت إلى قصة فتاة مصرية من أسرة ثرية جدًا كان أخوها الأكبر ضابط شرطة، وكان هذا الأخ الضابط يمارس عليه ألوانًا كثيرة من الضرب والعنف إذا خالفته وكأنما هي أحد المجرمين الذين يتعامل معهم في قسم الشرطة! وفي نفس الوقت كانت هذه الفتاة تتواصل عن طريق مواقع التواصل الاجتماعي مع عدد كبير من شباب الملحدين الذين أداروا رأسها بمعسول الكلام عن التحرر من السلطة الأبوية الذكرية بالإضافة إلى عبارات الغزل والغرام، وأنهم على استعداد لتهريبها إلى أحد دول شمال أوروبا كلاجئة ملحدة هاربة لأنهم يريدون تطبيق عليها حد الردة في بلدها، ولا يخفى على القارئ الكريم كيف يمكن أن تصبح فتاةً مثل هذه فريسةً سهلةً لأي أحد في بلد غريبة.

وأسوأ من هذا الأمر أن يتم تبرير هذا الاضطهاد والقهر للمرأة دينيًا بحيث تكتشف المرأة أن الإسلام هو سبب اضطهادها وظلمها، فيكون هذا داعيًا إلى تركها له. يحكي الأستاذ منير أديب قصة طبيبة مصرية ملحدة كان أول ما دفعها للإلحاد هو أن زوجها السلفي ضربها على وجهها، فلما شكت لوالدها أخبرها أن الله أعطى لزوجها هذا الحق وتلا الآيات القرآنية في ذلك، تقول الطبيبة: (كنت في غاية العجب من تفسير كلام والدي إن صح، أن تكون وصية الخالق ضرب وإهانة المرأة، خاصة وأن

الإسلام يحرم ضرب الحيوان ذاته ؛ فهل المرأة هنا أقل من الحيوان؟) [١٠]

٤) تخلف الأمة
وهذا قد يعد من أسباب الإلحاد في المجتمعات المتخلفة حضاريًا خصوصًا إذا تم الربط بين هذا التخلف والدين ؛ فعندما يقارن الشباب المنبهر بالغرب بين تقدم الغربيين الكفار وتحضرهم وترقيهم في مدارج العلوم والحكمة، وبين تخلف بني قومه من المسلمين وتأخرهم وانحطاطهم قد تكون هذه المقارنة دافعًا له لفقدان الثقة في قدرة الإسلام على تحقيق التقدم والنهضة، وبالتالي الكفر به بالكلية.
وفي بعض الأحيان تكون الأمة - أي أمة - في محنة اقتصادية أو اجتماعية ويتم طرح حلول لهذه المحنة ويتطلع أفراد الشعب لهذه الحلول على أنها الأمل في إنهاء الأزمة والخروج من عنق الزجاجة، ثم يقوم رجال الدين برفض هذه الحلول لأنها مخالفة للدين أو متضمنة للكفر أو غيره من الأسباب، فيكون هذا الأمر من أسباب تفشي الإلحاد في هذه الأمة كما حدث في أوروبا في عصور النهضة والتنوير.

٥) تمزق الأمة وتفرقها
وهذا أيضًا من أسباب الفتنة التي تؤدي بالشباب إلى الإلحاد ما بين سنة وشيعة وأباضية ومعتزلة، ثم بين السلفيين والأشاعرة والصوفية، وهكذا.. وهذه من أسباب الفتنة بين الشباب غير القادر على تمييز الحق من الأباطيل في هذه الأشلاء، فيقع في حيرة كيف يرضى الله الحكيم الرحيم أن يكون الدين سببًا في كل هذا التنافر والتناحر بين أبنائه مما يؤدي به في نهاية المطاف إلى الكفر بالله والإلحاد.

ثالثًا: الأسباب المعرفية:
وهي المتعلقة بالعلم والمعرفة والشبهات، وأفضل من تكلم عنها د. الطيب بوعزة الفيلسوف الأكاديمي المغربي في مداخلة ببرنامج حوارات نماء مع الدكتور عبد الله القرشي وعبد الله العجيري وعبد الله الشهري بتاريخ ١٠ رجب ١٤٣٤ هـ [١١] حيث ذكر أسباب الإلحاد النفسية والمعرفية، وعند ذكر الأسباب المعرفية أوجزها في الآتي:
١) ضعف وفقر المكتبة العربية الإسلامية في نقد الإلحاد الجديد، فيجد الشباب المتشكك والمتسائل نفسه في العراء، وفي المقابل هناك وفرة في المواد الإلحادية كتابية و مرئية بشكل يجعل المعادلة تميل بشدة لصالح الإلحاد.
٢) اعتماد العلماء على صياغات كلامية قديمة بائدة لا يفهمها العوام بينما الشبهات معروضة بصياغات يسيرة قريبة للفهم.
٣) رفض بعض العلماء التصنيف في الرد على الشبهات، فعندما يبحث الشباب عن ردود على الشبهات التي تحاصره لا يجد، وبالتالي يظن أنه لا توجد ردود ولا إجابات، فيفقد ثقته في قدرة الإسلام على مواجهة الإشكالات والتساؤلات مما يؤدي في نهاية المطاف إلى الوقوع في الإلحاد.

وهذه الأسباب المعرفية للسقوط في الإلحاد تضم أيضًا شبهات كثيرة أهمهما:
- وجود الشر في العالم.
- القتل والحروب باسم الدين.
- شبهات حول القضاء والقدر.
- شبهات حول الحكمة الإلهية في الخلق.

لكن أهم هذه الأسباب المعرفية من وجهة نظري هو المتاجرة بالعلم لترويج الإلحاد؛ حيث يتم الترويج لنظرية التطور مثلاً على أنها حقيقة قطعية يقينية وأنها هي العلم الذي لا يقبل الخلاف، كما يتم الترويج للنظريات الحديثة في نشأة الكون خصوصًا على يد العالم الفيزيائي الأشهر ستيفن هوكينج. فإذا تعارضت هذه النظريات مع الدين كان هذا دليلاً عند القوم على بطلان الدين وخرافاته. وهذا هو التحدي الأكبر الذي يواجه الإسلام الآن؛ مواجهة هذه النظريات العلمية وتمحيصها وتمييز الحق من الباطل فيها وفق منهجية شرعية إسلامية عقلية سليمة.

خاتمة و توصيات

في نهاية هذا المقال حول أسباب وقوع الشباب العربي في الإلحاد أجد أنه من المفيد أن أكتب توصيات مختصرة بخصوص تناول هذا الملف، وقد فضلت في الحقيقة أن أستعمل نموذج د. جاسم سلطان في تجسير الأفكار وتجسيدها حتى نتمكن من تحويل أفكارنا في مواجهة ملف الإلحاد إلى واقع فعلي.
بحسب هذا النموذج هناك ثلاث مجالات للعمل في هذا الملف:

١) مجال الصناعات الفكرية الثقيلة، وهو المتعلق بمراكز الأبحاث والدراسات العلمية والشرعية على السواء، ومهمة هذه المراكز البحثية هو تناول أفكار الإلحاد وأطروحاته بالبحث والدراسة العميقين سواء على المستوى العلمي التجريبي أو المستوى الفلسفي على أيدي خبراء مختصين وباحثين مؤهلين تأهيلاً نوعيًا للخوض في هذه القضايا، وإخراج نتائج مبنية على دراسات عميقة مؤصلة.

٢) مجال الصناعات المتوسطة، وهو المتعلق بنشر الأفكار وترويجها وتيسيرها للعوام في الكتب والصحف والإعلام المكتوب والمرئي والمسموع والأفلام الوثائقية التاريخية والثقافية والعلمية والدروس الدينية والمحاضرات والندوات العامة، والغرض من خوض هذا المجال هو تقديم خلاصة أفكار مراكز البحوث إلى الناس بصورة سهلة يسيرة بناءً على خطط ومنهجية وأهداف محددة.

٣) مجال الصناعات الخفيفة، وهو المتعلق بالدعوة الفردية وتقديم الاستشارات الفكرية والتربوية والنفسية للشباب المتشكك وأصحاب التساؤلات وأهالي الملحدين وأصحابهم وزملائهم في العمل والدراسة وتوفير الدعم الفكري والنفسي عند اللزوم، وكذلك التدخل السريع للحوار مع الملحدين بغرض هدايتهم أو مناظرتهم عند اللزوم.

و لا يعني بالطبع هذا التقسيم أن الصناعات الثقيلة أهم وأفضل من المتوسطة أو أن المتوسطة تفوق أهمية الخفيفة، بل كلها متساوية في الأهمية، والحاجة إليها كلها بالغة جدًا كما هو معلوم لكل متابع لملف الإلحاد في البلاد العربية. و لا أملك في ختام هذا المقال المتواضع إلا أن أدعو الله ألا أكون قد أثقلت عليكم، وأسأله عز وجل أن يصلحنا جميعًا ويصلح شبابنا وشعوبنا، وأن يهدينا لكل خير ويصرف عنا كل سوء، اللهم آمين!

[١] فهم الإلحاد الجديد.ش.عبدالله العجيري - ديوانية الغنام - يوتيوب
www.youtube.com/watch?v=xB6E7bGhzkw

[٢] ١. تمهيد - الإسلام يتحدى" مدخل علمي للإيمان"- الشيخ م .عبد المنعم الشحات - أنا السلفي - يوتيوب www.youtube.com/watch?v=Bz-WoKVJ1Xw

[٣] قناة الناس مصر الجديدة خالد عبد الله إلحاد الشباب بين التهوين والتهويل - حلقة ٢٠١٣-٥-٢٢ - قناة الناس - يوتيوب www.youtube.com/watch?v=v_QaS-vFKK8

[٤] عمرو اديب حلقة كاملة عن الالحاد والملحدين سؤال هل تلاحظ إنتشارالإلحاد في مصر؟! لقاء مع علماء الاسلام - القاهرة اليوم - يوتيوب
www.youtube.com/watch?v=fkRupdJSkSA

[٥] المرجع السابق (١).

[٦] الدورة التي ألقاها الشيخ عبدالله الشهري في #ملتقى_تهافت_الفكر_الإلحادي - يوتيوب www.youtube.com/watch?v=GQLQJeIXzrY

[٧] محمد العوضي (بيني وبينكم ١٤٣٣) [٢٥] سيكولوجية الملحد ١ - قناة الرأي - يوتيوب www.youtube.com/watch?v=ml9hfuDwlDc

[٨] د. هيثم طلعت، الرد على الملحدين العرب الجزء الأول، ص١.

[٩] Paul Vitz, Psychology of Atheism, Antimatters - Issue 6 (Vol. 2 No. 4) December 2, 2008

[١٠] منير أديب، الإلحاد بين أفكار أصحابه وهجرة أتباعه، دار مقام للنشر والتوزيع ص٩٦.

[١١] برنامج حوارات نماء ملف الإلحاد ١٠ رجب ١٤٣٤ هـ - مركز نماء للبحوث و الدراسات - يوتيوب www.youtube.com/watch?v=O2NdxEvWyRw

[١٢] تجسير الأفكار و تجسيدها - د. جاسم سلطان - تأويل - يوتيوب
www.youtube.com/watch?v=zaq_AwCuTJY

الهيومانية
كبديل عن الدين

د. هيثم طلعت

- هل يمكن أن تحل الهيومانية Humanism - الإنسانية - بديلاً عن الدين ؟
- هل يمكن التأسيس للقيمة والمعرفة والغاية والأخلاق في غياب الإله ؟

لقد عاش الجنس البشري آلاف السنين تحت تأثير الدين، واستطاع الدين أن يوفر جميع أوجه الحياة الأخلاقية والقانونية والعقائدية وحتى اللغة، ومن ثَم فمن حقنا أن نتساءل عما إذا كان من الممكن إنتاج جيل ملحد إلحادًا كاملاً ؟

لكي تنجح هذه المحاولة لابد من التنشئة في عزلة تامة عن كل دين وعن كل فن وعن كل دراما للوجود الإنساني، وإلغاء كل ما يمكن أن يَستحضر النشء أمامه من رؤيا لعالم آخر، وبالتالي إلغاء جميع الأعمال الفنية التي تُصور صراع الإنسان في العالم وتطلعه لعالم أفضل، لأن كل هذه الأمور ستؤدي إلى شعور الإنسان بالإغتراب في هذا العالم، وهو شعور ميتافيزيقي روحاني بحت.

- دعايا لأحد المنظمات الهيومانية «رابطة الأنسانيين الأمريكية» يتم الترويج فيها لدعاوي التخلي عن الدين والإله والاحتفاظ بالخير.

في الواقع هذا أمر صعب في الوقت الراهن لأن الملحدين يعيشون في ظلال الدين، ويمكننا أن نزعم أن كل أخلاق الملحد هي مجرد تأثر بالدين ومبادئه الأخلاقية الأساسية، بطريقة صامتة غير محسوسة ولكنها ثابتة، فقد تربى الملحد في ظلال الدين عشرات السنين وهو في نقده للدين يتأثر بأخلاق من ينتقدهم، إن جوهر الإنسان في أخلاقياته وليس في طبيعته المادية هذه حقيقة ثابتة.

إن أخلاق الملحد هي عطية الدين هكذا علينا أن نزعم إلى أن ينشأ مجتمع إلحادي كامل.

لكن بعيدًا عن زعمنا، سنحاول أن نتصور تصورًا إبستمولوجيًا -معرفيًا- مجرد صورة مبسطة للقيمة و الأخلاق من منظور مادي إلحادي مُجرد بناءًا على رؤية الملحدين أنفسهم.

أثبت فلاديمير لينين - مؤسس الدولة البلشفية الملحدة - أن الأخلاق خدعة ميتافيزيقية، وقرّر فريدريك إنجلز - أبو النظرية الماركسية - في كتابه "أصل العائلة والدولة والملكية الخاصة"؛ أن النظام الأُسري نظام برجوازي، وأن شيوع النساء وإلغاء منظومة الزواج هو الحل الأقرب لروح الإلحاد المادي.

لكن لماذا لا نكون أكثر تفاؤلاً وأكثر ونفترض أنه تم التأسيس للمجتمع

الإلحادي الكامل بناءًا على أخلاق مثالية!، أخلاق كاملة كالتي نادى بها الدين، أخلاق أصلية واضحة و راسخة في الذهن البشري!

لكن في هذه اللحظة على دعاة الإلحاد أن يطلبوا من الناس مزيدًا من المثالية و التضحية، ربما أكثر مما طلب أي نبي من قومه بإسم الدين، فليس ثَمة إغراءات ماورائية، و ليس ثمة تطلع أُخروي يبرر التضحية و الالتزام بالمُثل العليا، التي هي جوهر القضية الأخلاقية! و كما يقول المفكر الإنجليزي جون لوك:

إذا كان كُل أمل الإنسان قاصرًا على هذا العالم، و إذا كنا نستمتع بالحياة هنا في هذه الدنيا فحسب، فليس غريبًا ولا مجافيًا للمنطق أن نبحث عن السعادة، و لو على حساب الآباء و الأبناء.

إنها معضلة و أي معضلة، لكن سنتنزل مرةً أُخرى و نتصور أنه تم التاسيس للمجتمع الإلحادي الكامل، و نتصور أن هؤلاء الملحدين قرروا التضحية و تبني نموذج أخلاقي، إمعانًا في تحدي مجتمع المؤمنين، و قرروا أن يتركوا الشر و الظلم، و قرروا أن يلتزموا بالأخلاق المثالية، هنا ستظهر المعضلة التي بلا حل، فداخل العالم الإلحادي لا يوجد معنى مادي للشر أو الظلم، فالشر أو الظلم هو وضع الشيء في غير محله، و محل الأحداث في عالم الإلحاد المادي، هو نفس المحل الذي تحدده القوانين الفيزيائية، و بما أنه لا توجد ذرة تخالف تلك القوانين، إذن كل حدث في الكون المادي قد وُضع في محله المادي، و لذلك المفترض ألا يوجد في المجتمع الإلحادي ولا في الكون المادي ظلم أو شر.

فالإنسان مُستوعب تماما في الطبيعة، قوانين الطبيعة هي قوانينه، تسري عليه الحتمية المادية الفيزيائية بمنتهى الأداتية المعرفية، فلا يمكن الاستقلال برؤية متجاوزة أو مغايرة لما تفرضه المادة، وإلا لاعتبرنا أن للإنسان أصل آخر و مقدمة أُخرى و لانهار الإلحاد.

أيضًا العقل مادة مُتلقية طبيعية لا تتجاوز هذا الإطار، و الحالة النفسية الحاكمة في النموذج الإلحادي هي حالة نفسيةٌ للمادة و ليس للروح، و بالتالي لا يمكنُها أن تُخَطِّئ حالةً ماديةً أخرى, فحتى تناطحُ الذراتِ هو تصرفٌ لا خطأ فيه ما دام موافقًا للقوانين الفيزيائيةِ الصحيحة.

و طبقًا لهذه الرؤية الإلحادية المادية الحتمية فإنه في المرحلة التالية سيتنازل الإنسان عن مركزيته، فالإنسان من منظور مادي إلحادي ليس هو المركز، بل المركز هو الطبيعة المادية و قوانينها و حتمياتها، و بالتالي سيحل محل مركزية الإنسان مركزية الطبيعة باعتبارها المُطلق الأول، و هذا يعني انهيار المشروع الهيوماني (مشروع الإيمان بالإنسان)، و بذا يُصفى الإنسان على حد تعبير الدكتور عبد الوهاب المسيري لحساب الطبيعة، و سيتم استيعابه تمامًا و يسقط في هيمنة المادية الحتمية، و يصبح أي حديث عن الإنسان أو قيمه أو مركزيته هو حديث ملوث ميتافيزيقيًا، و يتحول الإنسان إلى حيوان مادي مجرد، و يعود للصراع الدارويني الذي دخل به التاريخ، و في

هذا الإطار المـادي التجريدي يصبح الحديث عن الهيومانية لغوًا فارغًا، و تتحول الشعارات إلى سخافة لا معنى لها، فما معنى حماية المعاقين أو المرضى الوراثيين أو تقديم يد العون لهم؟

إن محاولة من هذا القبيل تأتي ضد الانتخاب الطبيعي و البقاء للأصلح، و إذا كانت الرؤية الداروينية هي الرؤية الصحيحة، و كانت حتمياتها هي الأصل الثابت، فلن يستوعب الإنسان أصلاً فكرة حماية المعاق أو تقديم يد العون للضعفاء، بل إن تعقيم المعاقين -أي منـــعـهـم من الإنـجـاب- هو الحل الدارويني الأمثل و الأوحد.

أيضًا في الإطار المادي الحتمي الإلحادي كيف تتم المناداة بمفهوم الإنسانية الهيومانية، في عالم يحكمه البقاء للأصلح؟ بل إن أية محاولة لمعاندة هذا الإطار المادي هي محاولة فاشلة، لأنها تأتي ضد التطور، و ضد قوانين الحتمية المادية التي تسري على الوجود.

يقول الدارويني جيمس هِلْ James J. Hill: "إن الثروات تُحدَد تبعاً لقانون البقاء للأقوى." (١)

و يقول تايل Tille: "من الخطأ الشديد مجرد محاولة منع الفقر أو الإفلاس أو مساعدة الضعفاء أو محدودي الإنتاج... مجرد مساعدة هؤلاء خطأ جوهري في النظرية الدروينية، لأنه يتعارض أساسا مع الانتخاب الطبيعي، و هو جوهر الداروينية." (٢)

و طبقا لهربرت سبنسر Herbert Spencer فإن: "فكرة وسائل الوقاية الصحية و تدخل الدولة في الحماية الصحية لمواطنيها و تلقيحهم تعارض أبسط بديهيات الانتخاب الطبيعي، و كذلك مساندة الضعفاء أو محاولة حماية المرضى و الحرص على بقائهم."! (٣)

هذه هي الصورة التي يتيحها الإلحاد المادي، إنها المعادلة المستحيلة.. يستحيل أن يتم التأسيس للأخلاق داخل المنظومة المادية، لا يوجد داخل العالم المادي الهيوماني ما يُفرح الإنسان أو يسليه، أو يؤسس لقيّمه، أو يؤسس لمبادئه، أو يؤسس لأخلاقياته، يستحيل أن يوجد داخل المنظومة المادية ما يجعل الإنسان إنسانًا.

فالأخلاق و القيمة تمثلان ثغرة في النظام الطبيعي، فالأخلاق ثغرة معرفية كبرى في النسق الكوني، و لذا لا يمكن إخضاعها لقوانين الطبيعة و حتميات ماركس التاريخية، أو حتميات داروين العضوية أو حتميات دوركايم الاجتماعية، هذا الاختلاف بين الأخلاق و الطبيعة يُعبِّر عن نفسه في الاختلاف بين المؤشر في العلوم الطبيعية و المؤشر في العلوم الإنسانية.

- الأخلاق تسير عكس الطبيعة أو بمعنى أدق لا علاقة لها بالطبيعة، فالأخلاق ثغرة في الزمان، فهي نتاج خلق و ليس تطور! و الله خلقها كاملة لأن الله لا ينتج ولا يشيد، و إنما يخلق، و هذا يؤكد أصالة ظهور الإنسان.

- الأخلاق عقليا غير مربحة، بل ضارة، بل هي أكبر عبئ على صاحـبـهـا، و قد

تساءل ماندفيل Bernard Mandeville، أستاذ علم الأخلاق الإنجليزي: ما أهمية الأخلاق لتقدم المجتمع و التطور الحضاري؟

و أجاب ببساطة: لا شيء بل لعلها تكون ضارة.

و لذا فالأخلاق لم تتم البرهنة عليها عقليًا إلى الآن، و الأخلاق و الدين هما أقدم الأفكار الإنسانية تُرًا، و قد ظهرا سويًا مع الإنسان كل هذا يؤكد أصالة الظهور الإنساني و غائية الأخلاق التي يحملها، إنها اللحظة التي صنعت عصرًا جديدًا.

إن الإنسان يتحرك في الحياة و هو يعلم يقينًا أنه ليس مُفصل على طراز داروين، و لذا يرفض باستمرار إلحاح العلم المتزايد على أن الجنس الأبيض أفضل من الأسود، أو أن إبادة المعاقين و الضعفاء خيرٌ للجنس البشري، أو أن الإنسان حيوان مادي، و هذا يؤكد أن الإنسان لا يستطيع أن يرفض التكليف الإلهي بداخله، و أن الإلحاد لا يصلح لتحليل ظاهرة الوجود الإنساني!

و تأتي النزعة الهيومانية الإنسانية الجديدة كتوكيد عجيب على هذا الأمر، فهي تستقي مباديء غير مادية و غير علمية، تؤسس بها لمفاهيم مستقلة عن الوجود المادي، و تؤكد بها أن الإلحاد يرفض أن يكون إلحادًا، و أن الملحد في قمة إلحاده يترفع عن المادية الحتمية، و لذا لنا أن نتساءل: إذا كان الله غير موجود كما تزعمون، فلماذا التمحك في ظلاله؟

لماذا محاولة التأسيس لفلسفة هيومانية ملوثة ميتافيزيقيًا؟

إذا كان الإنسان ابن المادة و من المادة و إلى المادة، فلماذا الحديث عن سموه أو قيمته أو مركزيته؟

إن الهيومانية هي توكيد متزايد على أن الإلحاد لا يصلح لتحليل ظاهرة الوجود الإنساني، و أن الإلحاد شيء و الإنسان الروح و الجسد شيء آخر تمامًا.

لقد حاول كهنة المادية الإلحادية الغربية -بعيدًا عن هذه الرؤى الميتافيزيقية- تحليل ظاهرة الوجود الإنساني، فوجدوا أن الإنسان لا يعدوا كونه كائن طفيلي لا يوجد ما يُميزه، و لذا فقد ظهرت دعوات تعميمية تُنادي بإلغاء التفرقة بين البشر و الحيوانات و الحشرات، بل و النبات، و محاكمة كل من يتعرض للفيروسات أو دودة الأرض، لأنه بيولوجيًا لا فرق بين الإنسان و دودة الأرض، فكلاهما على نفس الدرجة من التطور النوعي.

يقول كريستوفر مانيز Christopher Manes : "لا يوجد مستند لرؤية البشر ككائن أرقي من غيره." (٤)

و في سويسرا ظهرت قوانين عدم إذلال النباتات. (٥)

و يقول بيتر سنجر، الأُستاذ بجامعة برينستون Princeton university: "حياة رضيع ليست أغلى داروينيًا من حياة شبمانزي أو خنزير." (٦)

و يقول الدارويني الأمريكي James lee: "يجب تقليل عدد البشر قدر الإمكان، يجب إيقاف الزواج و قتل الرُضع"، و قد اتخذ هذا الدارويني وسائل حقيقية لقتل البشر باعتبارهم طاعون و حيوان طفيلي فاسد، و في سبتمبر ٢٠١٠ قُتل جيمس لي حين اتجه إلى موقع قناة ديسكفوري و أخذ ثلاث رهائن، و كان

معه بعض القنابل، إلا أن الشرطة لم تمهله و أردته قتيلاً، قبل أن يُنفذ مخططه الداروينى. (٧)

يقول فرانسيس فوكوياما في كتابه الأشهر نهاية التاريخ: "حقوق الانسان لها مشكلة فلسفية عميقة إذ لابد أولاً أن نفهم الإنسان قبل أن نبحث في حقوقه، نفهم طبيعة الإنسان، فالعلوم الطبيعية الحديثة تشير إلى أنه ليس ثمة فارق بين الانسان و الطبيعة، و عندما نوسع في المساواة التي تنكر وجود أي اختلافات بين البشر، فيمكن أن يشمل ذلك إنكار وجود اختلافات هامة بين الانسان و القردة العليا، و تنشأ عن ذلك أسئلة لا حصر لها، إذ كيف يكون قتل البشر غير مشروع، في حين قتل هذه الحيوانات ليس كذلك، و سنصل حتمًا في مرحلة ما إلى السؤال التالي: و لماذا لا تتمتع الطفيليات المعوية و الفيروسات بحقوق مساوية لحقوق الإنسان؟

إن عدم اهتمام الناس بهذه المساواة يوضح أنهم لا يزالون يؤمنون بمفهوم ما عن تفوق قدر الانسان، و حتى حماة الطبيعة و حماة الحيوانات، هم فقط يدافعون عن الحيوانات لأنهم يحبون بقائها معنا، و مجرد إفنائها لا سبيل لتعويضه مع ضياع فوائد ربما تُكتشف منها مستقبلاً، فحتى حماة الحيوانات هم للإفادة منها و ليس من أجلها، و هذا عكس حقوق الحيوان، إن مفهوم التوسع في المساواة أدى إلى حيرتنا الراهنة، إننا لو كنا نؤمن حقًا أن الانسان مجرد كائن في سلسلة حيوانية يخضع لقوانين الطبيعة، ليست له قيم متجاوزة، هنا كان لابد أن تتساوى الكائنات جميعًا في الحقوق، و سيتعرض ساعتها المفهوم المساواتي للبشر للهجوم من أعلى و من أسفل، ولا يسمح لنا هذا المأزق الفكري الذي أوقعتنا فيه النسبية الحديثة بأن نرد على هذا الهجوم أو ذاك، و بالتالي لا يسمح لنا بالدفاع عن الحقوق المساواتية -فإما طبقية متوحشة، أو مساواتية مستحيلة."(٨)

إنه تحليل مدهش و حقيقي للمأزق الهيوماني، فإن فرانسيس فوكوياما يرى أن المساواة مستحيلة داخل المجتمع المادي، حيث يتحول الإنسان داخل هذا النموذج إلى كائن قانع بسعادته، غير قادر على الإحساس بالخجل، عاجز عن الارتقاء فوق مستوى احتياجاته، و بالتالي فإن الإنسان لم يعد إنسانًا. (٩)
أليس الإنسان الكامل في هذه الصيغة هو كائن فج جدير بالإحتقار-و الكلام لفرانسيس فوكوياما-، كائن عاطل عن الإجتهاد و الطموح، و هنا تضيع ملحمة الوجود الانساني و دراما الحياة الانسانية.. لقد مات الانسان في النموذج المادي. (١٠)

بل إن فرانسريس فوكوياما يصف الملحد في هذه المرحلة بالكلب، يقول فوكوياما إنه: داخل ذلك العالم سيصبح الناس حيوانات من جديد، كما كانوا قبل المعركة الدامية التي بدأ بها التاريخ، إن الكلب يقنع بالنوم في ضوء الشمس طوال اليوم شرط أن يُطعموه، و ذلك لأنه راض بما هو عليه، و لن يقلقه أن غيره منَ الكلاب حالها أفضل من حاله، أو أن مستقبله ككلب قد جُمد أو أن كلابًا

في بقعة نائية من العالم تصادف المذلة و الهوان. (١١)

و يتنبأ فوكوياما في صفحة ٢٧٤ من كتابه أن حياة مجتمع مادي إلحادي هيوماني كامل هي حياة بلا فنون ولا أدب ولا دراما ولا كفاءة، و قليلون سيتصدرون للخدمة العامة و ستكون الحِرف مبتذلة و غير متطورة، و في مَرحلة ما سيكون هذا المجتمع عاجزًا عن الدفاعِ عن نفسه في وجه الحضارات الأُخرى حيث الحضارات الأخرى أصحابها على استعداد لهجر الراحة و الأمن، و يخاطرون بحياتهم من أجل القيمة.

وإذا كانت الهيومانية تسعى للتأسيس لفلسفتها في إطار العلم بعيدًا عن الدين، فماذا لو أثبت العلم أن العِرق الأبيض أفضل بيولوجيًا من الأسود؟ و أنهم في مرتبة أعلى في سلم التطور، هل سيتم الفصل العنصري بين البيض و السود داخل المجتمع الإلحادي الهيوماني؟ أم ستتم معاندة العلم و البيولوجيا، ومعاندة الانتخاب الطبيعي، و إقرار المساواة بين البيض و السود، و ساعتها ستكون أكبر خيانة للتطور و أكبر ضربة للماديين؟

بالمناسبة: هناك آلاف الأبحاث التي أثبتت تفوق الجنس الأبيض على الجنس الأسود ماديًا و بيولوجيًا، منها قديمًا أبحاث عالم الإنسانيات الشهير صموئيل مورتنَ Samuel Morton، و أبحاث لويس أجاسي Louis Agassiz الذي كان يقول بأن البيض ليسوا سفاحين حين أبادوا الهنود الحمر، و لكنهم يتبعون قضية حتمية في تشكل الأعراق، فهذه هي حتمية العلم، و حديثا ظهر كتاب قوس الجرس Bell Curve، أكثر الكتب مبيعًا في السبعينات، و هو الكتاب الذي يتحدث عن أنه لا فائدة من تعليم السود أو تحصينهم من الأمراض، لأنهم أضعف عقلاً و أفقر ذهنـًا من البيض، و لابد من إنفاق المال في أُمور أكثر فائدة.

ماذا لو أثبت العلم تفوق الرجل على المرأة ماديًا، و أن الرجل في مرتبة أعلى بيولوجيًا من المرأة؟ هل ستتم المساواة بين الجنسين داخل المجتمع الإلحادي، أم سيكون هذا مطلب غير علمي غير عقلاني عبثي ميتافيزيقي، يقف في وجه التطور و حتميات الطبيعة؟

بالمناسبة: المرأة طبقًا لأدبيات التطور لها تصنيف في السلسلة الحيوانية مستقل تمامًا عن تصنيف الرجل، فالمرأة تندرج تحت تصنيف Homo parietalis ، بينما الرجل تحت تصنيف Homo frontalis، فدراسة حجم الجمجمة في القرن التاسع عشر أثبتت وجود فرق جوهري في حجم المخ لصالح الرجل بمقدار ١٢- ١٩ ٪، و كتب كارل بروكا Brucca يقول أن مخ المرأة أضعف بكثير من مخ الرجل.

فحجم المخ الخاص بالمرأة يكاد يطابق ذلك الخاص بالغوريلا، و المرأة تأتي في المرحلة السفلى من مراحل تطور الإنسان. (١٢)

و يرى داروين أن المرأة لا تصلح إلا لمهام المنزل، وإضفاء البهجة على البيت، فالمرأة في البيت أفضل من الكلب. (١٣)

هذه هي الرؤية الإلحادية الهيومانية للإنسان بصورتها الحقيقية، فالإلحاد حرَّر أتباعه من أية أعباء أخلاقية، و إذا لم يتم تبني هذه الرؤية في المنظومة الهيومانية، فهذا يعني انهيار الأساس الذي بُنيت عليه الهيومانية، و بالتالي استقاء عناصر غير مادية من خارج المنظومة الهيومانية، سيكون اعترافًا بعدم صلاحيتها كمنظومة فكرية مستقلة لتفسير المغزى الوجودي!

إن الأمر الذي لا يجب أن نغفله هنا؛ هو أن الحروب العالمية كانت دائما نتاج المجتمعات الأرستقراطية الملحدة، و الإلحاد هو الذي زوّد الإمبريالية الغربية بإطار نظري لإبادة الملايين باسم العرقية المادية و البيولوجية الداروينية، و لن تتجاوز الهيومانية هذه الرؤية مهما تظاهرت بخلاف ذلك، و على الهيومانية أن تتبنى بمنتهى الهدوء اليد الخفية عن آدم سميث، و المنفعة عن بنتام، و وسائل الإنتاج عند ماركس، و الجنس عند فرويد، و إرادة القوة عند نيتشه، وقانون البقاء عند داروين، و الطفرة الحيوية عند برجسون، و الروح المطلقة عند هيجل، و إلا فالهيومانية ستُعتبر تمرد على المادية الحتمية. (١٤)

هذا هو الإلحاد الهيوماني عند التطبيق، و هذا هو أصل معركته و شعارها و دثارها، و في هذا السبيل قامت حربان عالميتان أُبيد فيهما قرابة ١٢٠ مليون نسمة، و كانت حروبًا من الدموية بحيث أرجعت كلاً من المنتصر و المهزوم ثلث قرن إلى الوراء، فالحربان العالميتان اللتان أبادتا حوالي ٥٪ من سكان العالم كانتا نزاع إلحادي-إلحادي، و قام الفلاسفة بوضع مبولة في وسط باريس بدلا من تمثال الجندي المجهول كنايةً عن نهاية الحضارة.

و قد اعتبر الليبرالي الشهير -رئيس الولايات المتحدة السابق- جون كوينسي آدمز John Quincy Adams أن حرب البيض ضد الهنود الحمر هي قانون الطبيعة، و لهذا القانون تطبيقاته الواسعة جدا." (١٥)
فاستئصال طبقة كاملة من الناس، و تفريغ قارتين كاملتين من البشر-تفريغ الأمريكتين من الهنود الحمر- ما كان ليحدث لولا الرؤية المادية للوجود الإنساني، و قد اعتبر الليبراليون الأوائل أن إبادة الهنود الحمر نوع من الدفاع الشرعي، و نتيجةً لذلك: تقلّص عدد الهنود الحمر من ١٠ مليون إلى ٢٠٠ ألف نسمة خلال سنوات قليلة، و لذا يقول سيمون بوليفار Simón Bolívar محرر أمريكا اللاتينية: "يبدو أن الولايات المتحدة تسعى لتعذيب و تقييد القارة باسم الحرية". (١٦)

و ليست إبادة الملايين في أرخبيل الكولاج The Gulag Archipelago، على يد الملحد لينين و الملحد ستالين، إلا من خلال مبرّر إلحادي شيوعي، و ليست إبادة ٢٢٪ من سكان كمبوديا إلا بمبرر إلحادي على يد بول بوت Pol Pot، و ليست إقامة الحرب العالمية الثانية كلها إلا بمبرر قومي مادي عرقي ألماني على يد أدولف هتلر، و ليست الثورة الثقافية في الصين التي راح ضحيتهاَ ٢٢ مليون نسمة إلا بمبرر إلحاد ماوي Mao Zedong، فالحرب في الإلحاد غاية في ذاتها، و المكاسب المادية و تفريغ القارات من البشر، و تطهير الأعراق ليست كلها إلا إفرازات داروينية مادية، و رؤى عِرقية طبيعية،

و هذه الرؤى هي التصور المستقبلي للهيومانية حال التطبيق.

يقول ريتشارد فيكارت Richard Weikart: "لقد نجحت الداروينية أو تأويلاتها الطبيعية، في قلب ميزان الأخلاق رأسا على عقب، و وفرت الأساس العلمي لهتلر و أتباعه لإقناع أنفسهم و من تعاون معهم، بأن أبشع الجرائم العالمية كانت بالحقيقة فضيلة أخلاقية مشكورة." (١٧)

لكن الإنسان له روح خاصة مستقلة عن جميع المخلوقات؛ فهو ليس مُفصّلاً على طراز داروين، و لم يوجد من أجل الصراع، إنما وُجد لعبادة الله من إقامة الحق أيا كان مَن اتبع الحق سواء كان أبيض أو أسود، أما العقل الإلحادي المادي الهيوماني فقد قام بتفكيك البشر بصرامة بالغة ليس فيها موطنٌ للمشاعر الإنسانيّة، و القِيَم الروحيّة.

إن البحث عن السعادة على الأرض من منظور إلحادي هو شكل من أشكال الغرور الإنساني، و هو يعني القول بمركزية الإنسان، و أن له مكانًا خاصًا في الكون، و بداهة لا يمكن القول بوجود غائية إنسانية مستقلة عن الغائية الطبيعية أو المادية.
ولا يأتي الإيمان بمركزية الإنسان و قيمته و سموه إلا بالإيمان بمُطلق أعلى يتجاوز المادة، فالمساواة بين البشر هي مسألة دينية بحتة، فإذا لم يكن الله موجودًا، فالناس بجلاء و بلا أمل غير متساوين، و تأسيسًا على الدين فقط يستطيع الضعفاء المطالبة بالمساواة.

و لذا يقول الدكتور المسيري رحمه الله: إن الإله هو التركيب اللانهائي المفارق لحدود المُعطى النهائي، هو النقطة التي يتطلع إليها الانسان و يحقق التجاوز من خلالها، و من ثَم بغيابه يتحول العالم إلى مادة طبيعية صماء، خاضعة لقوانين الحركة و الصيرورة التي يمكن حصرها و إحاطتها و التحكم فيها، و ينضوي الإنسان تحت نفس النمط، إذ بغياب الإله يتحول الإنسان إلى كم مادي يمكن أدلجته و قولبته في إطار مجموعة من المعادلات الرياضية الميتة، و في هذه اللحظة تموت الروح و يتبعها موت الإنسان، فالإيمان بالإنسان و قيمته و مركزيته و سموه هو إيمان يتجاوز حركة المادة و ديناميكيتها، فعندما يُقرر الإنسان أن ينسى الإله في هذه اللحظة بالذات يكون قد نسي نفسه نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ [الحشر : ١٩]

- فالإنسان كائن أقدامه مغروسة في الوحل و عيونه شاخصة للنجوم.
- كائن ميتافيزيقي يسأل أسئلة نهائية عن معنى الكون.
- أقصى مُتعة لن تكفي إنسانا يعلم أنه وُلد ليموت.

بدون وجود إله تفقد كل الكائنات حدودها و حيزها، و تنشأ إشكاليات في النظام المعرفي و الأخلاقي، و تفقد الأشياء حدودها و هويتها و يَصعُب التمييز بينهما، كما تَختفي التفرقة بين الخير و الشر، و تختفي الإرادة و المقدرة على التجاوز و تسود

الواحدية و الحتمية، و قد اختصر رئيس التشيك فاكيلاف هافل هذه الإشكالية الكبرى فقال عبارته الرائعة: "حينما أعلنت الإنسانية أنها حاكم العالم الأعلى، في هذه اللحظة نفسها، بدأ العالم يفقد بُعده الإنساني"، فالفلسفة الهيومانية ضحت أول ما ضحت بالإنسان.

و منذ اللحظة التي هبط فيها الإنسان من السماء منذ المقدمة السماوية لا يستطيع الإنسان أن يختار أن يكون حيوان بريء أو يكون إنسان مُخير، لم يكن بإمكانه أن يختار بين أن يكون حيوان أو إنسان، إنما اختياره الوحيد أن يكون إنسان أو لا إنسان إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً

[الأحزاب : ٧٢]

فالإنسان هو المركز و الطبيعة هي الهامش.

هذا هو الإنسان، و هذه هي طبيعته الحقيقية، و على الهيومانية أن تتقبله في هذا الإطار، و أن تستمد قيم معرفية متجاوزة، و أن تتجاهل الرؤية المادية الإلحادية الداروينية كتحليل لظاهرة وجوده، و هذا يعني أنها لن تصبح هيومانية و إنما دينًا جديدًا، و في هذه اللحظة تفقد أهم سماتها و خصائصها، و ينهار المشروع الهيوماني ككل.

1- Albro Martin, "James J Hill & Opening of Northwest", Minnesota Historical Society Press (May 1, 1991) pp 414- 15.
2- Williams, Raymond. "Social Darwinism. In Herbert Spencer's Critical Assessment", John Offer 2000.
3- Social Status, p.414-415.
4- Manes, C., Author of Green Rage (1991), quoted in The War on Humans by the Discovery Institute, 18 February 2014: see http://www.youtube.com/watch?v=RWcEYYj_-rg, 38 seconds, accessed 25 March 2014.
5- Meg Hamill, "Switzerland Places Ban on the Humiliation of Plants", Planetsave, accessed 1 May 2014. see http://planetsave.com/2008/10/18/switzerland-places-ban-on-the-humiliation-of-plants/
6- John-Henry Westen, "Princeton Professor Singer: And I repeat, I would kill Disabled Infants", Sep 12, 2006 lifesitenews, accessed 1 May 2014. see http://www.lifesitenews.com/news/princeton-professor-singer-and-i-repeat-i-would-kill-disabled-infants
7- Lauren Effron and Russell Goldman, "Environmental Militant Killed by Police at Discovery Channel Headquarters", Sept. 1, 2010 abcnews. accessed 1 May 2014. see http://abcnews.go.com/US/gunman-enters-discovery-channel-headquarters-employees-evacuated/story?id=11535128
٨ - فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ و خاتم البشر، ترجمة حسين أحمد أمين، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، مركز الأهرام للترجمة و النشر، ص٢٥٩، و الكلام له بالحرف إلا ما بين (- -).
٩ - المصدر السابق ص ١٧.
١٠ - المصدر السابق ص١٨ إلا ما بين (- -).
١١ - المصدر السابق ص ٢٧١.
12- Gould, The Mismeasure of Man, p.105
13- Charles Darwin, "The Autobiography of Charles Darwin 1809-1882", New York pp. 232-233.
١٤ - العلمانية الجزئية العلمانية الشاملة د. عبد الوهاب المسيري، دار الشروق ٢٠٠٢، المجلد الأول ص٢٤٠.
15- Robert Remini, "John Quincy Adams (The American Presidents Series)", Times Books 2002
١٦ - ناعوم تشومسكي، الأيديولوجية و الاقتصاد، ص ٦.
17- Richard Weikart, "From Darwin to Hitler", Palgrave Macmillan 2006, p.215.

المحك

بين ثبات المؤمن و

تنعكس النظرة التي نرى بها الكون و الإنسان على القرار الوجودي المتعلق بالدين و الإلحاد، و ينطلق كل من المؤمن و الملحد من مجموعة من الأطروحات لإثبات صحة دليله و صحة ما يعتقد مستخدمًا جميع الأدوات الوصفية و التحليلية و غيرها، كي يصل إلى نتيجة سليمة تصب في قرارته و أحكامه و فلسفة الحياة عنده.

و لأهمية مفهوم المحكمات في بناء كلتا الوجهتين سأطرح في هذا المقال محاولة تبيان المقدرة التفسيرية لكل من الدين و الإلحاد لمفهوم المحكمات و الثوابت، و ضمنًا مفهوم المتشابه حتى تكتمل الصورة.

عمار سليمان

...مات

...ه ارتباك الملحد

يعرف الدكتور حاتم العوني المُحكمات بأنها: "كل ثابت بأدلة يقينية، يكون عاصمًا للفكر من الانحراف لشدة إتقانه و قوة بنائه الفكري، و يكون الخلل فيه سببًا في الخلل في التفكير". (١)

مسوغات التعريف:

١. تشكل الحقيقة (أي مفهوم الحق) أهم محور و منطلق في حياة البشر، فبدون نظام محكم يقيني لن تستوي المعرفة، و لن تقر أخلاق، و لن يُعرف صحيح من سقيم.

٢. القول المضاد لليقين، الذي هو انعدامها أو ما يُسمى نسبية الحقيقة قولٌ يُدخل صاحبه في إشكال عميق، حيث أنه قول متناقض بذاته؛ فلو سألنا هل قولكم (كل شيء نسبي) هذه المقولة التي بين أقواس هل هي يقينية أم نسبية؟ فإن قالوا: يقينية فقد نقضوا مذهبهم لأنهم لا يعترفون باليقين في الأصل، و إن قالوا: نسبية فقد أبطلوا مقولتهم ذاتها!

٣. "إن المغالاة في النسبية يقود إلى العدمية، بما يترتب عليه من خسارة فضيلة اليقين و منزلة الإحسان، و الإغراق في الارتياب و الحيرة و اللاحسم". (٢)

و لهذا كان اليقين و الحقيقة هما سيدا الموقف، و منطلق البشر السليم.

المحكم الكوني: (الكون المعد بعناية (The fine Tuning universe

هناك مجموعة من الثوابت الكونية تحكم سير عمل الكون، فلو اختلت بمقدار بسيط جدًا يصبح الكون غير صالح للحياة و لا للفهم، و في هذا الصدد يقول أينشتاين مقولته الشهيرة:

"إن أكثر الأمور غير المفهومة في الكون، أنه قابل للفهم"!

The most incomprehensible thing about the world is that it is comprehensible (٣)

١. يقول عالم الأحياء البيولوجية (Michael Denton):

"مثلا: إذا كانت قوة الجاذبية الثقالية أقوى بتريليون مرة، فالكون سيكون غاية في الصغر و تاريخ حياته قصير جدا! فمن أجل نجم متوسط كتلته أقل بتريليون مرة منها للشمس! فسوف لن تمتد حياته لحوالي سنة، و من ناحية أخرى إذا كانت الجاذبية الثقالية أقل طاقة, فلن تتشكل نجوم ولا مجرات إطلاقا، و كذلك فإن العلاقات الأخرى و القيم ليست أقل حدية من ذلك..

فإذا ضعفت القوة القوية بمقدار قليل جدًا فسيكون العنصر الوحيد المستقر هو غاز الهيدروجين، و لن توجد ذرات لعناصر أخرى في هذه الحالة، و إذا كانت أقوى بقليل بعلاقتها مع الكهراطيسية عندئذ: فستحتوي نواة الذرة على بروتونين، و سيكون ذلك مظهرًا لاستقرار الكون عندئذ، و أنه لن يحتوي على غاز الهيدروجين، و إذا تطورت نجوم أو مجرات فيه فسوف تكون مختلفة تماما عن طبيعتها الحالية.

واضح أنه إذا لم يكن لتلك القوى المختلفة و ثوابتها القيم التي أخذتها بالضبط فسوف لن يكون هناك نجوم ولا مستعرات ولا كواكب ولا ذرات ولا حياة" (٤)

٢. و يقول البروفسور (Gerard F Gilmore):
"الطاقة السوداء هي التي تجمع كوننا، و دون هذه الكمية من الطاقة السوداء

فإن الشمس ستبتعد عن مجرتنا، و عليه لن يكون هناك حياة" (٥)

المحكم الكوني في خلق الإنسان:
يقول الكاتب العلمي (Carl Zimmer) في إجابة له على موقع (National Georgic) بخصوص عدد الخلايا في جسم الإنسان:
"إن تقدير عدد الخلايا في جسم الإنسان صعب؛ ذلك بسبب موت عدد كبير جدا من الخلايا في كل ثانية، بالإضافة إلى تفاوت أحجام البشر، و يمكن تقريب القول إن في جسم الإنسان الذي يبلغ وزنه ٧٠ كيلو جراما هناك ٧٠ ترليون خلية" (٦)

و يقول الدكتور منصور أبو شريعة العبادي في مقاله (و في أنفسكم أفلا تبصرون القلب):
"تتفرع الشرايين و الأوردة الرئيسية تفرعات كثيرة بحيث يمكنها الوصول إلى جميع خلايا الجسم، و هي أشبه ما تكون بشبكة توزيع المياه في المدن باستخدام الأنابيب أو المواسير التي تبدأ بمواسير كبيرة، قد يزيد قطرها عن المتر، و تنتهي بمواسير قطرها نصف بوصة عند المنازل. و يبلغ معدل مجموع أطوال الأوعية الدموية في جسم الإنسان ٩٧ ألف كيلومتر! و للمقارنة مع شبكات المياه فإن مجموع طول المواسير في شبكة مياه مدينة القاهرة على سبيل المثال يبلغ ٢٠ ألف كيلومتر تؤمن الماء لخمسة عشر مليون نسمة". (٧)
فانظر إلى الدقة و الإعجاز بين الشرايين و الخلايا و هذه الأعداد العظيمة و كيفية الربط المتقن لها، و لهذا تعتبر هذه من المُحكمات الكبرى للحفاظ على حياة الإنسان و استمرار نظامه.

و انظر إلى هذه الدقة الكونية التي تحفظ سير الكون من الدمار، في معادلات (تُحكم) سير الكون، حيث لو اختلت بشكل بسيط جدا يختل نظام الكون كليا، و يصبح غير قابل للحياة..

نظرة الملحد للكون و الإنسان:
يكثر في نظر الملحد البحث عن الثغرات في النظام الكوني (فساده، العشوائية فيه)، و مثله في جسم الإنسان، يقول التطوري Jay Stephen Gould:
"ما كانت نظرية الانتخاب الطبيعي لتحل محل مذهب الخلق الإلهي لو كان هناك تصميم واضح رائع منتشر في كل الكائنات، لقد فهم تشارلز داروِن ذلك فركّز على المعالم التي لم تكن لتوجد في عالمٍ أُسس وفق الحكمة البالغة. و هذا المبدأ ما زال صحيحا اليوم" (٨)

و يكثر كلامهم عن الأعضاء الأثرية و الضامرة، و بخصوص الكون يكثر الكلام عن (لماذا كل هذا الكون بكبره لخدمة هذا الإنسان و تسخير كل شيء له، و هو نقطة مهملة لا قيمة لها في الكون؟!).. إلى آخر هذه المتشابهات التي يسوّقها الملحد.

و أكبر إشكال عند الملحد أنه يعتقد أن المؤمن لا يُسلم بالفساد من حيث الأصل، و هذا غلط و خلل في تمحيص وجهة النظر الإيمانية.
حيث تنطلق وجهة النظر الإيمانية من باب المُحكم؛ و هو النظام الدقيق في الكون كما سقت بعض دلائله في أول المقال، و أما ما يتشابه من النظام الكوني أو الخلق الإنساني فنظرة المؤمن ترده للمُحكم، و حتى يستقيم الفكر و العقل وإلا لكان الشاذ هو القاعدة و لما قام حكم عقل قط!
ثمّ إن الصورة عند المؤمن تتكون من ظل و أصل، و أي نظر لواحد منهما بمعزل عن الآخر يَنتج عنه خلل في التصور، فنحن نرى السواد الذي في الصورة كعامل إبداع ليكتمل ظلها و جمالها، و نرده إلى تلك الشمس و البحار التي تزين المنظر، و هذا أساس يقام عليه أصل الفكر و متانة المنطق ولا يُنكر.

يقول الدكتور عبد الكريم بكار في آية "و من كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تتذكرون":
"إن فَطْر اللّه (جل و علا) للكون على المزاوجة دليل إضافي على المغايرة بين المخلوق و الخالق المتفرد في ذاته و صفاته و أفعاله، حيث إن ما يترسخ في الخبرة البشرية على الدوام من أن الخلق واحد، و يخضع لقوانين واحدة، و تحكم حركتَه و نموه و انهياره قواعدُ واحدة، إن كل ذلك يدل على توحد الخالق (جل ثناؤه) الذي أوجد كل ذلك التنظيم الدقيق المعجز " (٩)

و عليه فالمؤمن لا ينفي جهله ببعض مظاهر الكون التي لم تتجلى حكمتها له بعد، بل هو يدمجها في المُحكم الكوني المتمثل بالدقة حتى تكتمل جمالية الصورة التي سلبت عقول العلماء و الأدباء.

المُحكم و نقد أطروحة سام هاريس في الحكمة الإلهية:
يبدأ سام هاريس مقاطعا له على ذكر عدد الأطفال الذين يموتون قبل سن الخامسة، و يقول إنهم بالملايين، ثم ينسج على هذه المقولة حججا (عاطفية) في ظلم الإله و كيف يتركهم للموت؟ إلى أن يصل إلى أن الإله غير موجود !
لنستعرض في البداية حسابًا بسيطًا قمت به في يوم ٢٠١٤/٣/٣٠ في الساعة ١٠،٤٠ دقيقة لعدد المواليد و الوفيات في العالم معتمدا على موقع http://www.worldometers.info و كان الحساب كالتالي:

عدد المواليد= ٣٣٦٨٦٦٠٧ *١٠٠ / ٧٠٠٠٠٠٠٠٠٠ =٠،٤٨٪
عدد الوفيات= ١٣٨٩٩٩٠٣ * ١٠٠ /٧٠٠٠٠٠٠٠٠٠ =٠،١٩ ٪
حساب بسيط يرشدك إلى أن المحكم هنا نعمة الحياة، حيث تساوي تقريباً ثلاث أضعاف نسبة الوفيات!

و السؤال المطروح بعدها هو: لماذا لا ينظر الملحد إلى هذه النسبة المحكمة و ما يتبعها من: فرحة و نعمة و خَلق و ترتيب و نظام، و يترك نفسه لمتشابه الأمر الذي لا يدري حكمته!

و كما سأل الدكتور هيثم طلعت في مقال له: كيف يفسر الملحد معضلة الخير في الأرض و هي الأصل و الأساس؟! (١٠)

- فانظر فيمن حولك (أغلبهم): هل الأصل فيهم الصحة أم المرض لا شك أن الصحة هي الأصل و الحياة هي الأصل، إذًا لماذا هذه النظرة من الملحد و كأنه يريد أن يقول أن الأصل هو المرض و الموت؟! و لتفسير عميق لهذه الظاهرة انظر في قول الله تعالى:
"فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ" (سورة آل عمران - ٧).

و يُهمل هاريس قضية في غاية الأهمية في المبحث الوجودي، ألا وهي (مُحكم الحكمة و الإتقان)، فالشخص المتسم بشدة الإتقان و البناء الفكري -كما أشرت بالتعريف- سيجعل موت الأطفال لحكمة و علم: لا عن عبث و عجز!

و لنبين القضية بشكل أوضح: فلنتكلم عن الميزان الكوني في ظل واقعة شهيرة حدثت في ولاية أريزونا الأمريكية، حيث كان يوجد بها في عام ١٩٠٧م عدد ٤٠٠٠ أيل -أي غزال- بسلام، و وفق التوازن الطبيعي المُحكم الذي وضعه الله، فسمحت السلطات الأمريكية للصيادين بأن يصطادو مفترسات تلك الأيائل في تلك المنطقة -مثل الكوجر و الذئاب- ظنا منهم بأنهم سيكونون أرحم من الله بتلك الأيائل! فشرع الصيادون في الاصطياد بالفعل و قتلوا الكوجر و الذئاب إلى أن تناقصت أعدادها بشكل ملحوظ، فماذا حدث بعد ذلك؟؟ في عام ١٩١٦م أصبح عدد الأيائل ١٠٠٠٠٠!! نعم: مئة ألف! ولكن.. كيف ستتغذى كل هذه الأيائل؟ بعد عدة أعوام: هلك نصفها لعدم توافر الطعام الكافي! و بعد أن توقف الصيادون عن اصطياد الكوجر و الذئاب: عاد عدد الأيائل إلى قريب من العدد السابق ٤٠٠٠ حيث وصل في آخر رصيد سنة ١٩٣٩م ١٠٠٠٠ أيل، و هذا تم وفق التوازن الطبيعي الذي فرضه الله، و وفق حكمته! (١١)

فكيف غاب عن الملحد أن موت الأطفال أو أي روح على الأرض تكون عبثاً، و لماذا لم يُرجعها للأصل المُحكم في الكون و هو الحكمة؟ و التي هي هنا التوازن الدقيق العجيب في نظام الكون، و خاصة أن علة القياس واضحة في قياس الأيائل على الأطفال.
مع التنويه على أن موت الأطفال يتبعه اختبار لهم في الآخرة، كما جاء في الأحاديث الصحيحة (١٢)، و مثلهم مثل كل مَن لم تبلغه رسالات الله في الدنيا، و إنما كان امتحانا و ابتلاء لغيره.

و في نهاية الرد على أطروحة هاريس: ماذا يقدم الإلحاد لأهل مَن يموت مِن الأطفال، و ماذا يقدم للأطفال هؤلاء، مِن منطلق ما يكرره مِن أن الطبيعة جبرية؟ لأنه حين تقول ما ذنب فلان أن يترعرع في بيئة لا تؤمن بالدين الصحيح -و هذا يرشد إلى قوله بتأثير البيئة المباشر على البشر- فلماذا تعترض في الأساس على فعلها بالقتل؟ مَن أعطى الملحد هذا الحس الإنساني ليعترض على الفعل المادي الذي هو الأصل عنده؟!

و عليه فالإلحـــــاد لا يقدم شيئًا في الحقيقة إلا العدم..

محكم النطق:
قال تعالى: «فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ» (الذاريات - ٢٣).

يقول ابن كثير في تفسير الآية:
يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به مِن أمر القيامة و البعث و الجزاء، كائن لا محالة، و هو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكون في نطقكم حين تنطقون.

النطق هو هذا الظاهر الذي لا خلاف عليه بين عقلاء أهل الأرض، و هو مِن أحكم الصفات بين بني البشر، و مِن أميزها لهم عن الحيوان! و مع هذا فمسألة النطق و اللغة هي مِن أصعب ما يكون على مستوى التفسير و الماهية، فهي معجزة و آية مِن آيات اللّه، و يفسر كارل بوبر (karl popper) اللغة استنادًا إلى تفسير أستاذه (Karl Bühler) بناء على ثلاث وظائف:

١- الوظيفة التعبيرية: عبارة عن تعبير خارجي عن حالة داخلية، و هذه حتى أجهزة الراديو أو إشارات المرور تستطيع أن تطلق تعبيرات بسيطة، الحيوانات كذلك و الإنسان أيضا، بل حتى أي فعل تفعله هو شكل مِن التعبير الذاتي.

٢- وظيفة الإشارة أو النشر: عندما يؤدي تعبيرنا الذاتي (سواء اللغوي أو غيره) إلى رد فعل في الحيوان أو الإنسان: يمكننا أن نقول أنه أخذ مأخذ الإشارة.

٣ - الوظيفة الوصفية: تتضمن النوعين السابقين، و لكن ما يميز هذه الوظيفة علاوة على التعبير و التواصل (اللذين قد يصبحان جانبين للموقف غير مهمين على الإطلاق) فإنها تصنع عبارات يمكن أن تكون صادقة أو كاذبة: أي تدخل معيار الصدق والكذب .

٤ - و أضاف إليهم بوبر الوظيفة الجدلية (argumentative) :لتضيف الحجة إلى الوظائف الثلاث مع إدخال قيمتيها: الخطأ و الصواب.

و على هذا.. فالمادي أو الفيزيائي على رأي بوبر: لا يستطيع التعامل إلا مع الوظيفة الأولى و الثانية فقط، حيث أن الفيزيائي سيجعلها مقابلة لحالة المتكلم لها وظيفة تعبيرية فقط، و أما السلوكي فسيعتبرها جزء مِن التواصل ورد الفعل لا أكثر! و ما يترتب على قول هؤلاء كارثي (كما يسميه بوبر نفسه) حيث أن هذا الرأي "يغفل كل ما هو مميز للغة البشرية و مفرق لها عن لغة الحيوان: أي قدرتها على صنع عبارات صادقة و كاذبة، و إنتاج حجج صائبة تقوم عليها النظريات العلمية و المناظرات الحجية، و حجج كاذبة يتم تفنيدها بالفحص العلمي، و هذا الإغفال مِن شأنه بالضرورة أن يحجب عنا رؤية الفرق بين الدعاية و الترهيب القولي و الحجة العلمية"! (١٣)

و قد أشار بوبر إلى نظرية نعوم تشومسكي في اللغة "التي يتحدث عنها باعتبارها معجزة، و باعتبارها ظاهرة لا يمكن تفسيرها ماديا، و إنما في إطار نموذج توليدي يفترض كمون القدرة اللغوية في عقل الطفل. و هذا الكمون يعني أن العقل ليس مجرد المخ أو مجموعة من الخلايا و الإنزيمات" (١٤)

انظر إلى هذا الشاهد الواضح الخفي، فالميعاد والقيامة هي أمور واضحة كالنطق، و إن كانت تخفى مثله (أي النطق) مِن حيث التفسير و الماهية!

فهل يجوز لنا أن نحتج بالخرس الذي هو (متشابه) على المُحكم الذي هو النطق، ثم نقول النطق عملية لا أهمية لها لأن هناك مَن لا ينطق، و عليه لا فائدة مِن هذه العملية ثم الإله لا حكمة له فيها ثم الإله غير موجود!

و في النهاية:

أيهما أقدر -بعد هذا التحليل- على تفسير المُحكم و المُتشابه، الإيمان أم الإلحاد؟!

المراجع:

(١) الشريف حاتم العوني، المُحكمات صمام أمن الأمة و أساس الثبات، الإدارة العامة للإعلام و الثقافة، إدارة الثقافة و النشر، سلسلة دعوة الحق كتاب محكم ١٤٣٢ هـ.

(٢) مآلات الخطاب المدني، إبراهيم بن عمر السكران، مركز الفكر المعاصر ١٤٣٥هـ.

(3) Antonina Vallentin «Einstein: A Biography (1954)», p 24.

و قد نقلها عن المقولة الأصلية لأنيشتاين:

(the eternal mystery of the world is its comprehensibility) - "Physics and Reality" in Journal of the Franklin Institute (March 1936).

(4) Michael Denton, «Nature's Destiny :Hom the laws of Biology Purpose in the universe», The New York The free press .1998. p.13-12.

(٥) في مقال على موقع (Voice of America) بعنوان

(Scientists plan to make -3d map of the milky way)

(6) Phenomena:The Loom - Nationalgeographic.com

phenomena.nationalgeographic.com/23/10/2013/how-many-cells-are-in-your-body

(٧) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن و السنة (وفي أنفسكم أفلا تبصرون القلب):

http://quran-m.com/container2.php?fun=artview&id=803

(8) Ever since Darwin – Jay Stephen Gould – P.91

(٩) مقال بعنوان الآية على موقع صيد الفوائد:

http://www.saaid.net/Doat/bakkar/021.htm

(١٠) معضلة الخير - د. هيثم طلعت - الإلحاد في الميزان

http://www.laelhad.com/index.php?p=247-0-2

(11) The Lesson of the Kaibab - Biologycorner.com.

http://www.biologycorner.com/worksheets/kaibab.html

(١٢) يُنظر آحاديث امتحان أهل الفترة في عرصات يوم القيامة مثل الحديث الذي أخرجه قاسم بن أصبغ و البزار و أبو يعلى و ابن عبد البر في التمهيد: "يُؤتى يوم القيامة بأربعة: بالمولود و المعتوه و من مات في الفترة و الشيخ الهرم الفاني، كلهم يتكلم بحجته"

(١٣) كارل بوبر، جون إكلس، «النفس و دماغها»، ترجمة الدكتور عادل مصطفى.

(١٤) الدكتور عبد الوهاب المسيري «الفلسفة المادية و تفكيك الإنسان»، دار الفكر، ص٥٥.

قراءة تحليلة نقدية

لكتاب : السر الأكبر

معلومات مذهلة عن خفايا الكون و الأحداث

الكتاب الذي سيغير العالم

لدايفيد إيكيه



- يعتبر الخيال (العلمي و غير العلمي) أحد أخصب المواد التأسيسية للفن في واقعنا المعاصر وفي ماضينا السحيق، و لكن أن يلبس الخيال ثوب الحقيقة الجازمة التي من شأنها تغيير مجرى الكون و التاريخ والعالم أكمل، و أن يُخرجه لنا بعض من يرفضون المضامين و الأفكار الماورائية رفضا مطلقا غير قابل للنقاش، بدعوى نبذ الخرافة أيا كان مسماها، فهذا من أعجب العجب..

- بعد أن اهتزت أركان نظرية التطور، و التي هي من الأساس لا تقدم لنا أية حلول لمعضلة كيف بدأت الحياة على سطح الأرض، خرج لنا بعض من ينتسبون إلى الدائرة الإلحادية في معناها الأوسع - و التي تضم الكثير - ليخبرونا أن الحقيقة التي غابت عن تاريخ كوننا، هي أن التطور حدث تحت إشراف مخلوقات فضائية.

كتاب (السر الأكبر) ، لمؤلفه : دايفيد إيكيه، كما يصفه أحد ساحات العقلانيين المؤيدين لطرح الكاتب، هو دراسة موثقة بالأدلة عن المخلوقات التي تسيطر على الجنس البشري.

ويتبع قائلا: هذا الكتاب مثير في بدايته إلى نهايته، فهو يطرح آراء وخلفيات وحقائق تاريخية مغايرة للمألوف ويكشف كيف سيطرت سلالات معينة على الكوكب الأرضي ولا تزال تهيمن على مساره ومقدراته.

وحتى لا نطيل في عرض الآراء بين مؤيد و معارض، يتحدث الكاتب عن كائنات (تُسمى : الأنوناكي) أنتجت الخلية الأولى الأساسية ، و منها طوروا الإنسان.

- ويرى أن هنالك ٣ نظريات تتحدث عن من أين أتوا ، وهذه النظريات هي :

- أنهم عرق من كوكب آخر.
- أنهم عرق من باطن الأرض.
- أنهم يتحكمون بالبشر ويسيّرونهم من بعد آخر ، وعبر السيطرة على أجسادهم.

- ويرى الكاتب أن (الأنوناكي) هم من أسس الأديان ، وأن كل الأديان - خصوصاً الإبراهيمية - تم تأسيسها من قبل هذه الكائنات. ويتحدث الكاتب عن وجود منظمة تُسمى بالـ (الأخوية البابلية) ، وأن هذه المنظمة مرتبطة بهذه الكائنات، و هذه الكائنات بدورها هي التي تدير الحياة في كوكب الأرض.

- في حديثه عن الدين الإسلامي يرى أنه كان مُستهدف من (شبكات الأخوية) التي ابتكرت اليهودية و المسيحية، و يرى أن نبي الإسلام - صلى الله عليه و سلم- كان على علاقه بهذه الكائنات.

- ونرى اعتماد الكاتب في أدلته التي يسوقها على :

١- الآثار البابلية، وآثار الحضارات الأخرى.
٢- شهود عيان ؛ شاهدوا تلك الكائنات.
٣- بعض الفرضيات العلمية، كالأكوان المتوازية.

إعداد / أبي بدر الراوي

- النقد :

• الصدمة الأولى للملاحدة الذي يروجون للكتاب هي : أن هذا الكتاب لا يحل مسألة العلة الأولى، ولا كيف وُجد الوجود، فلا وجود لحل لغز العلة الأولى، علاوة على أن الكاتب ربوبي يؤمن بخالق، وهذه صدمة ثانية.

• أن الكاتب يُناقض نفسه، فهو يرى أن الديانة الإسلامية تم استهدافها من قبل (شبكات الأخوية البابلية) ، بينما يرى في موضع آخر أن النبي - صلى اللّه عليه و سلم - كان على علاقة بهذه الكائنات.. فكيف نحل هذا التناقض ؟!

• الكاتب لم يُحدد أين تتواجد هذه الكائنات، ويضع ثلاث فرضيات، ولا نعلم هل هذه الكائنات من باطن الأرض ؟ أم من كوكب آخر ؟ أم من بُعد آخر؟...

فهنا لا يوجد جزم ، بل مجرد تخمينات وفرضيات.

• اعتمد الكاتب على ثلاث أدلة (هي ليست أدلة) في كتابه كما ذكرنا سابقاً ،والرد عليها كالتالي :

- بالنسبة للحضارة البابلية فهي لم يذكر فيها هذه المخلوقات، بل كما هو متعارف عليه أنها تؤمن بالتعددية ؛ أو تعدد الآلهة، كما هو حال الهندوس وقدماء المصريين وغيرهم. فجعل الكاتب من هذه الأوثان كائنات فضائية، ولم يذكر أي أدلة على أن هذه الأوثان كانت كائنات فضائية !

لم يأتي لنا بأي دليل ولا حتى فرضية تتفق مع المنطق و العقل السليم.

- وأما شهود عيانه فهم أيضًا لم يذكروا أية أدلة تسند شهادتهم، فهل كل ما يُقال صحيح ؟

فهل كل ما يُقال صحيح ؟ و أين آلية التحقق من شهادة الشهود ؟ أم أنه علينا أن نصدق فقط ؟!

- وأما فكرة الأكوان الموازية ، فهذه ليست حقيقة علمية، ولا حتى ينطبق عليها معايير النظريات المقبولة في الأوساط العلمية، بل هي مجرد فرضية، ولا يمكن علميا التحقق منها.

والخلاصة :

الكتاب لا يعدو كونه مجرد خيالات وأوهام بناها الكاتب على تأويلات من عنده لا يوجد ثمة دليل صحيح واحد عليها، وعلى ذلك، فلا يوجد أي سبب وجيه لتمسك بعض الملاحدة بمسألة وجود مخلوقات فضائية لم يروها أو يحادثوها بأنفسهم ؛ في الوقت الذي تجدهم فيه ينكرون وجود الخالق - سبحانه - والذي عليه كل دليل.

وللأسف الشديد نجد من الملحدين العرب من صاروا يكتبون عن وجود هذه الكائنات ويصورونها وكأنها حقيقة لا ريب فيها و لا تقبل الجدال. و ما زال السؤال مطروحًا، و ما زلنا نكرره لهم مرارا: لماذا الهروب من الأدلة الواضحة التي تثبت دقة خلق الإنسان و الكون ؟ ولما اللجوء دائمًا إلى اختراع أمثال تلك الفرضيات و الكائنات و الاعتقاد في أنها تخلق وتسيطر للهروب من الإيمان باللّه ؟!

من يصمد حتى النهاية !

د. بلقاسم عبد القادر نصر الدين

إنّ أسوء إحساس و أقساه على قلب الملحد هي لحظات الموت، حيث يصاب أثنائها بالاكتئاب و الحزن العميق، لأنّها بالنسبة له هي المرّة الأخيرة التي سيرى فيها النور و يودع فيها الحب. يحسّ أنّه ترك الدنيا و هي ما تزال في قلبه، فتكون تلك اللحظات بعمره كلّه، يتصفح فيها الماضي ولا يمكنه أن يسافر إلى المستقبل، فيموت قانطا متشائما نادما غير راض، لأنّه على يقين تام أنّها النهاية، أمّا المتديّنون أجمع فيغادرون هذه الدار و كلّهم أمل بلقاء الأهل و الأحباب، فتراهم مبتسمين متفائلين لأنّهم على يقين تام و أمل راسخ أنّها البداية فقط. نعم.. إنّه أسوء إحساس و أقساه على القلب أن تفارق ما ألفت و من أحببت، بلا أمل ولا رجاء في معاد آخر، فإنّ الحبّ هو أعظم شعور أدركه الإنسان، بالحب نحيا، و عليه نموت، و به نلقى اللّه، و من لم يحب أخاه الإنسان فلا يمكنه أن يحب اللّه، و الدين مهما كان و بغض النظر عن صحته فإنّه يمنح راحة نفسية كبيرة، فنحن البشر نفضل أخذ جرعة المهدئ القاتلة بتصديق كذبة بيّنة على الموت البطيء..

مقطع من قصة «صراع الضّياع» - تنشر قريبًا في الجزائر

تقرير مفصل عن دور الوسائل البصرية في تمرير مفاهيم الإلحاد إلى اللاوعي الجمعي

السينما و اللاوعي.. الخطاب الشعبي للإلحاد

أبو حب الله



ملحوظة : تم استقاء العديد مِن المعلومات والاقتباسات مِن المواقع الفيلمية المُتخصصة على الإنترنت مثل (IMDb) وبعض المواقع الإلحادية ومجموعة مِن إعلانات الأفلام Trailers، مع التنويه إلى أن أوقاتنا بين العمل والدعوة هي أثمن مِن أن نضيعها في تتبع تفاصيل الكفر و الإلحاد على الشاشات، و إنما اكتفينا بذكر العام منها كدليل على الخاص، والقليل مِنها كدليل على الكثير، وذكر كلام أهلها عليها دون الحاجة للولوج فيها جميعًا، أو جرح الأعين بمشاهد العُري والجنس الفاضح، أو جرح القلوب بالشبهات.

لا شك أن الفنون هي مِن أقوى وسائل التعبير عن الأفكار والمعتقدات بين البشر منذ قديم الزمان ، ولا تكاد تخلو حياة أحدنا اليوم مِن التأثر بأحد صورها على الأقل ، وخاصّة مع التطور الهائل لتقنيات الإعلام والتواصل والذي أكسبها قدرات أكبر على التأثير والانتشار بين الناس ولاسيما الوسائل البصرية مِنها Visual Multimedia (مثل الصور والأفلام) ، والتي تربعت على قائمة أكثر الوسائل تأثيرًا بلا منازع ، حيث تضيف إلى العقل المُفكر وإلى الأذن السامعة بُعدًا آخرًا يزيد مِن عمق وطول التأثير في ذاكرة الإنسان ألا وهو العين وما ترى !

وهكذا تطورت الوسائل البصرية مِن مجرد (تمثال) أو (رسمة) أو (إعلان) أو (كاريكاتير)، إلى أن صارت (صورة فوتوغرافية) منذ عام ١٨٢٦ م، ومرورًا بظهور أفلام (الرسوم المتحركة) أو (الكارتون)، ثم ظهور عالم الألعاب الكمبيوترية وسوق (الفيديو جيم) ومعه الأجهزة المُخصصة للعب مثل (الإكس بوكس) و (البلاي ستيشن)، وانتهاءً بثلة كبيرةٍ من القنوات الإعلامية والإخبارية والوثائقية والبرامج والإعلانات والمُسلسلات والأغاني المُصورة والإنتاج الخاص (مثل اليوتيوب) والأفلام التليفزيونية أو السينمائية (وخاصة إنتاج هوليود الأمريكية) والتي احتلت حيزًا لا يمكن تجاهله منذ قرابة القرن مِن الزمان، ولتتكامل بها قوة التأثير البصري الإعلامي - سلبًا أو إيجابًا - إلى أن تبلغ ذروتها في حالات توجيه الأفكار الفردي أو الجَمعي - أو ما يُسميه المُختصون بـ (التحكم في العقل) Mind Control - ! والذي يصير فيه الكثير مِن الناس بالفعل - شعروا أو لم يشعروا - (عبيدًا للميديا) Media Slaves !

الفئات المنبوذة و الشاذة..

فلما كان لهذه الوسائل البصرية هذه الجاذبية الهائلة و القوة في التأثير و السرعة في الانتشار، فنجد أن أكثر مَن فكر في استغلالها منذ ظهورها و إلى اللحظة هي تلك الفئات المنبوذة أو الشاذة أو المكروهة مِن المجتمعات، و ذلك لشدة حاجتها -أكثر مِن غيرها- إلى تحسين صورتها، أو إلى الترويج لأكاذيبها و أفكارها غير المقبولة بين الناس، أو إلى صنع نوع ما مِن الألفة بينها و بين المُشاهدين ليتقبلوا وجودها فيما بينهم على الأقل.

و يُعد الإلحاد مِن أكثر هذه الفئات المنبوذة أو الشاذة بين الأمم بمختلف دياناتها و ثقافاتها، و لمَ لا و هو المذهب العبثي و العدمي في حقيقته و في أصله المادي المُجافي لإنسانية البشر؟! بل و حتى في جوهره المُضاد لمعاني قيمهم المعنوية و مبادئهم و التزاماتهم الأخلاقية، و لذلك فلن تجده دومًا إلا في أقل المذاهب اعتناقًا و تقبلًا بين الدول، إذ بلغت نسبة الإلحاد الصافي عام 2010 ما يساوي 2 % تقريبًا على مستوى العالم، بل و هي في تناقص مستمر لتصل إلى 1.8 % بحلول عام 2020! (1)



صورة للبروفيسور الملحد (لورنس كراوس)، و يظهر على ملابسه فيها معادلة الإلحاد الشهيرة 2+2=5، و التي تلخص لنا بصدق مدى شذوذ الإلحاد الفكري و العلمي الذي يروجون له ضد كل بديهة عقلية بين الناس، و مدى التلاعب في الحقائق المُطلقة مهما كانت شدة وضوحها -مثل مفاهيم الأخلاق و الخير و الشر مثلا-، لجعلها في أعين الناس نسبية، فلا عجب بعد ذلك أن نجد النفور مِنهم في الخارج سواء في التعاملات التي تحتاج إلى ثقة و أمانة و شهادة –كالقضاء مثلا–، أو حتى الزواج بهم..

و يُطالعنا بحقائق هذه الكراهية المتنامية لهم كمثال: مقال الدراسة التي قام بها البروفيسور (ويل جيرفيس) Will Gervais و زملاؤه، و تم نشرها في مجلة (عِلم النفس الاجتماعي و الشخصي) Journal of Personality and Social Psychology ، حول سبب عدم الثقة في مُعاملة الملحدين، و قد لاقت الدراسة صدىً واسعًا كما يظهر مِن عناوين الأخبار التي تناولتها منذ 2011، مثل عنوان موقع الـ ncbi الشهير:

(2) Do you believe in atheists? Distrust is central to anti-atheist prejudice.

أو موقع Scientificamerican بعنوانه التهكمي:

(3) In Atheists we distrust!

أو المقال البحثي بجريدة Washingtonpost بعنوان:

(4) Why do Americans still dislike atheists?

حيث –و للمقارنة فقط– و مِن بعد عشرات السنوات مِن التسويه الإعلامي المكثف لكل ما هو إسلامي، في بلدٍ كبير مثل أمريكا: فقد قفز الملحدون اليوم إلى أعلى قائمة المكروهين هناك، و بنسبة 39.6 % -في مقابل المسلمين 26.3%-، و كما نشرته مواقع الأخبار نقلًا عن دراسة (جامعة مينيسوتا بمينابوليس University of Minnesota in Minneapolis مثل موقع Newsjunkiepost الشهير، و ذلك في عنوانه الصريح الدلالة:

Research Finds that Atheists are Most Hated and Distrusted Minority(5)

و لكل ذلك.. فلم يتخلف الإلحاد عن حجز مقعده في ركب تلك الوسائل البصرية، ليستغل قوة و سهولة انتشارها لكسب أكبر قاعدة مُمكنة مِن الأتباع أو المُتعاطفين معه، و ليعوض بهم (عجزه المستمر) عن الدعوة لنفسه بينَ الناس بخوائه الروحي و فراغه الحياتي و مضمونه المادي! إذ خلاصة ما يقدمه لهم هو أنهم لا يساوون شيئًا في هذا الوجود، لا في لحظة ميلادهم و لا مِن بعد مماتهم! و إنما هم مجموعة مِن الذرات المادية التي اجتمعت بغير سبب، و التي غدًا ستتفرق أيضًا بلا أدنى مغزى و لا معنى في الحياة، فمَن يقبل مثل هذا مِن العقلاء؟!

لماذا التركيز على الأفلام السينمائية في هذه الدراسة؟

1- لأن السماع أقوى مِن مجرد القراءة، ثم الرؤية و المُعاينة أقوى مِن مجرد السماع و أطول مِنه بقاء و تشعبًا في الذاكرة، و لذلك يتفاعل الناس مع الخبر المرئي أقوى بكثير مِن مجرد قراءته أو السماع عنه، و لقد أشار الحديث الشريف الذي أخرجه الإمام أحمد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- لذلك المعنى في قوله: "ليس الخبر كالمُعاينة" (صحيح الجامع للألباني 5374).

2- أن الأثر الهائل للأفلام السينمائية على تغيير المفاهيم و الآراء عمومًا، و في تغيير رؤية الناس للفئات المنبوذة أو الشاذة خصوصًا، هو أثرٌ مُجربٌ و معروف، فاليهود مثلًا و على الرغم مِن أخلاقهم وسمعتهم السيئة على مدى القرون الطويلة، و التي جعلتهم منبوذين بين أكثر الأمم – ومَن قرأ الرواية العالمية (تاجر البندقية) The Merchant of Venice 1598 لـ (وليم شكسبير)، و وصفه للتاجر اليهودي الجشع (شيلوك) سيعرف بعض أسباب ذلك، -فقد استطاعوا استغلال ما وقع لهم أيام النازية و هتلر في الحرب العالمية الثانية مِن اضطهاد و ترحيل و قتل، في صنع العديد مِن الأفلام الاحترافية السيناريو و الإخراج و التمثيل، لتستجلب دموع المُشاهد و تعاطفه معهم مهما كان دينه أو مذهبه في الحياة، و إلى أن تغيرت صورتهم بالفعل اليوم لدى أغلب شعوب أوروبا و أمريكا بخاصة، (6) و حتى صاروا في عين الكثيرين عنوانًا للمُعاناة الإنسانية و الظلم و الاستسلام للقتل في صمت، و حتى نجح المُخرجون اليهود –و على رأسهم (ستيفن سبيلبرج)– في حفر علاماتٍ بارزةٍ في أفلام السينما العالمية حاصدة الجوائز مثل (قائمة شندلر) Schindler's List 1993، و (إنقاذ الجندي رايان) Saving Private

The 1998 Ryan، و الفيلم الإيطالي (الحياة جميلة) La vita è bella 1997، و (عازف البيانو) 2002 Pianist، و (القارئ) The Reader 2008، بل و حتى في أفلام الخيال العلمي أقحموا اليهودي في دور البطل الذي يساهم في إنقاذ البشرية مِن غزو الفضاء الخارجي في فيلم (يوم الاستقلال) Independence Day 1996!

و لذلك.. فمِن الكلمات المأثورة لمُخرج فيلميّ (عمر المختار) و (الرسالة) بالنسختين العربية و الإنجليزية، المخرج العالمي الراحل (مصطفى العقاد) -رحمه الله-(7) قوله: "بثمن طائرة أو سفينة واحدة: تستطيع أن تغير وجهة نظر العالم فيك".

3- أيضًا في الوقت الذي نجد القارىء أو السامع في العادة ما يكون على دراية كافية بما سيختاره قبل قراءته أو سماعه، و أن شخصية (الكاتب) أو (الخطيب) أو (المذيع) دومًا ما تكون معروفة التوجه و المنهج: فإن الأمر يختلف كثيرًا مع الأفلام السينمائية للأسف، و التي تتغير توجهات أفرادها (مخرجين أو ممثلين) في كل مرة حسب القصة و السيناريو الذي تم اختياره لإنتاجه، فإذا وضعنا في الاعتبار أن النسبة الأكبر لاختيار فيلمٍ ما هي التي تعتمد على جاذبية البوستر أو التريلر الإعلاني Trailer، فإن ذلك يجعل مِن الفيلم غالبًا مُفاجأة (غير معلومة المحتوى) إلا عند المُشاهدة الكاملة لأول مرة، و مِن هنا: فدس (السُم في الدسم) هو مِن أخطر ما يتم تمريره مِن خلال تلكم الأفلام..

مشهد لا يتعدى الدقيقة الواحدة من فيلم (الحُراس) Watchmen 2009، حيث مِن وسط كامل الفيلم –و المُفترض أنه مغامرات و خيال علمي- نجد أحد شخصياته (د/ مانهاتن) Dr. Manhattan على كوكب المريخ، و أمام جسم كبير و دقيق و مُعقد أشبه بتروس الساعة العملاقة ليقول في استخفاف غريب بعقل المُشاهد العادي:



They claim their labors are to build a heaven, yet their heaven is populated by horrors. **Perhaps the world is not made. Perhaps nothing is made. A clock without a craftsman**. It's too late. Always has been, always will be. Too late.

ربما العالم ليس مخلوقا، ربما لا شيء مخلوق، ساعة بغير صانع.

حيث يُقسم لي أحد الشباب أنه لم يلتصق بذاكرته بعد مُشاهدة ذلك الفيلم منذ سنوات و إلى اليوم إلا هذه العبارة المُترجمة فقط، حيث تم فيها مُمارسة مُغالطة (المُصادرة على المطلوب) معه Begging The Question، و بصورة مُفاجأة و صادمة لفطرته، و ذلك عن طريق تقديم إحدى المُستحيلات العقلية (و هي فكرة وجود ساعة بغير صانع)، و كأنها شيء طبيعي مُسلّم به على لسان الرجل!

4- كذلك مِن المعلوم أن كل عمل فني هو عمل (وحدوي الإتجاه)؛ أي يتم عرض الأمور فيه مِن وجهة نظر واحدة فقط، و هي وجهة نظر صاحبها، حيث هو وحده الذي يُقرر

أحداثها و مواقفها، و هو وحده الذي يرسم صورة المظلوم مِن الظالم، و تحديد الطرف القوي الحُجة مِن الأضعف، و الحسن مِن القبيح، و البداية مِن النهاية، و بذلك فهو المتحكم الوحيد فيما سيتم عرضه على المتلقي، و كذلك فيما سيتم حَجبه عنه، و هو ما يُعرف بأسلوب (حارس البوابة) Gate keeper، و الأفلام في ذلك هي مِن أقوى المؤثرات بسبب طبيعتها الجذابة، و التي تحمل المُشاهد ليعيش أحداثها و يتفاعل معها، لتتجسد في عقله وخياله الخاص، و لهذا نجد أن مَن تأثروا بها في حياتهم فإنما أبصروا في الحقيقة بعين المؤلف أو المخرج لا بأعينهم هم، و أنهم اعتنقوا أفكاره على غير نقاشٍ مُحايد.

5- و أما أخطر ما في هذه الأفلام فهو في حال عرضها على القنوات الرسمية لتصل إلى أكبر قدر ممكن مِن الناس، حيث لا يتم حذف مقاطعها الخبيثة (فكريًا)، على غرار ما يتم حذفه مِن مقاطعها (الجنسية)، و بذلك نلمس مدى عمق تأثيرها، و هي التي لن تخاطب فئة معينة مِن الناس كالمثقفين مثلًا، أو لن تخاطب كبارًا فقط قد أصقلتهم خبرات الحياة فيرُدون شبهاتها، بل سيراها أطفال اليوم شباب الغد -و هم أكثر الفئات العُمرية تقبلًا و تقليدًا و تأثرًا بما يشاهدونه و يسمعونه لو لم يُحذرهم مِنه أحد-، و لذلك فإن المرءَ ليُشفق على بعض هؤلاء أمام احترافية (الخداع النفسي) و (المُغالطات المنطقية) Logical Fallacies، التي يستخدمهما الملحدون و اللادينيون دومًا في زعزعة الإيمان أو التشكيك في الأديان أو الطعن في الخالق، و بحيث يتم تمرير قبح الإلحاد و ستر عوراته الفكرية في غفلةٍ مِن القوم.



أثر (تقليد) الأفلام السينمائية في تغيير المفاهيم و المعتقدات:

حيث يُعد أقوى آثار الأفلام على الإطلاق هو ما يُعرف بـ "التحفيز على التقليد"، حيث يتم تقديم (القدوة) للمُشاهدين بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، و كما هو معروف مِن أبسط أساسيات التعليم -و مِنه جاء معنى كلمة التعليم في اليابان (كيو إكو) (教育) حيث (إكو) تعني تربية الطفل و (كيو) تعني التشجيع على التقليد-، و يكون تحفيز تقليد الأفلام في صورتين:

1- إما لحظيًا سريعًا صادمًا (بسبب مقولةٍ ما مثلًا أو مشهدٍ ما مِن الفيلم أو حتى مضمون الفيلم بأكمله): فتتغير بسببه حياة المُشاهد، و ربما إلى آخر حياته.

2- أو يكون بطيئًا و مُتدرجًا، و ذلك حسب عمق الفكرة المُتسربة إلى عقل المُشاهد، أو نتيجة المنظومة النفسية المدروسة القائمة على تكرار مُشاهدة الشيء المُعين لزرع التعود عليه و تبنيه، مثل تكرار مَشاهد الجنس مثلًا، أو مَشاهد اللامبالاة بمشاعر الآخرين، أو مَشاهد القتل و التعذيب و الدماء، أو مَشاهد الاستخفاف بالدين و الأخلاق.

فالتحفيز على التقليد: يقع في حال تطابق أفكار الفيلم مع (مشاعرَ كامنة) أو (ميولٍ خفية) أو (رغبة إثبات النِدّية أو القدرة على المُحاكاة) داخل نفس المُشاهد، فعندها يُشجعه الفيلم على إخراجها أو إظهارها على أرض الواقع -سواء بالخير أو بالشر- و مِث المثال المُفجع التالي:



صورة مِن فيلم (قتلة بالفطرة) **Natural Born killers** -و اختصاره NBK- 1994، و هو مِن أشهر الأفلام الأمريكية التي أثرت في العديد مِن الشباب و المراهقين حول العالم، و دفعتهم لارتكاب جرائم قتل و مذابح بشعة في مجتمعاتهم على مدار 14 سنة، إما عبثا و إما طلبًا للشهرة، كما وقع مع المجرمين في أحداث الفيلم، و هو مثال واحد فقط مِن بين عشرات الأمثلة على (جرائم تقليد الأفلام)، أو ما يُعرف بـ Copycat crime، و قد تم تسجيل 15 حادثة قتل كبرى على الأقل مِن تلك التي اعترف مُرتكبوها فيها أو في مذكراتهم بتأثرهم بذلك الفيلم.

و مِن هذه الجرائم البشعة -كمثال- و الناتجة عن تأثر المراهقين التائهين في الحياة بالأفكار العبثية و الدموية لفيلم (NBK)، هي الجريمة التي وقعت في ولاية كولورادو الأمريكية 20 إبريل 1999، و المشهورة بـ (مجزرة مدرسة كولومبين الثانوية) أو Columbine High School massacre، و التي راح ضحيتها 12 طالبًا وأستاذًا على يد الثنائي (إيريك هاريس) Eric Harris و (ديلان كليبولد) Dylan Klebold، و هنا أنقل لكم اقتباسين مِن مذكرات (إيريك) لنقترب أكثر مِن نفسية هؤلاء، حيث كتب فيها قبل الحادثة بعام واحد، و في يوم 10 إبريل 1998:

"When I go NBK and people say things like "Oh, it was so tragic," or "oh he is crazy!" or "It was so bloody", just because your mommy and daddy told you blood and violence is bad, you think it's a f***g law of nature? Wrong, only science and math are true, everything, and I mean every f*****g thing else is Man made. Before I leave this worthless place, I will kill whoever I deem unfit for anything at all, especially life." (8)**

و الكلام لا يحتاج إلى شرح، حيث نرى فيه مدى العبثية و العدمية التي سيطرت على الفتى و شجعه على إخراجها فيلم (NBK) و غيره، و إلى أن ترعرعت في خياله المريض ليترسخ لديه مع الوقت -ومع تكرار المُشاهدة- أنه لا معنى و لا قيمة لحياة البشر، بل و لا لأي قيمة أو معنى مُطلق في الحياة إلا للعلوم المادية و الرياضيات فقط، و أنه لذلك فسوف يقضي على كل ما يجده بلا معنى مِن حوله، و خاصة الحياة نفسها!

و لقد أشار في مذكراته أيضًا إلى يوم المجزرة الموعود -20 إبريل-، فكتب أنه سيكون صباح شهر إبريل المقدس لفيلم (NBK):

"the holy April morning of NBK"

و أما صديقه (كليبولد) -و الذي كان في حالة اكتئاب شديد-، فقد كتب في مذكراته أيضًا قبل المجزرة أنه عالق في الإنسانية، و أنه ربما خرج منها إلى الحرية مع (إيريك) و الـ (NBK):

"I'm stuck in humanity. Maybe going NBK with Eric is the way to break free.. I hope we kill 250"

كيف يتم تمرير الأفكار الإلحادية في الوسائل البصرية؟

لعله مِن الأمور الواضحة أنه لا زالت كلمة (إلحاد) هي (شاذة) و (مُنفرة) بالفطرة في آذان و أعين أغلب الناس، و أننا إذا استثنينا تلك الفئة المُصابة بهوس الاهتمام بكل شاذ و غريب: فلا زال وقع الكلمة في نفوس المؤمنين كفيلٌ بصرفهم تلقائيًا عن موادها الدعائية الصريحة (المباشرة)، ككتبهم و أفلامهم المتخصصة، و التي تتولى مجلتنا و غيرها الرد العلمي و الفلسفي عليها، و مِن هنا.. فإن ما يعنينا في هذه الدراسة هو تسليط الضوء على الطرق (غير المباشرة) لتمرير الأفكار الإلحادية في الوسائل البصرية و الأفلام، و فيما يدسونه مِن (سموم) الأفكار في تلك الأعمال التي يُقبل الناس عليها غالبًا بدافع التسلية، ثم لا تلبث أن تظهر آثارها في خلل عقولهم و تصرفاتهم و اعتقاداتهم بعد سنوات، و مثل تلك التي صِرنا نلمس آثارها في حواراتنا مع أغلب الشباب الملحد التائه اليوم في صورة (إلحاد شعبي) أو (إلحاد هاوي) إذا صح التعبير، و الذي بات يُميز المفتونين بمثل هذه الأفكار السطحية عن غيرهم، بل و إلى الدرجة التي نجد فيها مَن لا يعرف لوازم إلحاده المادي، أو مَن لا يعرف الفرق بين الإلحاد الموجب و السالب، أو بين الإلحاد القوي و الضعيف، أو حتى الفرق بين الإلحاد و اللادينية و اللاأدرية نفسها، أو مَن يُدافع عن إبليس -و الذي يُفترض أنه لا يؤمن بوجوده أصلًا-..

و لهذا فسيتم استبعاد أفلامهم الوثائقية المُتسترة بستار العلم، و كما في قنوات (ديسكفري) أو (ناشيونال جيوغرافيك) كمثال، أو سلاسل أفلام (جوناثان ميلر) أو (ريتشارد دوكينز)، و التي تمرر تدليسات التطور و خرافات الصدفة و الافتراءات الفلسفية على الأديان، و كذلك سنستبعد الأفلام التي تستغل جهل الناس بفيزياء الكم و تتلاعب بمفهوم الفراغ الكمي و العدم، و الخلط المُتعمد بين نفي الحتمية و نفي السببية (بقيادة ستيفن هوكينج)، و أخيرًا سنستبعد أفلام المُبالغات الخيالية في قدرات، و اكتشافات العلوم المُستقبلية (بقيادة ميتشيو كاكاو)، و التي تصور للبسطاء عقل الإنسان و كأنه الخالق القادم الذي سيمتلك عما قريب حقائق و قدرات كل شيء، و بذلك نستطيع تقسيم طرق تمرير الأفكار الإلحادية في الوسائل البصرية كالتالي:

أولًا: استغلال ثغرات النفس و العقل و الخيال.

ثانيًا: الإغراق في عرض الشهوات و العُري و تحبيب الزنا و الخيانة.

ثالثًا: تصوير الوجود و الحياة بمظهر العبثية و العدمية و اللاغائية.

رابعًا: المُغالاة في الخيال العلمي لتهميش قدرات الإله الخالق.

خامسًا: استغلال لا معقوليات النصرانية و الأديان المُحرفة كذريعة للإلحاد.

سادسًا: تمثيل الإله بصورة غير مباشرة لخلع الرؤى الإلحادية عليه.

سابعًا: استغلال أكاذيب التطور كبوابة للإلحاد.

و لنبدأ معًا في استعراض كل نقطة مِنها، مع التركيز على دور الأفلام السينمائية كما قلنا –و مع التنبيه على أن كل ما سنذكره هو قليل مِن كثير!–، و أننا لم نهول في الأمر كما سيظن البعض، و الذي قد يرى بعض الأعمال التي سنعرضها هي (عادية) و لا تحتمل ما سنذكره عنها، و لكننا نقول له: إن هذا البحث هو نتاج فترة مُركزة مِن دراسة و استعراض كتابات عددٍ كبير مِن الملحدين التائهين أنفسهم، و كذلك اعترافاتهم بالأسباب التي أثرت عليهم ابتداء –و التي قد لا يراها غيرهم كذلك- أو تأثروا بها في صغرهم، فكان منها ما سنقرؤه الآن..

أولًا: استغلال ثغرات النفس و العقل و الخيال!

حيث يُخطيء مَن يظن أن تأثير الوسائل البصرية ينحصر داخل حدود لوحة الرسم أو أبعاد شاشات التلفاز أو الكمبيوتر، إذ الحقيقة أنها -و كتعبير إنساني- فهي تتعدى حدود كل ذلك بكثير لتخاطب أعماق النفس الإنسانية مباشرة –مناطق قوتها أو ضعفها و ثغراتها– كما أنها تخاطب آفاق الخيال اللامحدود للمُشاهد كذلك.

و أما بالنسبة للإلحاد، فهو يبحث دومًا عن مفاتيح الثغرات (المداخل) vulnerabilities للنفس أو للخيال، و التي يمكنه مِن خلالها أن يُمرر سمومه تمامًا كما يفعل فيروس الكمبيوتر.

1- فهو قد يستغل الشهوات الجنسية مثلًا -كالبوسترات العارية أو المشاهد الماجنة- في إفساد دين المُشاهد كما سيأتي، أو جذبه لأعماله، أو لدس أفكاره مِن خلالها، و قد يستغل في نفس السياق حُب المُشاهدين للأعمال الكوميدية أو البوليسية، أو الأكشن أو المغامرات أو الخيال العلمي، أو ولع البعض بأفلام الرعب و التقتيل و الذبح و التعذيب.
2- و كذلك قد يستغل شهوة البعض في التمرد على الأحوال الاعتيادية و الأوامر، ولو حتى التمرد على طبيعة جنسه كذكر أو أنثى، إذ مع التركيز على هذه النوعية ببعض التأثيرات النفسية و المغالطات المنطقية فقد ينتهي الحال بهم إلى تقبل فكرة التمرد على الإله نفسه، بل و المبالغة في التكبر و العناد وتصوير كل ذلك على أنه الشجاعة و العزة و الكرامة في رفض عبودية و طاعة الإله وقضائه وقدره، و كما في أفلام تصوير البشر ندًا للإله، أو الآلهة الإغريقية، أو الدفاع عن إبليس و تبرير كفره و عناده..
3- بل و قد يستغل الإلحاد شهوة البعض في الظهور و التميز بين الأقران، و لو بالمذموم و الشاذ، و ذلك على غرار الأعرابي الذي تبول في بئر زمزم لكي يشتهر اسمه

بين القبائل! فمثل هذه الشخصيات هي الأكثر قبولًا لشذوذ الإلحاد و الأكثر إصرارًا على إظهاره لا إخفائه، و عذابها -كل العذاب- عندما تتجاهلها أو تبدي عدم اهتمام بإلحادها.

4- و أحيانًا أخرى تجدهم يستغلون شهوة البعض في تقمص دور الشخصية العقلانية و المنطقية بين الناس إلى أبعد حد، فيقدمون له أبطال الأعمال الفنية مِن شخصيات المسلسلات أو الأفلام في صورة الملحد أو اللاديني العقلاني، الذي لا يؤمن إلا بالعلم فقط، و الرافض لكل غيب الأديان، حيث بهذه الصورة الجذابة المُقربة إلى نفسه يحاول تقليدهم ليصير العبقري الذي قد لاحظ ما لم يلاحظه أحد طوال القرون، أو في صورة العبقري الذي يؤمن بما يخالف أغلب البديهيات مِن حوله -مثل أن يؤمِن بالتطور الصدفي العشوائي مثلًا في مقابل الخلق الإلهي، أو 2+2=5!

نطالع ذلك في رسمهم لشخصيات أشهر المسلسلات اليومية عندهم (و اخترت المسلسلات هنا لأنها أطول أثرًا مع كثرة و تكرار المُشاهدة)، مثل شخصية الشاب المثقف المؤمن بالعلم (شيلدون كوبر) مِن مسلسل Big Bang Theory ، و الذي يتعمدون إظهاره في صورة المُتعالم الفاهم المؤمن بالتطور، في مقابل إظهار الشباب الآخرين مِن حوله في صورة البسطاء الجاهلين المؤمنين بالخلق الإلهي أو الديني، حيث يقول نادبًا حظه في وجوده معهم:

Sheldon Cooper: This is my home now. Thanks to you, my career is over and I'll spend the rest of my life here in Texas, trying to teach evolution to creationists.

- و مثل مجموعة الدكاترة الملحدين العلميين الأذكياء -هكذا يزينونهم للملايين عبر التلفاز و المسلسلات اليومية الأمريكية، و التي يصدرونها إلى العالم- و على رأسهم الدكتور (جورج هاوس)، مِن مسلسل House، بجملته المتهمة للمتدينين باللاعقلانية:

Dr. House: "Rational arguments don't usually work on religious people, otherwise there would be no religious people".

و الدكتور (بيري كوكس)، مِن مسلسل Scrubs، و جملته المُعبرة عن عبثية الحياة:

Nurse Laverne Roberts: Everything happens for a reason.

Dr. Cox: Are you really trying to tell me that things like New Orleans, AIDS, sugar-free ice cream, crack babies, Hugh Jackman and cancer all happen **for a reason?**

Because I'm sorry, I'm.. **I'm just not buying that.**

و طالبة علم النفس (بريتا بيري)، مِن مسلسل Community، و التي تروج للإلحاد الأخلاقي في محاولة خبيثة لكسر العلاقة الوطيدة بين الإلحاد و انعدام المرجعية الأخلاقية كما يعرفها الناس، حيث تقول لصديقتها المتدينة (شيرلي) في إحدى المرات:

Yeah, but your **religion** isn't the same as morality، and calling me immoral because I'm atheistic is religious persecution.

و حتى شخصيات الكارتون لم تسلم مِن هذا العبث بالعقول، حيث قدموا لهم شخصية الشابة العلمية المثقفة (داريا)، مِن مسلسل Daria، و التي تعلم الأطفال

(الشك) في كل شيء مِن حولهم، و إلى أن تقول جملتها الإلحادية التي تعلق بذهن المُشاهد المفتون بها:

Until I see some pretty convincing evidence, I think we are on our own.

5- و أمثال هؤلاء يكون الفخ الذي يقعون فيه غالبًا هو فخ إظهار (الأدلة) على وجود أخطاء في الأديان، أو (الأدلة) على وجود أشياء في الكون لا فائدة منها -في أعينهم-، أو (الأدلة) على محصورية العلم فيما يمكن تحسسه ماديًا فقط، و هذا هو التدليس بعينه، لأنه حتى العلم التجريبي يقوم على استدلالات و استنباطات، تعتمد على رصد آثار الأشياء اعتمادًا على أنه ليس هناك شيء حادث إلا بسبب أحدثه، فالذرة و الألكترون و سائر الجسيمات دون الذرية لم يرهم أحد مثلًا منذ عشرات السنين إلا مِن خلال آثارهم، ولو صحت هذه النظرة المغلوطة التي ينشرها الإلحاد عن محصورية العلم في المحسوسات فقط: لكان العالم الفيزيائي (بيتر هيجز) -مُكتشف بوزون هيجز- مجنونًا عندما تحدث عنه منذ 40 عامًا، و لم يتأكد وجوده إلا في الأعوام الثلاثة الأخيرة فقط، و هكذا نجد استغلال الملحدين لإحدى أشهر المُغالطات المنطقية مع هؤلاء الضحايا هنا، و هي مُغالطة (المُصوب الدقيق) Sharpshooter fallacy، حيث ينتقي فيها صاحبها ما يشاء مِن الأدلة مِن وجهة نظره لقبول شيءٍ معين: ثم يترك ولو أضعاف أضعافها مِما لا يريد!

6- و لعله مِن أشهر الأساليب النفسية كذلك لزعزعة إيمان المُشاهد (العادي) بالصور أو الكاريكاتيرات أو الأفلام هو أسلوب (الصدمة) The Shock، و هو تعمد (إهانة) المقدسات لديه بالرسومات أو الألفاظ البذيئة جهارًا و علنًا، و ذلك مثل عشرات أو مئات الصور و الكاريكاتيرات التي يحاولون نشرها على الفيسبوك و تويتر و المنتديات، أو مثل المَشاهد القصيرة المدروسة و المُتعمدة في بعض الأفلام، و التي قد تصل إلى السخرية مِن الإله نفسه بتمثيله بصور غير لائقة، و خصوصًا في الخارج حيث تكفل الحكومات العلمانية ذلك بكل أريحية، ضاربة بعرض الحائط قداسة الأديان و رموزها، أو استغلال تعاطف المُشاهد في بعض المواقف كالتي ينظر فيها بطل الفيلم مثلًا إلى الأعلى إلى السماء ليُنادي إلهه متحديًا إياه إن كان موجودًا أن يستجب له دعاءه، أو إن كان موجودًا أن يُظهر له آية.

و مثل هذا الأسلوب النفسي -الخبيث و المُفاجيء- يعتمد على كسر المهابة و القداسة في عقل المُشاهد (العادي)، و خصوصًا عند الذين لديهم مفهوم خاطئ بأنه لا يستطيع أن يسب اللّه أو يتحداه أحد إلا و يلحقه الموت أو الخسف (على الفور)، و نسوا أن اللّه تعالى نفسه و في قرآنه الكريم قد ذكر إمكانية أن يسبه أحد الجُهال فقال: "ولا تسبوا الذين يدعون مِن دون اللّه فيسبوا اللّه عدوًا بغير علم" الأنعام 108، و نسوا أن تلك الحرية -و التي بلغت سب الإله- هي حُجة على الكافرين بمدى ما منحهم اللّه تعالى مِن اختيار -و ليس الجبر كما يدعي بعضهم-، و أنه لو عاقب اللّه (كل) مَن يسبه بالفعل عقابًا (فوريًا) لسقط معنى الاختبار والامتحان في الحياة، و لذلك فهو يُصرِّف انتقامه مِمَن شاء مِنهم بمقتضى حكمته.



- مشهد لا يتعدى الدقيقتين مِن فيلم (الرمادي) The Grey 2011، و فيه ينظر بطل الفيلم إلى الأعلى إلى السماء، و يوجه كلامًا بذيئًا إلى إلهه بسبب المِحنة التي فيها، و عدم إجابة دعائه!

و على قدر ما تهتز أنفس البعض بالفعل مِن جراء مثل هذه المشاهد المدروسة و المُتعمدة لتحفيز السفهاء على (تقليدها)، على قدر ما يتخطاها العقلاء مِنهم بعد حين، و بعد أن يتفكروا فيها على مهل، حيث يجدون فيها عدة مُغالطات منطقية كما قلنا نذكر منها:

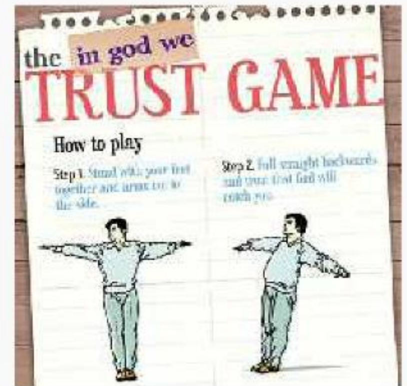
أ- مُغالطة (التعميم السريع) Hasty Generalization؛ و تنتج عن أسلوب (حارس البوابة) و عدم عرض الفيلم لفكرة حالات البشر الأخرى الكثيرة، و التي يدعون فيها ربهم و يُستجاب لهم لحظيًا إذا اقتضت ذلك مشيئته و حكمته، بل و حتى مع الملاحدة أنفسهم المُنكرين له، و مثلما وقع مع جراح العيون المليونير الملحد سابقًا (د/ لورانس براون) Dr. Laurence Brown ، حيث كانت الاستجابة اللحظية لدعائه، و نجاة ابنته الوليدة سببًا في تركه لإلحاده ثم هدايته إلى الإسلام لاحقًا. (9)

ب- (مُغالطة المَنشأ) Genetic Fallacy؛ حيث أن الغرض مِن الحياة الدنيا أصلًا عند الأديان بعامة –و الأديان الإبراهيمية بخاصة- هو الامتحان و الابتلاء و إظهار الإيمان بالله مِن عدمه رغم الشدائد، يقول الله تعالى في القرآن الكريم كمثال: "الم * أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون * ولقد فتنا الذين مِن قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين" العنكبوت 1: 3، بل و تاريخ البشرية مليء –و إلى اللحظة– بأبشع جرائم القتل و التعذيب و الإبادة في حق المؤمنين بالله؛ و لم نر منهم انتكاسة أو كفر أو اعتراض على قدر الله و مشيئته، و ذلك ليقينهم التام بأن المُستقر هي دار الآخرة و النعيم و الثواب، لا دار الدنيا القصيرة الفانية.

جـ- مُغالطة (السبب الزائف) False Cause؛ و هي في هذا المشهد أتت في صورة: "أنا لم يُستجب لدعائي، إذن الله غير موجود"، و كأنه كان فرضًا على الله تعالى أن يستجيب لـ (كل) أدعية البشر جميعًا، حتى ولو كانت متناقضة عقليًا، كأن يدعوه شخصان صالحان مثلًا للزواج مِن امرأة واحدة، أو حتى لو تعارضت مع مشيئته في تأخير الإجابة أو الابتلاء، و إظهار الكثير مِن شر الأشرار حتى يؤاخذهم عليه، و وقوع الكثير مِن الظلم للأخيار حتى يثيبهم عليه.

د- و يتفرع عن نفس المُغالطة السابقة طلب البطل مِن إلهه أن يُظهر له آية معجزة، ربما كما عودتهم العديد مِن البرامج التنصيرية الخادعة في أمريكا و العالم، حيث إن لم يُظهرها له فيكون غير موجود، و هذه أعجب مِن مسألة الدعاء السابقة نفسها، و ذلك لأنها لو تحققت لـ (كل) الناس لانتفى معنى (اختبار) الإيمان و الكفر في الحياة، يقول عز و جل: " وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً" يونس 99، و يقول كذلك: " إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ" الشعراء 4.

7- و هناك أسلوب آخر مِن الأساليب الملتوية، إلا أنه يُظهر لنا أهم ثغرة مِن ثغرات النفس المُتقبلة للإلحاد و هي: الاستعداد المُسبق للسخرية مِن الدين أو الإله، وإلا ما كانت استجابت لمثل هذه السذاجة أو (المراوغة) Equivocation في الطرح، و خصوصًا باستخدام أسهل المُغالطات المنطقية مثل مُغالطة (التشبيه الخاطيء) False analogy، أو مُغالطة (الخلط بين المعاني المعنوية وجعلها مادية) Reification، و مثل الرسمة التهكمية التالية كمثال:



حيث تسخر مِن ثقة المؤمنين بالله و تسخر مِن عبارة In God we trust، الشهيرة عند النصارى الأمريكان -و المكتوبة على عملة الدولار الورقي-، فنجد صانع الرسمة يتلاعب بذلك المعنى المعنوي (أي الثقة بالله) ليلبسه لبسة مادية ساذجة لا تنطلي إلا على السذج مِن أمثاله، حيث يطلب ممَن يثق بالله أن يقف رافعًا ذراعيه إلى جانبيه ثم يميل إلى الخلف و هو يثق بأن الله لن يجعله يقع على ظهره!

و بالطبع لا يحتاج العاقل أن يُبين سفاهة هذا المنطق و تناقضه مع أبسط مباديء العقل الإيماني، و هو أن الله تعالى قد خلق لنا الدنيا لتسير في الأصل بالأسباب و القوانين الفيزيائية، و لتكون المعجزات و الآيات فيها هي الاستثناء لا القاعدة، و معلوم أن تقرير هذه الحقيقة لا يحتاج إلى اختراعٍ يخترعه المؤمنون اليوم ليداروا به خللًا لم يكن يعرفونه في إيمانهم، و إنما يترجم لنا مدى استخفاف الملاحدة بعقول أتباعهم مِن السذج و المراهقين فكريًا و الضعاف عقليًا، و الذين لا تنطلي مثل هذه الخدع النفسية و المُغالطات المنطقية إلا عليهم.



مشهد مِن فيلم (الحافة) The Ledge 2011، و الفيلم هو مِن أشهر الأفلام التي قامت بمحاولة (تلميع) الإلحاد أخلاقيًا، و إظهاره بمظهر الذي ضحى بحياته مِن أجل حبيبته و زوجة جاره المؤمن النصراني الذي خانه الملحد معها، و إظهاره بمظهر (القوي الحُجة) في مقابل المؤمن (الضعيف الحُجة)، و ذلك برسم السيناريو لحوارات مدروسة مُسبقا، يقول فيها المؤمن: الكمال في خلق المخلوقات و دقة الكون يدل على الخالق، فيرد الملحد -و الذي بدلًا مِن تفنيد حُجة المؤمن يلجأ للجهل و الإلحاد العاطفي-: و لكن لا دليل على وجود الخالق، و بماذا تفسر وجود الشر في العالم؟، و أولئك الذين لم تبلغهم رسالة ؟ سيدخلون النار؟، ثم ينتهي الفيلم بتصوير المؤمن و كأنه لا يدفعه للإيمان بالله إلا أن ذلك يجعل الناس أكثر تقبلًا للموت، و أنهم سيلاقون أحبابهم بعده..

و رغم قذارة قصة الفيلم التي تبرز لنا أحقر قصص الخيانة الزوجية، أحدها خيانة الملحد لجاره النصراني المتدين في زوجته التي أغواها، و الآخر مؤمن أسود تخونه زوجته و تنجب له ولدين وبعد ذلك يعرف أنه لا ينجب، ثم ليت القذارة تقف إلى هذا الحد، بل خانته مع أخيه لكي يخرج الأولاد شبهه، و لذلك يُشير إلى إلحاده في نهاية الفيلم هو الآخر -عبث في عبث-، و لكنها قيم و مباديء الإلحاد، و التي تظهر رغمًا عنهم مهما حاولوا تلميعه، فيكرههم الناس أكثر، و يتأكدون أن الملاحدة ليسوا أهلًا للثقة ولا للأمانة.

أ- و أما حُجة أننا نرى آثار الفاعل ولا نرى الفاعل؛ فهذه بديهة أصلًا مِن بديهيات التفكير الإنساني و العلم التجريبي نفسه، ولا ينكرها إلا المُختلون أصحاب 2+2=5! و هاهم العلماء تحدثوا عن الجاذبية، و حسبوها في معادلاتهم وقوانينهم مِن مجرد آثارها، و لم يعرف كنهها كقوة مِن القوى أو يرها أو يلمسها أحد!

ب- و أما حُجة الذين يموتون و لم تبلغهم رسالات الله في أي زمان أو مكان -مثل الميت صغيرًا و مَن لم تبلغه رسالة أو بلغته مشوهة لا تقم معها حُجة الله عليه، و المجنون و الأصم و الشيخ الهرم الذي لا يعي ما يُقال له- فهؤلاء يُمتحنون في عرصات يوم القيامة، و كما جاء في الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه و سلم، فالله تعالى هو الذي اختار لكل إنسان نوع امتحانه الذي يتناسب معه لإظهار مكنون نفسه الذي يعرفه الله مُسبقًا، و لكنه يُظهره ليحاسبنا عليه بعدله لا بمقتضى علمه فقط، فمِنا مَن يكون امتحانه في الدنيا، و مِنا مَن يكون امتحانه في الآخرة.

ت- و أما (مشكلة وجود الشر) Problem of evil، فلو أنصف الملحد مع نفسه فلا صلة بينها و بين مسألة وجود الخالق مِن عدمه، و ذلك لأن وجود الخالق تبحثه دلائل أخرى، مثل استحالة تسلسل الأسباب إلى ما لا نهاية، و مثل أن كل شيء مُركب و مُعقد و دقيق و له غاية، فلا بد له مِن صانع و هكذا.. و تعالوا معًا لنرى الاحتمالات العقلية لتبرير وجود الشر:

فأما الاحتمال (الأول) فهو أن الخالق قد خلق الكون و تركه، و لذلك ظهرت فيه الشرور، و هذا مُحال بالنظر إلى افتقار كل مخلوق مِن الذرة إلى المجرة إلى عناية الخالق به في كل لحظة، و ذلك لأنه وفقا لنزوع الطاقة إلى التفرق و التبدد و الانتشار، وصولًا للاستقرار و السكون، فلم يكن للذرات ولا للمجرات أن يبذلوا طاقة للتجمع بدلًا مِن التفرق، ولا الخلية لتنقسم و تتكاثر بدلًا مِن أن تموت.

و أما الاحتمال (الثاني)؛ فهو أن الخالق يريد الخير ولكنه لا يستطيع منع الشر في العالم، و هذا أغرب مِن الاحتمال السابق، لأن مَن خلق كل هذا الكون فهو بيده أسباب القضاء على أي شيء يُسبب شرًا فيه، مثل أن يُميت الأشرار مثلًا أو يوقف ابتلاءات الطبيعة مِن زلازل و براكين و نحوه إذا أراد.

و أما الاحتمال (الثالث)؛ فهو أن خالق هذا الكون هو شرير بالفعل، و يريد للشر أن يتواجد فيه، و هذا يهدم فكرة ارتباط وجود الشر بالخالق تمامًا!، و لكنه احتمالٌ مَغلوط كذلك، و ذلك لأن إدراكنا للكمال و الجمال الذي نعرفه نحن المخلوقين للخير عن الشر يستحيل أن يغرس معرفته فينا إلهًا لا يملكه، فضلًا عن أنه لما كان الخير أكمل مِن الشر فهو الأليق بالخالق الكامل القدرة (لأن الدافع إلى الشر ينتج عن نقص).

و أما الاحتمال (الأخير)؛ فهو أن الخالق يستطيع منع كل شرور العالم، و لكنه يتركها فقط ليُظهر مكنونات أنفس الأخيار و الأشرار على أرض الواقع ليحاسبهم عليها فعلًا، و ليس بمجرد علمه النافذ فيهم، و هو الأليق بالخالق عز و جل العظيم القادر على كل شيء، و هو الحاصل مِن انتصار الخير على الشر دومًا مهما طال.

ثانيًا : الإغراق في عرض الشهوات و العُري و تحبيب الزنا و الخيانة!

و هو باب مِن أوسع الأبواب المؤدية إلى رفض الأديان نفسيًا -على المدى القريب أو البعيد-، و بالتالي: إنكار الخالق نفسه إذا تدنى كفر الساقط فيها مِن اللادينية إلى الإلحاد.

حيث تعتمد طريقتها على تعليق قلوب ضعاف الإيمان و التقوى بمختلف الشهوات الجسدية و الجنسية، فإذا اعتادوا عليها و ألفوها، و ربما اشتهوها في نفوسهم أو أدمنوها أو وقعوا فيها بالفعل، يصطدمون ساعتها -و حتمًا- بما ترفضه أديانهم، مثل العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج، و مثل حرية التعري و كشف العورات، و الشذوذ الجنسي و خيانة الأزواج.. إلخ!

و كل ذلك لست في حاجة للتدليل عليه اليوم بأسماء أعمال فنية معينة، و قد عمت به البلوى حتى وصلت إلى أفلام الكارتون و الأنمي للأطفال و المراهقين، فأين الشعور بالمسؤولية تجاههم؟ و أين الاهتمام و مشاركة الأطفال و المراهقين في اهتماماتهم و توجيههم، و إظهار الفاسد مِن الصالح لهم؟ و أين مُصاحبتهم بالحسنى كما أرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ لا إجابة!



صورة لشخصين (ملحدين) مِن أشهر شخصيات مسلسلات الكارتون الأمريكية اليوم، الأول هو الكائن الفضائي (روجر سميث) مِن مسلسل American Dad، و الثاني هو الكلب (برايان جريفين) مِن مسلسل Family Guy، و الاثنان مهووسان بالجنس، و مدمنان للخمر، ومستهزئان بالأديان، و أما الشخص الثالث فهو (كواجماير) عنوان الجنس و العربدة و النكات الجنسية من مسلسل Family Guy كذلك، حيث تمتلئ هذه المسلسلات بكل ما يتخيله العاقل مِن شذوذ و إسفاف أخلاقي و سخرية مِن كل قيمة و رمز ديني، و ذلك في إطار رسومي كوميدي لا ينتظر أن يكبر الأطفال ليلوثهم بلوثاته، و إنما يتم إنتاجه خصيصًا لهم!



و كذلك نرى ربط الإلحاد بالشذوذ الجنسي في شخصيات الكارتون للأطفال -مثل المسلسلات السابقة-، و تحبيبه لهم وتحفيزهم على تقليده، كما يتم تمثيل هذه الشخصيات الشاذة جنسيًا في صورة أشخاص حقيقيين مِن أشهر المسلسلات التي يتأثر بها المراهقون و الشباب، مثل شخصية (أوسكار مارتينيز) مثلًا مِن مسلسل The Office، و مثل طالب المرحلة الثانوية (كيرت هاميل) مِن مسلسل Glee، وكلاهما ملحد!
بل صار (العادي) اليوم في الألعاب أو أبسط الأفلام السينمائية أن تشتمل على مشهد أو أكثر مِن المشاهد الجنسية الصريحة أو العُري الفاضح، حتى أنها كانت السبب الأول في صرفي عن متابعة مثل تلك الأعمال منذ أكثر مِن 15 عاما تقريبًا، إذ المرء إن أراد أن يتطهر قلبه و بصيرته فعليه بتطهير بصره و جوارحه أولًا، و لعل أحد أخطار النظر إلى هذه القاذورات هو في تغذيتها المستمرة للخيال و للعقل الباطن بتفاصيل (مواقف) العُري و الزنا و الخيانة و الشذوذ و استراق النظر، حتى إذا مر على المُشاهد مثلها –أو قريبًا منها– في حياته الخاصة بالفعل، فتبدأ ذاكرته في استحضارها على الفور ليبدأ إغراء النفس بالحرام، و إغواء الشيطان بتقليدها، و أما المؤمن.. فمِن المُفترض به أن يتجنب قدر ما يستطيع مثل هذه الابتلاءات و الامتحانات، التي قد يوكله الله تعالى فيها إلى نفسه، و ساعتها ما أضعف الإنسان أمام الشهوات، يقول تعالى: "وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً" التوبة 27- 28.

و الشاهد.. أنه مع كل هذا الكم مِن الشهوات المُستعرة، و تشجيع عدم الحياء منها، و تزيين التفاعل معها و تمريرها في الإيميلات، و تناقلها في التويتات و الفيسبوك، ولو كنوع مِن (التفتح) و (التحرر) و (الروشنة)، فإنه سيُصاحبها حتمًا مع الوقت -بصورة غير إرادية- مشاعر (الرفض) النفسي لفكرة المُحاسبة عليها، و اعتبارها مِن المُحرمات و المرفوضات، أو مظاهر (اليأس) النفسي لمَن وقع ضحيةً لهذه الشهوات بالفعل، و ظن أن الله لن يغفر له، و بذلك هم يضعون ضعيف الإيمان على أول درجات سُلم اللادينية و رفض الدين، و بذلك هم يفتحون أمامه –على نهاية السُلم– باب الإلحاد على مصراعيه.

و إذا أردت أن تحاسب العلمانية المتفسخة على ذلك لقالت لك:

أنا طلبت مِنه القفز مِن النافذة، و لم أطلب مِنه أن يسقط على الأرض فيموت!

و هنا يتجلى دور العلمانية الحقيقي في مطالبة كل مَن يثق فيها بأن يقف (رافعًا ذراعيه إلى جانبيه) ثم (يميل إلى الخلف)، مع اليقين بأنها (لن تجعله يقع على ظهره)!!

تمامًا كما تبيح الخمر و المخدرات و السجائر و الدعارة و الشذوذ في مجتمعاتها، و هي تعلم علم اليقين مدى المصائب التي تتسبب فيها على كل المستويات الصحية و النفسية و الاجتماعية، و لكن على غرار الأسلوب المتحضر في تصنيع الموت و إهدائه إليك في علبةٍ أنيقة تقول:

"التدخين يؤدي إلى الوفاة" Smoking Kills! أو كتابة (للكبار فقط أو +18 أو +25 أو مشاهد عنف إلخ) على بوسترات الألعاب و الأفلام، و كأن هذه الأعمار السنية هم ملائكة لن يتأثروا بمصائب ما فيها، أو –وهو الأخطر– أن مثل هذه التحذيرات، وخصوصًا في عالم الإنترنت و تنزيل الأفلام بغير رقابة، ستستثير المراهقين قبل الكبار لمشاهدتها و كسر التحذير منها!



بوستر فيلم (محامي الشيطان) Devil's Advocate 1997م، و الذي يُمثل فيه (آل باتشينو) دور إبليس في صورة محامي كبير في نيويورك، يريد غواية الشاب الطموح (كيانو ريفز) للعمل معه، حيث امتلأ الفيلم بالحوارات المدروسة الخبيثة لقلب أوضاع الخير و الشر بين الله عز و جل، و بين إبليس اللعين -على غرار رمتني بدائها و انسلت-، فنجد الشيطان هو الذي يعظ الإنسان بالأكاذيب التي مِن طرفٍ واحدٍ فيقول له مثلًا، و أعتذر عن الكلام البذيء في نهاية الاقتباس:

Who are you carrying all those bricks for anyway? God? is that it?

Well, I'll tell you.

Let me give you a little inside information about God.

God likes to watch. He's a prankster.

Think about it. He gives man instincts.

He gives you this extraordinary gift, and then what does He do, I swear for His own amusement, his own private, cosmic gag reel, He sets the rules in opposition.

It's the goof of all time.

Look but don't touch.

Touch, but don't taste.

Taste, don't swallow.

Ahaha. And while you're jumpin' from one foot to the next, what is he doing?

He's laughin' His sick, f*****g *** off! He's a tight-***! He's a SADIST!

He's an absentee landlord!

Worship that? NEVER!

حيث نسأل سؤالًا لكل ذي عقل هنا، و هو: هل حرم اللّه تعالى على الإنسان إلا الخبائث، مثل الزنا المُهلك للحرث و النسل، و المُضيع للحقوق، و المُدمر للكيان الأسري و روح العائلة، وبناء المجتمع، و مثل الربا وابتزاز الفقراء لصالح الأغنياء؟! و مثل الأخلاق السيئة، كالغش و الكذب و الخيانة و النفاق؟! و مثل المُسكرات مِن خمر أو مخدرات، و التي تودي بعقل صاحبها، و تجعله أقل مِن البهيمة السائبة بلا هدف، فيقتل أو يسرق أو يصدم بسيارته أو يزني أو يغتصب حتى أمه أو أخته أو ابنته أو غيرهن و هو لا يدري؟! و السؤال بصورة أخرى أكثر كشفًا للحُجة السفيهة:

هل أعطى اللّه تعالى الشهوات للإنسان، إلا و قد أباح له الحلال الطيب الذي يكفيها مِن زواجٍ و طعامٍ و لباس؟! هل أعطى له شهوة الجنس مثلًا ثم حرم عليه كل اتصال جنسي؟! أم أنه قد أباح له طريقًا واحدًا صحيحًا طاهرًا فقط ليُصرفها فيه، ألا و هو الزواج؟ ثم نهى الرجال و النساء عن النظر المُحرم للعورات، و كذلك نهى عن التبرج و السفور و العُري و الاختلاط المشين، ثم أمر أخيرًا بتيسير الزواج و الترغيب فيه: "وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" النور 32.

ثالثا: تصوير الوجود و الحياة بمظهر العبثية و العدمية و اللاغائية!

و هو باب آخر موازي لباب الإغراق في الشهوات، و يقع عن طريق نشر الأعمال التي تتلاعب بمفاهيم الحياة و الموت، و أكذوبة الصدفة و العشوائية التي ينتج عنها الكون و الحياة، أو خرافات التطور التي تسلب الإنسان مركزيته بين المخلوقات، أو خلط الوهم بالحقيقة، أو إزالة الفوارق بين الممكن العقلي و المستحيل العقلي، أو الاستخفاف بإنسانية البشر و مشاعرهم و عواطفهم و أخلاقهم السامية، و التي مِن دونها ينحط قدرهم بأدنى مِن الحيوانات، و إلى أن يصيروا (عالقين في الإنسانية)، و مثلما قالها المراهق التائه (كليبولد) أسير الـ (NBK) لو تذكرون..

حيث صار المجال مفتوحًا منذ عهود ليتفنن فيه كل مريضٍ نفسيٍّ، و كل متلاعب بحياة البشر في اختراع قصة لعبة كمبيوترية جديدة أو فيلمٍ جديد (كارتون أو سينمائي)،

يهدم فيهم الاتزان الوجودي داخل عقل الإنسان، و ليفتح له ألف باب مِن خيالات الكفر و الإلحاد أو الأخلاق المؤدية إليهم.

فبدءً مِن ألعاب السيارات التي كلما قتل أبطال اللعبة (و هم اللصوص!) عدداً أكبر مِن الأبرياء الذين في الشوارع أثناء هروبهم مِن الشرطة يحصلون بذلك على Score أكبر!

و مروراً بمئات الألعاب و الأفلام الأخرى التي تمتلئ بخلط عالم الجن بخرافات الأشباح و الأرواح الهائمة، أو تمتليء بقصص السحر التي تخلط المعجزات بتلاعبات الشياطين، و حتى تنسب قدرات الله إلى غيره في عقل اللاعب أو المُشاهد، أو التي تمتليء كذلك بقصص (الموتى الأحياء) Living Dead، كالـ (الزومبي) Zombie وغيرها، و التي تتلاعب بالحد الفاصل بين الحياة و الموت، أو التي تروج لقصص الرعب العبثي Horror - Thriller ، و التي تمتليء بالخيالات المريضة و التوهمات السقيمة، و القتل الكثيف البشع و غير المبرر و بغير هدف، بل و التي تمتلئ بمَشاهد التقطيع و الذبح و التعذيب و التلذذ بآلام الضحايا و الدماء و الأشلاء التي تملأ كل مكان مِن حولك في اللعبة أو في الفيلم، حتى أن بعضها صار يدعو صراحةً لطقوس السحر الأسود و عبادة الشيطان، و بالصورة التي تدفع كل عاقل إلى أن يتساءل: ما الهدف مِن وراء إنتاج مثل هذه المصائب النفسية و الاجتماعية؟!

و انتهاءً بمجموعة كبيرة مِن الأفكار الخيالية البرّاقة، التي يتم صياغتها في أفلام و أعمال و مجلات (أنمي)، يتم فيها استبدال كل ما هو غيب لدى الأديان (ابتداءً مِن الخالق ومروراً بالملائكة و الشياطين و الموت) بعالم الأرواح و الطاقة و القدرات الخارقة، و هي رواسب الدين عند اليابانيين الذين يخيم عليهم الإلحاد القاتل اليوم و أعلى نسبة انتحار في العالم، أو مجموعة كبيرة مِن الأفلام السينمائية المسبوكة الحبكة، لقلب مفاهيم الحياة و الكون و بدهيات العقل رأساً على عقب، و خلط الوهم بالحقيقة في عبثية و عدمية واضحة مثل:

1- (ترون) Tron بنسختيه القديمة 1982 و الجديدة TRON: Legacy 2010، و الذي يُمرر - بطريقة غير مباشرة- الفكرة العبثية بأننا داخل لعبة كمبيوترية كبيرة مُعقدة، مثل ألعاب الفيديو جيم!

و قريباً مِنه فيلم (استعراض ترومان) Truman Show 1998، و الذي يُغذي نفس الفكرة السابقة، و لكن مع تصوير الإله -تعالى عن ذلك- في صورة المُخرج المُستمتع بما رسمه للإنسان مِن مواقف و ردود أفعال جبرية لا يريده أن يخرج عنها، و يمكننا ضم إليهم أجزاء فيلم المصفوفة Matrix الثلاثة: 1999، مايو 2003، نوفمبر 2003، و هو مِن أشهر الأفلام التي تصب في هذه النزعة السلبية أيضاً للوجود الحقيقي، و تصوره إلى الذهن في صورة وجود أو برامج (افتراضية)، تم تصميمها مِن قبل آلات ذكية أخرى تستنفذ طاقات البشر.. إلخ!

و الملاحظ في هذه النوعية مِن الأفلام أنها لتغذية الاستهلاك الإلحادي الوقتي لقصر عمرها عند العقلاء، و ذلك لأنها لا تعطي أبدًا المُشاهد -بسطحية أفكارها- الجواب على السؤال المنطقي:

و ماذا بعد ذلك ؟!

أي: و ماذا بعد أن أظهرتم لنا هذه الأفكار الخيالية مِن وهم الوجود، و نقلتم الكرة إلى ملعب وجودٍ آخر أعلى أو حقيقي: فماذا بعد هذا الوجود الآخر؟! أليس يعرف العقلاء أن كل مَن لم يخلق نفسه فهو مخلوق بالضرورة: "أم خُلقوا مِن غير شيءٍ أم هم الخالقون"؟! الطور 35، و لذلك فنحن -كمؤمنين بالله عز و جل- نؤمن بالخالق الذي لم يخلقه أحد، و بالأزلي الذي لم يسبقه عدم، و بالقدير الذي خلق كل شيء و كل هذا الكون و كل ما فيه.

2- و يعزف على نفس أوتار نغمة (التشكيك) في البديهيات، بل و التشكيك في وجود الذات الإنسانية نفسها تمهيدًا لقبول 2+2=5!، أفلامٌ أخرى تخصصت في خلط الواقع بالخيال و الوهم بالحقيقة، حيث يتعمد الكاتب فيها مع احترافية الإخراج التنقل بالمُشاهد بين المواقف الحقيقية و المتوهمة، أو اللحظات المختلفة و المتداخلة تمهيدًا لتذويب الفوارق في ذهنه بين النسبي و المُطلق و بين اليقين و الظن، وساعتها ينفتح لمَن يتأثرون بهذه الأفلام أبواب التشكيك في كل شيء مِن حولهم، سواء عن لذةٍ في ذلك أو بصورةٍ مَرضيةٍ فيما بعد، و ذلك مثل فيلم (نادي القتال) Fight Club 1999، و الذي يتوه فيه المُشاهد مع بطله، و كذلك الفيلم النفسي التوهمي (الآخرون) The Others 2001، و العديد مِن الأفلام الأخرى و التي تزيد نسبة التفاعل معها بصورة مُضاعفة مع تقنيات التصوير المُجسم بكاميرتين 3D، و التي قد تستثير بالفعل بعض المُضطربين نفسيًا أو التائهين في الحياة لتصيبهم بأمراض ذهانية مِن التوهم أو الشك في وجود أنفسهم ذاته.

3- و كذلك أفلام الأكوان الموازية أو الدورات اللانهائية أو المتداخلة للحياة.

سواء كانت دورات زمانية، مثل الفكرة الكفرية عن تناسخ الأرواح، و التي مثلها مؤخرًا فيلم (سحابة الأطلس) Cloud Atlas 2012، أو فيلم (شفرة المصدر) Source code 2011، و فيه المشروع الذي يجعل بطل الفيلم يحل في أجساد أشخاصٍ آخرين في آخر 8 دقائق مِن حياتهم، أو أفكار السفر عبر الزمن إلى الماضي أو المستقبل، و كما قدمته سلسلة طويلة مِن الأفلام، بدءً مِن أجزاء فيلم (المُدمر) Terminator 1984، أو أجزاء فيلم (العودة إلى المستقبل) Back to the future 1985، و مرورًا بعشرات الأفلام الشهيرة الأخرى مثل (الرجال في السترات السوداء - الجزء 3) Men in Black 3 2012، و إلى أن وصلت لأفلام الأطفال باحترافيتها و جاذبيتها مثل (قابل عائلة روبنسون) Meet the Robinsons 2007، و لتفتح أمامهم بذلك آفاق الاحتمالات اللامنطقية لتغيير الماضي أو الاطلاع على المستقبل، و التي تراجع عنها علماء الفيزياء أنفسهم مثل أفكار السفر عبر الزمن أو

السفر عبر الثقوب السوداء إلى أكوان موازية أخرى، و التي قادها الملحد (ستيفن هوكينج) منذ 1975، ثم عاد و اعتذر عنها رسميًا عام 2004.

4- أو دورات لانهائية مكانية، و منها فكرة العوالم المشتركة مثل فيلم (البوصلة الذهبية) The Golden Compass 2007، أو الأخطر و هي فكرة العوالم التي بداخل عوالم بصورة متكررة و غير منطقية إلى ما لانهاية في عبث فكري فج و مفتوح، رغم أن الفيلم -كالعادة- لا تستطيع فكرته عن تسلسل العوالم إلى ما لا نهاية أن تقضي على فكرة (وجوب) وجود خالق أزلي لا شيء قبله يَخلُق ولا يُخلق، و إلا لمَ بدأ الوجود؟! و على غرار (تأثير قطع الدومينو) الشهير Domino effect، و الذي لن يقع بأكمله ما لم تكن له نقطة بداية.

و نلاحظ أن كل ما استعرضناه مِن أفكار ليس هناك دليل واحد يدعمها ماديًا ولا تجريبيًا ولا علميًا، و أن هذا هو المدخل الأخطر الذي تلج مِنه الأفكار الإلحادية على الأذكياء الذين ليس لديهم ما يوجه ذكاءهم ولا افتراضاتهم مع الأسف، و لو فقهوا لعلموا أنه ما أسهل أن يُطلق الواحد منا العنان لأفكاره ليتخيل ما يشاء مِن أفكار و افتراضات، و لكن كم منها سيتوافق مع أبسط البديهيات و المُمكنات العقلية؟ و كم منها هو مِن المستحيلات العقلية التي لا تساوي حتى الوقت الذي سيُضيعه عليها؟!

هذا و قد تعمدت عدم ذِكر أعمال عن التطور (و ستأتي في نهاية البحث)، ولا أسماء للألعاب و الأفلام الدموية و العبثية و العدمية، و التي يبعث أغلبها على التقيوء و التقزز و الاشمئزاز بسبب خطورة ما فيها بالفعل على الأمن النفسي و الجسدي و أمن المجتمعات، و لكني أختم معكم هذه النقطة بقصة سريعة، عن أحد الأشخاص الذين وقعوا ضحية Trailer عاري لأحد الأفلام الإيطالية الماجنة في ثمانينات القرن الماضي، حتى إذا تحصل على نسخة الفيلم مِن الإنترنت و قام بالتخلص مِن زوجته و أبنائه عند أقاربهم ليتمكن مِن المشاهدة بكل أريحية في بيته: فوجيء بأن الفيلم هو أحد أفلام تلك الحقبة (الفنية) العبثية العدمية، التي غزت أوروبا و إيطاليا في السبعينات و الثمانينات في فترة (ما بعد الحداثة)!

و أن المشاهد العارية التي اجتذبته لم تكن إلا بعض المقاطع مِن مشاهد أخرى مليئة بالتعذيب السادي المُقزز و القتل غير المُبرر، و إلى أن شعر الرجل بأن (إنسانيته) تسلب منه مِن خلال هذا العمل، الذي لا هدف منه و لا غاية إلا انحطاط النفس بلا معنى مع تغييب الثوابت و زوال الفواصل بين المُطلق و النسبي، و هو التمهيد لمفهوم 2+2=5! و على الفور فر هاربًا مُتوجهًا إلى بيت أقاربه ليعانق زوجته و أبناءه و هم مندهشون! إذ شعر يومها -و لأول مرة- و كما أخبرني:

كم هو إنسانٌ بهذا الدين!

و الحقيقة أن الواحد منا كان ليغض الطرف عن الحديث عن مثل هذه الأفكار -بل و عن هذا الموضوع برمته- لولا أني قابلت بالفعل مِن شباب اليوم مَن أصابته للأسف هذه

اللوثات الفكرية، و الرؤية العبثية و العدمية للوجود مِن جراء مثل هذه السيناريوهات و القصص.

رابعًا: المُغالاة في الخيال العلمي لتهميش قدرات الإله الخالق!

حيث رأس المال هنا هو التلاعب بالمفتونين بالعلم و قدراته، إذ في الوقت الذي يُعد فيه الخيال العلمي بالفعل هو أحد أبواب الاختراع و التطوير للأفضل و البحث لاكتشاف المزيد من أسرار الكون و قوانينه، إلا أن التمادي في هذا الخيال الذي يُخاصم أبسط البدهيات العقلية -مثل خلق الحياة أو إحياء الموتى- فهو يصب في النهاية في خانة سلب الإله الخالق ما لا يصح نسبته إلا إليه.

1- فهناك مثلًا فكرة صنع إنسان أو تجميعه، و بث الحياة فيه في دقائق أو لحظات، و الفكرة على سخافة تصورها -إذ اختصرت خرافات التطور و نشأة الحياة من ملايين السنين إلى أقل مِن الساعة- فهي إحدى أقدم أفكار الأفلام مع ظهور فن السينما، و ذلك في فيلم (فرانكشتين) Frankenstein عام 1910، و الذي لم يتعد طوله آنذاك الـ 16 دقيقة أبيض و أسود، و هي الفكرة التي أعيد صياغتها و التعديل عليها و إنتاجها و إخراجها أكثر مِن مرة، أشهرها عام 1931، و آخرها I, Frankenstein خرج في يناير 2014، و فيه يظهر (فرانكشتاين) منقذًا للعالم، و هي موضة (العبث العاطفي) السائدة منذ سنوات في تحويل كل الأشرار إلى أخيار، يتعاطف معهم المُشاهدون، وصولًا إلى (دراكولا) نفسه و مصاصي الدماء، هل تظنون أن ذلك له هدف؟! و هكذا نرى في قصص (فرانكشتين) المُعادة تكرارًا و مرارًا استخفافًا صريحًا بمعجزة الروح و خلق الحياة المُختصة باللّه تعالى وحده، و بالصورة التي لم تنجُ منها أفلام كارتون الأطفال أيضًا، مثل فيلم (فرانكين ويني) Frankenweenie 2012، و الذي يصورون فيه الطفل الصغير (فيكتور) و قد استطاع باستخدام كهرباء الصاعقة أن يعيد الحياة لأشلاء كلبه (سباركي) الذي دهسته سيارة، و وداعًا لمفهوم الروح ليؤكدون للأطفال أن الحياة مادة!



2- و هناك أيضًا فكرة الاستنساخ البشري –و الذي تسوقه أفلام الخيال العلمي في صورة الخلق الكامل-، حيث يصورونه للناس على أنه سيصير أسهل ما يكون في المستقبل القريب ومع تطور التقنيات، رغم أن الذي لا يعلمه أكثر الناس هو أن تجارب الاستنساخ الحيواني نسبة نجاحها قليلة، و تموت فيها الأجنة غالبًا في فترة مبكرة أو بعد الميلاد بفترة قصيرة، لأن الحمض النووي المنقول مِن الخلية الجسدية يتم نقله إلى النواة الفارغة بكل ما فيه مِن أمراض، و طول عمر سابق بالفعل، بل و قد تخطى خيالهم في ذلك حدود العلم التجريبي نفسه ليزعموا إمكانية نسخ كل ذاكرة الإنسان لنقلها إلى

نسخته الوراثية الجديدة، مُتناسين مرة أخرى عجز العِلم الحديث -و إلى اليوم- عن إثبات مكان مُحدد لذاكرة الإنسان في المخ المادي، بل و تأكيد بعض كبار المُختصين أن الذاكرة هي متعلقة بالوعي الروحي أو غير المادي، و أن المخ و وصلاته ما هو إلا أداة استقبال و تفعيل أوامر و نقل إشارات، وليس تخزين! تمامًا كالتلفاز الذي بدونه لن يتم استقبال إشارات البث و الكهرباء، فإذا تحطم توقفت، و ذلك في ضربة جديدة و قاصمة للملحدين و الماديين. (10)



بوستر فيلم (اليوم السادس) The 6TH Day 1999م، و فيه تجسيد لكل هذه الشطحات الخيالية و المبالغات غير العلمية في باب الاستنساخ، و الذي يحلو للتطوريين و الملحدين التلاعب به كل فترة لنزع الشعور في العوام بتهميش إحدى صفات الإله و هي خلق الحياة، و يتم ترويج نفس الفكرة باحترافية أكبر في الكثير من أفلام كارتون الأنمي، و خصوصًا الجرافيك الثري دي ذات الشعبية الأكبر مثل فيلم (إكس ماشين) Appleseed Saga: Ex Machina 2007، و البشر المنتوجين بالهندسة الحيوية bio-engineered human beings = Bioroid.

3- فكرة أخرى تتبناها بعض أفلام الخيال العلمي -مثل فيلم بروموثيوس مؤخرًا Prometheus 2012، و هو اسم أحد آلهة الإغريق القديمة المُختصين بخلق الحياة- هي البحث عن أصول الإنسان على أنها جاءت مِن مخلوقات أخرى في الكون، و هذا اعتراف ضمني منهم –لو يفقهون– باستحالة أن تكون الحياة على الأرض قد نشأت صدفة و عشوائية بالتطور المزعوم، فلجأوا لعملية التفاف جديدة هدفها عدم الاعتراف بالله الخالق كعادتهم، ألا و هي نسبة هذه الحياة التي على الأرض إلى كائنات أخرى متفوقة علميًا عنا، و السؤال البديهي -كما تعودنا- هو: و هل فعلوا بذلك إلا نقل الإشكال إلى خانة أخرى فقط بغير حل؟! وإلا: فمَن الذي خلق هذه المخلوقات المتفوقة الثانية؟! هل هي كائنات أخرى ثالثة؟ و هل مِن قبلها كائنات أخرى رابعة؟ ثم خامسة وسادسة و هلم جرا..؟!

يذكرنا ذلك (العناد) و(المراوغة) المفضوحة مِن الاعتراف بإله قدير بأحد أشهر أعمدة الإلحاد اليوم و أكثرهم تعصبًا للتطور و هو (ريتشارد دوكينز)، و ذلك عندما حاصره المذيع اليهودي (بن شتاين) في آخر مشاهد فيلمه الوثائقي الرائع (المطرودون – غير مسموح للذكاء) Expelled: No intelligence allowed 2008، بسؤاله عن الإعجاز المُبهر و التعقيد الرائع في داخل الخلية الحية و حمضها النووي الوراثي، ألا يدل ذلك على وجود خالق؟ وعندها نرى إقرار (دوكينز) باحتمال حدوث تصميم ذكي بالفعل، و أنه مِن الممكن أن يكتشف علم الكيمياء الحيوية و الأحياء الجزيئية توقيع ذلك المصمم

الذكي في داخل الخلايا الحية، لكن هذا المصمم عنده لن يخرج عن كونه (كائنات فضائية) قد تطورت (داروينيًا) هي الأخرى في كوكبٍ ما بعيد، و إلى أن وصلت إلى درجة مِن العلم مكنتها مِن تصميم الخلية الحية وبذرها في أرضنا (11)، و أترك لكم التعليق!

و أما الغريب في فيلم (بروميثيوس) السابق أن اكتشافهم لخريطة النجوم في أكثر من حضارة مختلفة (المصرية، المايا، البابلية، السومرية، وحضارة هاواي) لا تربطها علاقات مباشرة، جعلهم يستنتجون حتمًا أن كائنات أكثر ذكاءًا (أسموهم : المهندسين – Engineers) هي السبب وراء هذا.

ولازال التائهون يخبرونك عن عدم وجود دلائل ولا آثار على الخالق في حياتنا، و أنهم في حاجة لمزيد مِن اكتشاف الكون حتى يتأكدون مِن وجود خالق مِن ورائه، يزعمون هذا رغم مليارات الأدلة الباهرة و الحاسمة التي تحت أيديهم في الخلية و تعقيدها، و في كل كائن حي مِن حولهم، و في دقة هذا الكون التي تستحيل على العشوائية و الصدفية، كما أقر بذلك علماء الفلك و الفيزياء المُختصون، و حتى أطلقوا عليه أوصافًا مثل (الكون المُعد بعناية) Fine-Tuned Universe وغيره، يقول الفلكي التائه (كارل سِجَان) مُعلقًا على الإلحاد:

An atheist is someone who is certain that God does not exist, someone who has compelling evidence against the existence of God. I know of no such compelling evidence. Because God can be relegated to remote times and places and to ultimate causes, we would have to know a great deal more about the universe than we do now to be sure that no such God exists. To be certain of the existence of God and to be certain of the nonexistence of God seem to me to be the confident extremes in a subject so riddled with doubt and uncertainty as to inspire very little confidence indeed. (12)

حيث يمكن أن يؤمن (كارل ساغان) بإله إذا كان عبارة عن القوانين التي تحكم الكون! و لكنه في هذه الحالة لن يكون هناك معنى لعبادتها، لأنه لا أحد سيعبد قانون الجاذبية مثلًا –على حد قوله في إحدى تصريحاته-. و الآن.. ماذا تتوقعون عندما يكتب مثل هذا التائه في الحياة قصة فيلم خيال علمي شهير مثل فيلم (اتصال) Contact 1997؟

أقول -كما أخبرتكم أن العمل الفني هو قطعة مِن صاحبه- تجدون نصوصًا في سيناريو الفيلم تترجم لنا نفس النظرة المتخبطة العمياء، حيث لا يرضى بمليارات الأدلة التي يعيش معها و فيها على وجود الخالق الحكيم القدير سبحانه: فيتركها لينطلق بقلبه بحثًا في الفضاء، و لذلك نجد مثل الكلام الساذج التالي على لسان بطلة الفيلم (جودي فوستر)، و الذي تتصنع فيه العجب مِن أن خالق هذا الكون لم يترك دليلًا واحدًا على وجوده، و أنها مِن هنا ترى أن فكرة وجود الخالق هي فكرة مُصطنعة، ثم يأتي الفيلم

ليرسم المؤمنين بإله في صورة المُعارضين للعلم و للبحث في الكون، و هو غير صحيح..

Ellie Arroway: So what's more likely? That an all-powerful, mysterious God created the Universe, and decided not to give any proof of his existence? Or, that He simply doesn't exist at all, and that we created Him, so that we wouldn't have to feel so small and alone?.

4- و قريبًا مِن تلك المسألة، مُغالطة الاستدلال بوجود كائنات فضائية عاقلة أخرى في الكون، على عدم وجود خالق بالضرورة!

و الفرق بين هذه الحالة و حالة الكائنات الفضائية التي زرعت الحياة في الأرض هو أن هذه الحالة تتحدث عن نشوء حياة عاقلة أخرى (بالصدفة و التطور أيضًا) بصورة منفصلة عما حدث على الأرض، مما يعني عندهم أن مسألة نشوء الكائنات الحية في أي مكان في الكون هي قضية عشوائية، و لا تحتاج إلى خالق في رأيهم، و هنا مُغالطات منطقية أخرى جديدة مثل:

أ- مُغالطة (التعميم على أساس أدلة لم تقع بعد) Generalization from fictional evidence؛ حيث إلى اليوم لم تثبت حادثة واحدة صحيحة عن وجود كائنات فضائية، أو حتى أكاذيب الأطباق الطائرة مِن وسط مئات القصص المُصطنعة و الشائعات التي تجلب الأموال الطائلة على مروجيها لتنشيط السياحة وبيع الهدايا التذكارية ! ومثل ما تم كشفه مِن خدع سخيفة عن تشريح فضائيين أو فضح أكاذيب 30 سنة مثلما وقع للمحتال (بيلي ماير) Billy Meier على يد مركز CFI-West/IIG بلوس انجيلوس 2001.

والذي تحدته مؤسسة (جيمس راندي) James Randi Educational Foundation لإحضار قطعة معدن مِن التي يدعي حصوله عليها مِن الكائنات الفضائية أصدقائه مقابل مليون دولار : فلم يفعل ! هذا كله : فضلًا عن فشل جميع برامج البحث عن وجود أدلة على أية حياة عاقلة في الكون حتى اليوم (13) !

ب- مُغالطة (الافتراضات المُسبقة)Presupposition ، و تتمثل في وضع افتراضات لا ارتباط بينها و بين النتيجة التي يريدون إيهام الناس بها، مثل افتراض أن مجرد وجود كائنات فضائية يعني عدم وجود الخالق، و ذلك رغم أن بدهيات العقل تحتم كما وضحنا سابقًا استحالة وجود شيء مُحكم و دقيق و متقن و غائي إلا بخالق، و أنه لا يستحيل على الذي خلق الحياة في الأرض أن يخلق مثلها مليارات المرات في سائر الكون مما نعلم و مما لا نعلم إذا شاء.



و لعله مِن أبرز الأفلام التي استخدمت هذه المُغالطة المنطقية بصورة فجة، و بغير حياء -على حد علمي- لأول مرة بصورة صريحة مِن وسط مئات أفلام الكائنات الفضائية قديمًا و حديثًا، هو فيلم الكائن الفضائي (بول) Paul 2011، حيث يربط سيناريو الفيلم مسألة وجود الخالق أو عدمه بمسألة وجود كائنات فضائية أو عدمها، و يسوق لنا المؤلف و المخرج ذلك المفهوم عن طريق اختيار

شخصيات الممثلين بعناية، حيث نجد الأب النصراني المتعصب و ابنته (روث باجز) الملتزمة -حتى الآن-، و التي تعتقد أن عمر العالم 4000 عام فقط، و التي بمجرد أن تعرف أن (بول) بالفعل كائن فضائي و أن نظرية (داروين) عن التطور كانت صحيحة (رغم عدم وجود أي دليل علمي واحد عليها إلى اليوم)، فسرعان ما ينقلب حالها 180 درجة في مشهد مدروس، حيث في لحظات تبدأ في إظهار أفكارها المُتحررة، و رغباتها المُقيدة، و ألفاظها القذرة بمجرد إلقائها للدين خلف ظهرها، و هذا هو المغزى مِن الفيلم.

خامسًا: استغلال لا معقوليات النصرانية و الأديان المُحرفة كذريعة للإلحاد!

و هذه النقطة لها ميزة و عيب، فأما ميزتها؛ فهي أنها تزيد مِن كفر الكثيرين بأديانهم المُحرفة أو البشرية، و تكشف لهم عجز أديانهم عن إجابة الكثير مِن أسئلتهم و حيرتهم عن الله أو عن ثغرات شرائعهم، و تؤدي بطلاب الحق مِنهم في النهاية إلى مرحلة اللادينية، و التي يدخل أغلبهم مِنها في الإسلام إذا بحثوا بإخلاص أو اكتشفوا كمّ الأكاذيب و التشويهات الإعلامية بخصوص المسلمين.

و أما العيب؛ فهو أنها تستخدم دومًا جميع أنواع (مُغالطات التعميم) المعروفة ليتم إلحاق الإسلام بكل سلبيات الأديان الأخرى، و لكن تأثير هذا العيب و هذا التعميم صار اليوم قصير المُدة، بسبب التوسع المتسارع للإنترنت و الاتصالات، و إتاحة المعلومات الحقيقية و تبادلها بين البشر، بعيدًا عن أكاذيب الأبواق الرسمية أو الإعلامية أو الأقلام المأجورة في مواقع الأخبار و الإنترنت.

و نشرًا للفائدة أقول: الإسلام هو الدين الوحيد المتفق مع العقل، و لذلك لم يَعرف الناسُ كتابًا يحث أتباعه و المؤمنين به على التفكر و استخدام العقل كدليل على الإيمان مثل القرآن، لأنه طالما الإسلام هو دين الحق فالحق ليس فيه (مستحيلات عقلية) لا يمكن تقبلها، مثل ادعاء أن 3=1 أو 1=3 كما في النصرانية، أو ادعاء أن 2+2=5 كما في الإلحاد، أو أن الأشياء المُعقدة و المركبة تظهر بالصدفة أو العشوائية، أو أن الشيء يخرج مِن العدم بغير فاعل أو تسلسل المُسببات إلى ما لا نهاية، أو أن المادة الفاقدة لحرية الاختيار تنتج لنا حياة و حرية اختيار في الكائنات الحية، و إنما كل الإسلام و عقائده و غيبياته هي في (الممكنات العقلية).

و مِن هنا نعرف خبث الذين يطرحون شبهات تشكيكية على المؤمنين البسطاء لزعزعة إيمانهم بالله على غرار قولهم: هل يستطيع ربك أن يخلق صخرة لا يستطيع حملها؟ أو يخلق إلهًا مثله؟ نقول: قدرة الله تعالى لا تتعلق بـ (المستحيلات العقلية)، فالذي يخلق صخرة هو قادر يقينًا على حملها، و الإله المخلوق لن يصير إلهًا لأن الإله خالق لا مخلوق، فكيف سيخلقه إله مثله؟! فمثل هذه الأسئلة هي تحمل الخطأ في ذاتها (أي تحمل خطأ في الطرح نفسه)، و لذلك نسميها سؤال ملغوم Loaded question، و ذلك مثل أن أقول لك: هل تستطيع أن تنزل إلى الأعلى؟ أو تهبط إلى فوق؟

و أما الذين يُحاولون السخرية مِن معجزات رسول الإسلام –و غيره مِن معجزات الرسل السابقين– مثل السخرية مِن البُراق و الإسراء و المعراج (مثلما فعل ريتشارد دوكينز في أحد لقاءاته) أو شق البحر، أو تحويل العصا إلى ثعبان و العكس، أو جعل النار بردًا و سلامًا.. إلخ، فنقول:

هناك (ممكن فيزيائي)؛ و هو كل القيم و الثوابت و القوانين التي خلق اللّه تعالى بها هذا الكون، فهي ممكنة، لأن اللّه تعالى لو شاء أن يضعها في صورة قيم أخرى و أشكال أخرى ممكنة لوضعها، و هناك (مستحيل الفيزيائي)؛ و هو عدم قدرتنا (نحن) على تغيير هذه القيم و الثوابت و القوانين لأنها ليست في يدنا، و لكن.. يستطيع تغييرها بكل بساطة اللّه الذي خلقها، و بذلك تتساقط كل الشبهات و السخريات التي مِن هذا النوع بمجرد التسليم بوجود الخالق، و لذلك يتهرب الملحدون مِن التسليم لنا به.

و نحن لن نهدف بالطبع في هذه الدراسة للتحدث في تفاصيل الأديان الأخرى –و لاسيما النصرانية باعتبارها الدين الأول في أمريكا–، و إنما نريد توضيح بعض النقاط الهامة التي تبصر المُشاهدين بكيفيات تناول الوسائل البصرية –و الفيلمية السينمائية بخاصة–، هذه المسائل الدينية و تمثيلها بالشكل الذي يخدم اللادينية و الإلحاد بصورة كبيرة، و إن كانت غير صريحة أحيانًا.

1- فمِن ذلك مثلًا أسلوب (كسر القداسة) و (امتهان) الرموز الدينية، الذي تبيحه العلمانية في الخارج بحق الدستور و القانون تحت ذريعة (حرية التعبير)، و الذي شجعهم عليه في البداية مع الأسف: سماح الكنائس النصرانية في العالم لتجسيد شخص المسيح و الأنبياء بالصور و الأفلام، دون المراعاة لقدسيتهم –و ذلك لأنها كانت مِن أسرع وسائل نشر النصرانية و تثبيتها لدى عوام الأمم و بسطائهم عاطفيًا–، فكأن ما وقع ويقع لهم اليوم هو جزاءً وفاقًا على هذا الاستخفاف الكنسي الذي أرجو أن نتعظ مِنه!

2- كذلك التلاعب التاريخي المُشين و العبثي في قصة أي دين تحت ذريعة (العمل الكوميدي) أو (الرؤية السينمائية الجديدة / أو المحايدة)، و ذلك مثل الفيلم الهزلي البذيء (حياة برايان) 1979 Life of Brian، و الذي يعرض قصة حياة المسيح عليه السلام في صورة الشاب العبثي (برايان)، ليسخر مِن النصرانية كيفما شاء، و مثل فيلم (الإغراء الأخير للمسيح) 1988 The Last Temptation of Christ، و الذي يعيد صياغة حياة المسيح ليُظهره كإنسان له شهواته و نزواته، حتى أنه يزني مع عاهرة يحبها، ثم يختار حياة البشر و الزواج و الإنجاب على تكاليف الرسالة، إلى آخر هذه الخيالات المريضة التي يقطعها آخر الفيلم في صورة عودة المسيح إلى الخط المرسوم له مِن جديد، ومع الأسف تتكرر مِثل هذه الاختراعات و تتعدد، حتى تصل إلى زعم أن له نسلًا خاصًا يعيش إلى اليوم، (ومثلما في فيلم شيفرة دافنشي) 2006 Davinci code، بل و مثل فيلم (نوح) Noah الذي صدر منذ أسابيع ليُغير صورته الدينية لدى المؤمنين.

3- أيضًا تعمد رسم الصراعات الوهمية بين الإله و بين إبليس، فيرسمون هذا الأخير و كأنه نِدًا للّه عز و جل –و حاشاه-، و أنه متمرد إلى اليوم على قوة اللّه الذي يرسل له (جبريل) أحيانا ليتصارع معه، أو يصارعه هو نفسه -و العياذ باللّه-، و كل ذلك في تقنيات إخراجية و مؤثرات و خدع سينمائية جذابة، لتمرير المضامين الخبيثة إلى اللاوعي بغير تركيز، و مثلما في فيلم (قنسطنطين) Constantine 2005، أو في صورة أفلام هزلية كوميدية عبثية أو ماجنة مثل فيلم (دوجما) Dogma 1999، حيث ليس هناك أي تقيد في هذه الأفلام بأي ثابت ديني (أو مقدس) معروف لدى المُشاهد، و لو بجعل الإله الأكبر في صورة أنثى!

ملحوظة: معلوم أن لغات كثيرة في البشر -و مِنهم العرب- يستخدمون ضمير المُذكر في الإشارة إلى الإله، و ذلك مِن ناحية تغليب المُذكر على المؤنث في لغاتهم، و ليس للدلالة على جنس الإله كما يظن الجاهلون، ثم تعاديهم الجاهلات بعد ذلك!

4- و كذلك صياغة قصص الأفلام و السيناريوهات المُحبكة لقلب موازين الإله و الإنسان، أو التفنن في إكساب الإنسان قدرات خارقة تسلب الإله قوته أو علمه أو تساويه بهما، و هي بقية مِن بقايا الأساطير الإغريقية القديمة عن الآلهة و البشر، و لكن تم التنويع و التحديث لها اليوم، و كما في فيلم (استعراض ترومان) مثلًا، حيث يتغلب الإنسان في النهاية على (الصانع/المُخرج) الـ Creator رغم كل ما فعله الأخير مِن طرق ملتوية لوقف الإنسان عند حد معين مِن المعرفة و القدرات.
أو قلب موازين القدر الإلهي و الموت المُحتوم، و الذي لا مفر مِنه، و ذلك مثل مَشاهد الرجوع بالزمن للحيلولة ضد موت شخصٍ ما، مثل أحد مَشاهد فيلم (الرجل الخارق) Superman 1978، عندما قام بالطيران حول كوكب الأرض ليُغير اتجاه دورانه ليرجع بالزمن قبل موت حبيبته، و لا أعرف ما علاقة تغيير اتجاه دوران الأرض بإرجاع الزمن إلى الخلف، أو حديثًا مثل سلسلة أفلام (الاتجاه الأخير) final destination منذ 2000، و ما بعدها..
و كذلك قلب مفاهيم الخير و الشر في الملكوت الإلهي السماوي أو الأرضي الديني، مثل إظهار (إبليس) في صورة المظلوم المقهور الذي يعظ الإنسان مثلًا (وكما مر بنا في فيلم محامي الشيطان)، أو في صورة الذي لم يُصبه (توزيع الأدوار) الظالم مِن الإله إلا بدور (الشرير)، على الرغم مِن أنه ليس كذلك، و العجيب أن مثل هذه الأفكار يتم زرعها اليوم في عقول الأطفال منذ الصغر، و في أعمال لا تخطيء عين الخبير خطرها و المقصد مِن وراءها، و لكن بعد فوات الآوان مع الأسف.

بوستر فيلم الكارتون (العقل الكبير) Megamind 2010، و لفيلم مليء بالإسقاطات، حيث يهبط طفلان فضائيان في نفس الوقت على كوكب الأرض، و هنا يتدخل القدر (الظالم) ليجعل مِن أحدهما محظوظًا بطلًا (بسبب قوته الخارقة مثل السوبرمان – وهو



الوسيم الخِلقة)، و أما الآخر فيتعرض لكل الاضطهاد و الاستبعاد، رغم أنه الأذكى و الأكثر عبقرية (وهو صاحب الشكل الغريب الأزرق)، و هكذا تتوالى أحداث الفيلم لتظهر لنا في النهاية هشاشة البطل (مترو مان)، الذي طالما وثق الناس فيه، لينقلب رمز الشر (ميجا مايند) إلى المُنقذ في آخر الفيلم، فهل لاحظتم كم تكرر هذا التلميع لهذه الفكرة معنا حتى الآن، و هو غيض مِن فيض فقط.

5- أو في صورة رجال الدين الذين صاروا عنوانًا لعدم ثقة الإله –لو كان موجودًا–، و استبدالهم بالأفضل مِنهم قلبًا، و بالأصدق مِنهم وجدانًا، ألا و هم (الملاحدة)، نرى ذلك بجلاء في فيلم (شيفرة دافنشي) السابق ذكره، حيث جعلوا حفيدة المسيح في عصرنا الحاضر و حاملة السر الأعظم هي شابة ملحدة، و هكذا يصنع المؤلف و المخرج المقارنات المُجحفة بين الإلحاد و الدين، لتستمر إلى الجزء الثاني مِن الفيلم (ملائكة وشياطين) Angels & Demons 2009، بل و نجد نفس الصورة –و كأنه عن قصد– في فيلم (علامات الصلب) Stigmata 1999، و الذي تظهر فيه ندبات صلب المسيح على جسد الشابة الملحدة (فرانكي)، و بدلًا مِن ظهورها على جسد أشخاص متدينين، و هكذا يمكنكم توقع الرسائل التي يتم تمريرها طوال الفيلم، و في الصورة السيئة دومًا لآباء الكنيسة، و بخاصة عندما يتولى التحقيق في هذه القضية هو القس (كيرنان) المُتشكك أصلًا في دينه، و قريبًا مِن تلك الصورة أيضًا فيلم (أجورا) Agora 2009، و إظهار نصارى الأسكندرية القديمة في صورة منفرة مقابل العقل و العلم، و والله لا يعجب الواحد في نهاية هذا العبث مما انتشر مؤخرًا مِن فتح باب الكنيسة الكاثوليكية في روما رسميًا لأبواب السماء لتقبل (الملاحدة) في جنة الرب يسوع، فهل يُقال عندها مثلما قالت (جوزفين) الملحدة في فيلم (شيكولاتة) Chocolat 2000، عندما قال لها (سيرجي):

Serge: We are still married, in the eyes of God.

Josephine: Then He must be blind.

6- و في نهاية هذه القائمة نجد سلسلة كبيرة مِن الأفلام الوثائقية، التي تهاجم العقيدة النصرانية مباشرة، و الفساد الجنسي الذي فيها –بجانب التعصب العقدي و تناقض النصوص التاريخية و تحريفاتها–، مثل فيلم (إلتواء الإيمان) Twist of Faith 2004، و الذي يعرض قصة أحد ضحايا الاعتداءات الجنسية مِن الرهبان الكاثوليكيين في صغره! وكذلك فيلم (نجنا مِن الشرير) Deliver Us from Evil 2006، و الذي يتحدث عن الإجراءات الكنسية للتستر على أحد القساوسة مُغتصبي الأطفال في أمريكا! و مثل فيلم (معسكر المسيح) Jesus Camp 2006، و يعرض كيف يؤثر المتعصبون على الأطفال الصغار

في تلك المعسكرات بصورة هستيرية، لشحنهم في الإيمان بيسوع، و الاستعداد لفعل أي شيء في مقابل ذلك الإيمان.
و بالطبع لن أذكر هنا –أو أستشهد– بالأفلام التي تشن هجومًا على جماعات النصارى المُعارضة للشذوذ الجنسي، أو المبيحة لتعدد الزوجات، أو تلك الأفلام السخيفة التي تتخذ مِن تحريفات النصرانية ذريعة لادعاء عدم وجود المسيح أصلًا.

و الآن.. لنا أن نتساءل -و بعد هذه الجولة-:
ما موقف الإسلام مِن مثل هذه الهجمات لتمرير الإلحاد عبر محاولات انتقاده كغيره؟!

أقول:
المتأمل في التشويه المتعمد لصورة الإسلام -كقنطرة لبث روح الإلحاد أو اللادينية بين أتباعه مثل الآخرين-، يمكنه أن يحصر هذا التشويه بجلاء في ركنين كبيرين، و هما:
الافتراء على الإسلام بتهمة العنف و الإرهاب -و لاسيما تفجيرات 11 سبتمبر 2001-، ثم الافتراءات المتنوعة عن حال المرأة في الإسلام، فهذا ما يمكن لأي مُشاهد استنتاجه مِن عشرات و مئات الأفلام و البرامج و الكاريكاتيرات التي يتعمد أعداء الإسلام نشرها في إعلامهم العالمي، و في أفلامهم الوثائقية، مثل فيلم (ريتشارد دوكينز) الملحد، (أصل كل الشرور) Root of All Evil 2006، و فيلم (بيل ماهر) اللاديني الساخر Religulous 2008، و فيلم (فتنة) Fitna الهولندي 2008.

و أنا هنا لن أقضي سطور هذا البحث في بيان الردود الكافية على مثل هذه الافتراءات و الأكاذيب، و خصوصًا أن المبالغة في الكذب أتت بعكس ما كانوا يُخططون حيث دفعت الملايين للقراءة أكثر عن الإسلام فأبهرتهم أخلاقه و شرائعه، و لكني و بما أني في مجلة علمية بحثية تتحدث بالإحصاءات و التوثيقات، سأفسح المجال للأرقام و الحقائق لتتكلم.
1- فكتاب الإسلام هو الكتاب الوحيد الذي يدعو المسلمين و غير المسلمين إلى النظر فيه ليقارنوا بينه و بين تحريفات و أكاذيب الأديان الأخرى على اللّه، إذ يقول عز و جل: "أفلا يتدبرون القرآن ولو كان مِن عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا" النساء 82، أي أننا لن نجد في هذه الكتب المُحرفة على اللّه اختلافات قليلة فقط، و كالتي تقع بين البشر عندما يكذبون على بعضهم البعض، و إنما سنجد فيها اختلافًا كثيرًا يناسب عِظم التحريف و التقول على اللّه.

2- و أما بالنسبة إلى تفجيرات 11 سبتمبر الشهيرة، فلم يَثبُت إلى اليوم أي صلةٍ بينها و بين المسلمين، بل و لا بـ (أسامة بن لادن) نفسه و القاعدة، صدق أو لا تصدق، حيث تطالعنا صفحة التعريف به على موقع مكتب التحقيق الفيدرالي الـ FBI بمعلومات

ضلوعه في تفجيرات سفارتي أمريكا في تنزانيا و كينيا، تلك التي راح ضحيتها 200 شخص، و لم يذكروا تفجيرات 11 سبتمبر التي راح ضحيتها 3000 شخص.(14) بل و العجيب أنه كان كذلك مِن أول المُسارعين بنفي صلته (أو المسلمين عمومًا) بهذه التفجيرات، و كما نقلها عنه موقع الـ CNN الإخباري الأمريكي وقتها، و في أقل مِن أسبوع واحد فقط مِن الحادث! (15) و هو ما عاد و أكده أكثر مِن مرة في تصريحات أخرى له –و بعكس ما تعمدت الميديا الأمريكية الجبارة نشره في العالم وإلى اليوم–، مثل لقائه مع المجلة الباكستانية Millat (16)، أو في لقائه المصور كذلك مع قناة الجزيرة، و الذي يمكن البحث عنه في الـ Youtube تحت اسم: Bin Laden denies involvement in 9 11 (17)

3- و مِن هنا تسقط جميع أقنعة التدليس و الكذب على الإسلام و المسلمين، و التحيز البغيض ضدهم، و الذي يتكشف يومًا مِن بعد يوم على أيدي شبكات التواصل الاجتماعي، و المعلومات التي كشفت لشعوب العالم أكذوبة الإرهاب الإسلامي المزعوم، و أكذوبة آلاف الصور و الكاريكاتيرات السمجة المتداولة، كالعمائم المفخخة، و النساء المنقبات مسلوبات الإرادة بلا تعليم و لا إبداع، و الرجال الذين يركبون الجمال إلى اليوم بجوار الأهرامات و الكعبة! و أنها لم تكن كلها إلا خداع في خداع و تضليل في تضليل، و معها إمكانية عرض أي صورة أو فيديو لجريمة دموية على الشاشات أو الإنترنت ناسبين إياها للمسلمين بغير دليل، أو يتجاهلون لحظة اعتداء الظالم على المسلم، ثم يصورون لحظة رد المسلم للاعتداء على أنه هو الظالم، فعرف الناس أن التاريخ الأسود للإرهاب الحقيقي و القتل و الإبادة التي وصلت إلى مئات الملايين، هو ما قام به ملاحدة أو لادينيون أو شيوعيون لا يؤمنون بإله ولا دين، أو قام به تطوريون رأوا الإنسان الأسود في أفريقيا أو السكان الأصليين في استراليا أو الأمريكتين، هم أقل شأناً مِن الحيوانات فاستباحوهم.

و لذلك كله:

فلم يملك مكتب التحقيقات الفيدرالية بنفسه FBI في إحصائياته الرسمية عن الهجمات الإرهابية مِن عام 1980 إلى عام 2005، إلا أن يكشف المُبالغات المجهولة التي تم إلصاقها بالمسلمين و الإرهاب، حيث أن 94% مِن تلك الهجمات لم يقم بها مسلمون. (18) و الأعجب أن العديد مِن المواقع قد تناقلت خبر الدراسة الأوروبية الأخيرة أيضًا، و التي تؤكد على أن كل الإرهابيين هم مِن المسلمين ما عدا 99.6 % منهم!

Europol report: All terrorists are Muslims…Except the 99.6% that aren't (19)

فضلًا عن أننا في الإسلام لا ندعي العصمة لأحد مثلما تفعل باقي الأديان الأخرى ثم ينصدمون بعد ذلك، فلا عصمة عندنا لمِلك ولا أمير ولا عالم ولا آحاد المسلمين، فلماذا إذًا يصفون الإسلام ككل بالإرهاب إذا صدر مِن بعض أفراده نادرًا ما يشين، ولا يوصف بمثل ذلك غيره مِن الأديان أو المعتقدات؟!

4- و أما حال المرأة المسلمة، فيكفي في بيان كذب الوسائل البصرية في تصوير اضطهادها و كونها مِن (الحريم) اللاتي يستبقيهن الرجال محجوبات داخل البيوت للمتعة الجنسية فقط، ما أوضحته سلسلة محاضرات معهد (أورياس) ORIAS التدريبي الصيفي المتخصص للمدرسين مِن الحضانة إلى الصف الثاني عشر (25 : 29 يوليو 2011) بعنوان:

"أصوات غائبة، خبرات الحياة العامة في تاريخ العالم، مقارنة "الحريم" النساء، الجنس، و البناء الأسري، مِن الشرق الأوسط إلى جنوب و جنوب شرق آسيا " للدكتورة ليزلي آن وودهاوس (20)

و لذلك نجد أن نسبة الداخلين و المتحولين إلى الإسلام اليوم أكثرها مِن النساء، مِن جميع البلدان التي تعاني مِن ويلات الحياة بلا دين في امتهان المرأة هناك كجسدٍ بلا روح، و كمتعةٍ و تسليةٍ و إغراءٍ و إجهاض و اغتصابٍ و تعدي، و بلا حياةٍ ولا أسرةٍ مستقرة تناسب عاطفتها الرقيقة إلا مَن رحم اللّه، و لكم أن تتخيلوا أعداد النساء الغفيرة التي تمثلها تلك النسبة الداخلة مِنهن في الإسلام إذا علمنا أنه أسرع الأديان و المعتقدات انتشارًا اليوم بلا مُنازع، و بحسب كل الإحصائيات العالمية، بل و سيتربع المكانة الأولى عما قريب في 2030، بحسب إحصائيات مؤسسة (بيو) Pew العالمية. (21)

و أما الأوضاع المُزرية الحقيقية للمرأة (غير المسلمة) في كنف العلمانية و الإلحاد:
فتطالعنا بها أحدث الإحصائيات العالمية عن أوروبا -رمز المدنية و التحرر النسوي- مِن (وكالة الاتحاد الأوروبي للحقوق الأساسية) European Union Agency for Fundamental Rights (FRA)، و التي ساقت عنوانها المُعبر عن حالهن المأساوي باسم: العنف ضد المرأة في كل يوم و في كل مكان!

Violence against Women: every day and everywhere. (22)

سادسًا: تمثيل الإله بصورة غير مباشرة لخلع الرؤى الإلحادية عليه.

و هي طريقة قديمة لوضع الإله في صورة (المُساءلة) و (المُحاكمة)، أو إيجاد (أريحية) في إجراء حوار معه، و لكن بعيدًا عن الطريقة المباشرة أو الفجة -إذا صح التعبير-، و كما رأينا في ابتذالات السينما في النقطة السابقة، و لذلك.. فقد تتخذ أكثر مِن صورة على حسب ما يقرره الكاتب للالتفاف على هذا الطلب، مع اعترافنا بأن كل تلك الحوارات المُصطنعة إنما تنبئ عن جهل كبير بالإله و الدين الحق، و الناتج بصورة أساسية عن الأديان المُحرفة في مقابل العبثية و العدمية التي حامت حولها كرد فعل عليها، و ذلك لأن الذي يعرف اللّه تعالى حق المعرفة –كما في الإسلام- و يلمس كمال حكمته سبحانه فيما فهمناه مِن الأشياء مِن حولنا، سيعرف أنه مِن قلة العقل ساعتها سؤاله عمّا يفعل أو عمّا خفيت عنا حكمته، و لذلك يقول عز و جل: " لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ" الأنبياء 23.

1- فمِن تلك الصور مثلًا ما اتخذ الحوار مع مَلك الموت بديلًا غير مباشرًا عن اللّه تعالى، حيث يحاوره تارة كمَلكٍ مأمور، و تارات أخرى يحاوره في أصل أوامره (والتي لا يملكها إلا اللّه)، و هذه المسألة قديمة مِن قدم التأليف و المسرح، و لكن مِن أشهر الأفلام السينمائية التي مثلتها كان الفيلم السويدي (الختم السابع Det sjunde inseglet) أو The Seventh Seal 1957، و فيه حوار فلسفي فانتازي متشكك بين بطل الفيلم و بين الموت، الذي جاء ليقبض روحه فيتحداه قبلها في لعب (الشطرنج)..



و الفيلم -كعادة المتشككين- مليء بالأسئلة التي تعبر عن التيه و التخبط في العقيدة النصرانية، و عدم وضوح حقيقة الحياة الدنيا فيها، إذ في النصرانية ترتكز كل الحياة على عقيدة الصلب و الفداء، و توارث الخطيئة الأمر الذي لا نجده مطلقا في الإسلام.

2- و في صورة أخرى -و قد تعمدت تأخيرها عن السابقة لأنها مصدر ما سيأتي مِن صور أخرى- فهي إسقاط صورة الإله في قصص محبوكة لإظهار أوجه الاعتراض عليه أو إظهار (نقائص) ذلك الإله مِن وجهة نظر المؤلف و العياذ باللّه.
حيث بين أيدينا فيلم مِن النوع الفانتازي الخفيف -ليُقبل عليه الصغار و الكبار معًا- رغم أنه مِن إنتاج عام 1939، و هو أشهر النسخ الناجحة مِن الفيلم، و التي كان أولها 1925، وآخرها 2013، و هو فيلم (ساحر أوز) the wizard of oz، و هو الساحر الذي تتوجه إليه الفتاة (دوروثي) مع كلبها (الذي لا يملك عقلًا مثل الإنسان)، و رجل الصفيح (الذي لا يملك قلبًا)، و الفزاعة أو رجل القش أو خيال المآتة (الباحث عن عقل)، و الأسد الجبان (الباحث عن شجاعة)، ليُفاجأوا في النهاية بأن ساحر أوز لم يكن إلا رجل عادي مِن خلف الستار، و أنهم متى ما أدركوا هذه الحقيقة، فقد نالوا المعرفة التي ستهبهم كل ما يريدون مِن غير عونٍ منه.

3- و على نفس الوتر لعب فيلم (استعراض ترومان) Truman Show 1998، الذي أشرنا إليه مِن قبل، و فيه يتم تصوير لحظات الإنسان (ترومان) في أكبر ستوديو على الأرض منذ طفولته، و هو لا يعرف، و هي مِن أخبث طرق بث التوهم في عقل المُشاهد حتى ليشك في نفسه و ما حوله، و لكنه مع الوقت يبدأ في اكتشاف التمثيل الزائف الذي يحيط به حتى مِن أقرب الناس إليه، و الذين يتعمدون جميعًا حصره داخل حدود هذا الاستوديو المصنوع، و عدم تخطيه برًا أو بحرًا أو جوًا، لأنه متى ما عرف و اكتسب العلم في ذلك، هدم برنامجه الناجح الذي يشاهده الملايين و يستمتعون به طيلة سنوات عمره و هو لا يدري، أي عبث هذا؟! و الفيلم يعد مِن أكبر الإسقاطات على نصوص سفر التكوين في العقيدة اليهودية و النصرانية، حيث كما ذكروا فيها (كذبًا) على اللّه أنه يندم و يُخطيء و يجهل، فقد زاد الفيلم على نفس الوتيرة أنه يكذب كذلك على

الإنسان، و لكم أن تتركوا العنان لخيالكم بماذا يترسخ في عقل المُشاهد مِن جراء مثل هذه التخريفات و الافتراءات الفجة على الله عز و جل، و تأثير ذلك على حياة ضحايا مثل هذه الأفلام، في النهاية -و كما في ساحر أوز- يستطيع (ترومان) الوصول إلى ما خلف الستار رغمًا عن المُخرج!

4- و قريبًا مِن ذلك كله ما وقع أيضًا مِن مقابلة في الجزء الثاني مِن فيلم (المصفوفة) The Matrix Reloaded 2003، عندما يستطيع الشاب (نيو) الحصول على شيفرة المفتاح التي توصله إلى صانع الماتريكس (أو الذي تولى بناءها)، و هو المعروف بـ (المعماري) Architect، و الذي يبدأ أخيرًا في إعطائه معلومات عن الماتريكس، لتبدأ معه رحلة جديدة مِن حشو عقول المُشاهدين بالسموم الفكرية (التوهمية)، و التي قد تؤثر على عدد غير قليل منهم للأسف، و كما قابلناه بالفعل على أرض الواقع مِن شبابٍ بشبهاتٍ لا تعرف أمامها هل تضحك أم تحزن عند سماعك لها.

سابعًا: استغلال أكاذيب التطور كبوابة للإلحاد!

و لن نطيل في تلك النقطة كذلك –لاسيما تفاصيلها العلمية التي تتولى المجلة دحضها بالأدلة الدامغة و المُحايدة-، و لكن يهمنا فقط استعراض كيف يتم في الأعمال الفنية و السينمائية تمرير أفكار تقبل التطور –و الذي هو بوابة الإلحاد الكبرى لاستبدال الخالق بالصدفة و العشوائية، و دفع الإنسان للاعتقاد في انحطاط قدره كحفيد لأشباه القرود–، و ذلك ليكون شبابنا منها على حذر، سواء الذي وقع فيها أو الذي سيتعرض لمثلها مع الميديا الحديثة، و التي يمكن تلخيص أساليب تمريرها في التالي:

1- تعمد التعامل مع التطور و كأنه (حقيقة واقعة) بالأدلة الحفرية! و منها حفريات سلف الإنسان الأشبه بالقرود، و تصوير المعترضين عليه أنهم يعترضون لمجرد الاعتراض فقط لأنه يهدم عقائدهم الدينية في خلق الله تعالى للإنسان بيده، و على هذا المنوال تسير الكثير مِن الرسومات و الكاريكاتيرات و الأفلام و المسلسلات، و التي أتت ثمارها بالفعل مع قوة الوسائل البصرية التي رسخت هذه الأفكار في عقول الكثيرين مع الأسف في الخارج و الداخل و لسنوات، كل ذلك رغم أنه لا توجد إشارة واحدة في تلك الأعمال إلى الكمّ الهائل مِن الأكاذيب التي ما ارتفع التطور إلا على أكتافها، و التي ما انتشر و انفتن به بعض رجال الدين و الدعاة أنفسهم ليستميتوا بعد ذلك في التوفيق بينه و بين نصوص كتبهم، إلا عندما صدقوا التطوريين اللادينيين و الملاحدة و الذين لا مانع مادي عندهم مِن الكذب.

2- و سأعطيكم هنا بعض الأمثلة فقط، و التي ظلت محفورة في خيال الكثيرين –و إلى اليوم–، رغم انكشاف خداعها و تزويرها و غشها منذ عشرات السنين، و هو الذي لا ينشرونه و لا يعرفه بالتالي إلا المُطلعون فقط على مجال التطور علميًا.

أ- و ذلك مثل أكذوبة رسومات (إرنست هيجل) عن الأجنة Ernst Haeckel embryo drawings، و التي تعمد فيها مِن منتصف القرن التاسع عشر رسم تشابهٍ كبيرٍ بين أجنة الفقاريات في مراحلها المبكرة، ثم اعترف بنفسه بتزويره فيما بعد في 14/ 12/ 1908م، حيث ترون في الصورة التالية رسومات (هيجل) 1847م في الأعلى، و أما أسفل منها فهي الصور الحقيقية لأجنة الحيوانات المرسومة، و كما وضحها للدكتور (مايكل ريتشاردسون) 1997م.





و رغم أن اعتراف (هيجل) كان بتاريخ 1908م، إلا أنه –إلى اليوم– لا زال هذا المفهوم سائدًا في أغلب المدارس، بل و حتى في بعض أشهر كتب تشريح الأجنة التي يدرسها طلبة كليات الطب، و قد نقل (فرانسيس هيتشينج) نص اعتراف (هيجل) كاملًا في كتابه (عنق الزرافة – حيث أخطأ داروين)(23)، و الذي أكد فيه (هيجل) كذلك أنه ليس وحده الذي التزم الغش لصالح التطور بين أقرانه.

ب- فضيحة (إنسان جاوا) Java Man scandal، و التي تم غشها عام 1981، بالتوليف بين عظام جمجمة قرد كبير و عظام فخذ إنسان، ثم اعترف صاحبها بذلك الغش بعد 30 عامًا.

ت- و كذلك فضيحة (إنسان بلتادون) Piltdown man scandal، و التي استمرت لمدة 40 عامًا (مِن 1912 إلى 1953)، حيث تم بناء خرافة كاملة عن إنسان أشبه بالقرود بتركيب جمجمة مغشوشة لإنسان معاصر تم معاملتها كيكيائيًا بمحلول ديكرومايت البوتاسيوم للتمويه + فك قرد أورانجتون + أسنان!

ث- بل ولا تحتاج الأكاذيب و الخرافات في التطور لأكثر مِن عظمة ضرس واحدة، و ذلك مثلما وقع مع فضيحة (إنسان نبراسكا) Nebraska Man scandal عام 1922م، و التي بنى التطوريون مِن عظمة الضرس هذه كامل تخيلاتهم و افتراضاتهم لشكل صاحبه، فرسموه سلفًا للإنسان أشبه بالقرود، بل و صوروا له صورًا و رسومات لزوجته و أبنائه و أهله و عشيرته (وسائل بصرية تذكروا)، ثم ظهر في النهاية أن الضرس كان لـ (خنزير أمريكي بري) wild American pig! فكيف نلوم بعد ذلك الغيض مِن فيض، نجاح مثل هذه الأساليب الخبيثة في تمرير التطور -بوابة الإلحاد الكبرى– إلى الكثير مِن الناس و البسطاء و العوام طوال عشرات السنين؟!

ج- و لعله واحد مِن أشهر الأفلام السينمائية التي تعرضت لتعميق هذا العلم المُزيف كان فيلم (ميراث الريح) Inherit the wind بنسختيه عام 1966 – 1999، و هو الذي عرض بصورة سينمائية المُناظرة المُطولة للقضية الأمريكية الشهيرة التي وقعت عام 1925، للمدرس (جون سكوبس) Scopes، و التي اشتهرت باسم (محاكمة القرد/ سكوبس) Monkey Trial، و هي التي جرت في ولاية تينيسي، و تم اتهام المدرس فيها بأنه يُدرس

(التطور) للطلاب حيث كان ذلك ممنوعًا في أي مدرسة ممولة في الولاية، و لمَن أراد أن يقف على أقوى المُغالطات الطاعنة في الدين (مقابل التطور) في الفيلم فعليه أن يراجع حديثي السابق عن (الممكن العقلي) و (المستحيل العقلي) و (الممكن الفيزيائي) و (المستحيل الفيزيائي)، ثم ليقارنه بتدبر مع الفقرة التالية على لسان المحامي (هنري دراموند) الموكل للدفاع عن المُدرس و التطور، و التي أراد فيها أن يقارن التطور و تماشيه مع العقل في مقابل خرافات معجزات الأنبياء!

Henry Drummond: Yes. The individual human mind. In a child's power to master the multiplication table, there is more sanctity than in all your shouted "amens" and "holy holies" and "hosannas." An idea is a greater monument than a cathedral. And the advance of man's knowledge is a greater miracle than all the sticks turned to snakes or the parting of the waters .

ناهيكم بالطبع عن تعمد إظهار المُعارضين للتطور مِن لجنة المُحلفين و الحاضرين في القاعة في صورة المتعصبين الرجعيين لعمل صدود نفسي و عاطفي لدى المُشاهد.

ح- ولا يسعنا أن نغفل هنا دور سلسلة الأفلام الشهيرة (كوكب القرود) Planet of the Apes 1968م، و التي يعثر فيها رواد فضاء على كوكب يجدون أن الجنس الغالب فيه و المُتحكم هم القرود، و أن الجنس المحكوم هو جنس مُتخلف مِن البشر، و قد تلا هذا الفيلم أربعة أجزاء في أعوام 1970- 71- 72- 73، ثم تم إعادة إنتاجه بالتقنيات الحديثة و الجرافيك المُبهر عام 2001، ثم مرة أخرى في 2011، حيث تم إعادة توليد القصة مِن البداية، حيث تطور أحد القرود فجأة و بغير الحاجة لملايين السنين، ليمتلك عقلًا مثل الإنسان ثم يبدأ في توعية باقي القرود لكي يتطوروا مثله! ثم يليه الجزء الثاني الذي سيتم عرضه هذا العام 2014، عن تسيد هذا الجنس بالفعل، و كلها خرافات -كما تيقنا الآن- قامت على مجموعة ضخمة مِن الأكاذيب التطورية، و بخاصةً عن الإنسان و القرد، حيث يعتمدون على إبهار اللقطات و الخدع و تشويق القصة في سد و تمرير ثغرات ولا معقوليات التطور.

خ- و كذلك مجموعة مِن الأفلام –خصوصًا في الفترة الأخيرة–، و التي بدأت تلميع و إعادة الشعبية (عاطفيًا على الأقل) لشخص (تشارلز داروين)، و بعدما تراجعت شعبيته كثيرًا (علميًا) في العقود الأخيرة، مع تزايد معلوماتية تعقيد الخلية الحية و حمضها النووي الوراثي، الذي لم يكن يعرف عنه (داروين) أي شيء، و ذلك مثل السلسلة التليفزيونية (عبقرية تشارلز داروين)The Genius of Charles Darwin مِن 2008، و التي رغم كل الجهالات العلمية التي اعتمد عليها (داروين) في نظريته و كتابه (أصل الأنواع)، مثل إمكانية وقوع تطور عن طريق تأثر الكائن ببيئته ثم توريثه لصفاته المكتسبة لأبنائه، أو عن طريق تأثير الاستخدام و عدم الاستخدام، أو عن طريق التهجين أو الطفرات في إظهار عضو جديد تمامًا لم يكن في الكائن الأول فضلًا عن ظهور كائن كامل جديد، و كلها خرافات أثبت العلم الحديث خطأها. إلا أن التطوري الملحد (ريتشارد دوكينز) حاول أن يُظهر داروين –أمام ملايين العوام و غير المختصين- في صورة الذي سبق عصره

بعشرات السنين، عن طريق ملاحظاته الدقيقة التي سجلها في رحلاته و زيارته لجزيرة جلاباجوس Galapagos!

و بالطبع لم يتم الإشارة ولا التركيز على البلايا التي وقعت للبشر مِن جراء نظرية داروين عن التطور، أو علو بعض الأجناس البشرية على بعض -كما وضحه في كتابه الثاني أصل الإنسان-، حيث فتح الباب على مصراعيه لأكبر و أخس و أقذر عمليات قتل و إبادة في التاريخ باسم التطور و علو الجنس الأبيض الأوروبي على باقي أجناس الأرض، الذين هم أقرب للقرود و الغوريلا و الشيمبانزي.

فلا عجب بعد ذلك أن يتهرب (ريتشارد دوكينز) مِن جديد مِن أي سؤال إليه يتعلق بتطبيق نظرية التطور بالفعل على الناس اليوم، حيث يقول:

"أنا ضد الداروينية ولا أطيقها حين يتعلق الأمر بحياتنا" (24)



أيضًا هناك فيلم (خلق) Creation 2009، و فيه يتم محاولة إنقاذ فشل نظرية التطور (علميًا) بإبراز الوجه (العاطفي) لها –وللإلحاد عمومًا–، ألا و هو شعور (داروين) بعبثية الحياة و قسوتها، التي سلبته ابنته الصغيرة بالموت، و حزنه الكبير عليها، و الذي كان بمثابة إعادة تفكيره في الحياة مِن جديد برؤية خالية هذه المرة مِن الرحمة، أي لا مكان فيها لإله الأديان الرحيم!

و مجرد تناول التطور مِن هذه الوجهة لتثبيته و تمريره في عقول المُشاهدين (عاطفيًا) لهو أكبر دليل على عدم اعتماده (علميًا) على شيء حقيقي غير الكذب و الخداع كما قلنا، أو التلاعب بمفاهيم التكيف و سوقها، و كأنها دليل على التطور، أو اللعب على أوتار إله الفجوات المعرفية الإلحادي أو التطوري، و ذلك مثلما وضع التطوريون قائمة طويلة منذ أكثر مِن 100 عام لكل ما لم يعرفوا وظيفته في جسد الإنسان أيامها فاعتبروه بقايا تطور سابقة بلا وظيفة، ثم تكفل العلم و مكتشفاته المتوالية بعد ذلك و إلى اليوم بنسفها جميعًا، و تبيان وظائف كل عضو خلقه الله بلا عبث –بما في ذلك الزائدة الدودية و الجانك جين–، و حتى لم يعد لهم شيء يتعلقون به، لذلك نرى هذا التركيز (غير العلمي) لتمرير التطور (عاطفيًا)، ولو عن طريق الأطفال.

د- حيث نرى مثلًا مسلسل الكارتون الشهير (عائلة فلينستون) The Flintstones مِن 1960م إلى 1966م، و الذي تدور أحداثه الطويلة في إطار كوميدي عن عائلة (فلينستون) في العصر الحجري، و ما يهمنا هنا هو أن تكرار مثل هذه الحلقات المُسلسلة لمدى سنوات على الصغار و الكبار هو غرس عميق و غير مباشر لتقبل مفهوم وجود مثل هذا الإنسان الحجري المتخلف بالفعل، رغم أن الله تعالى قد خلق الإنسان (آدم عليه السلام) في

أحسن تقويم منذ أول مرة، و علمه بيان كل شيء مِن حوله "خلق الإنسان * علمه البيان" الرحمن 3 – 4.

و قد تم محاكاة نفس الفكرة مؤخرًا في فيلم كارتون جرافيك سينمائي عالي التقنية، و هو فيلم (عائلة كروود) The Croods 2013، و فيه شخصية الإنسان المتطور بعقله قليلًا، و هو يؤثر على أسرة مِن الأدنى منه عقلًا، و حتى يخطو بهم أولى خطوات التقدم الإنساني و الانفتاح على العالم، يُذكرني ذلك بخرافة ادعاء أن جنس (النياندرتال) Neanderthal في أوروبا و أسيا كانوا أشباه بشر، ثم اتضح مؤخرًا و بعد أكثر مِن 100 عام أنهم كانوا يعرفون الدين و يدفنون موتاهم في مراسم، و يخيطون أثوابهم، و يعزفون على آلات موسيقية بسيطة!

و كذلك فيلم كارتون سينمائي آخر، و هو فيلم (غائم مع فرصة لسقوط أمطار لحم!) Cloudy with a Chance of Meatballs، و ذلك بجزئيه 2009 – 2013، و الذي يُصور فيه للأطفال –بكل استخفاف ولا معقولية– إمكانية أن تنقلب الأشياء غير الحية (كالطعام و النباتات) إلى كائنات حية، بل و تتطور و تتوالد أيضًا، كما في جزئه الثاني.

التوصيات:

1- قد جاءت شريعة الإسلام -قرآنًا و سنة- لتقر ضرورة الترويح عن النفس في الحياة، و لكنها لم تجعل هذا الترويح بالمُحرمات، و مِن هنا فالإقبال على مشاهدة أي شيء يكون بمقدار إباحته، و لمشاهدة مباراة كرة قدم أفضل مِن مشاهدة ما يجرح النفس بالشهوات أو الشبهات.
2- ضرورة الارتقاء بالحس النقدي لدى عامة المسلمين و مراهقينا و شبابنا، أنهم إذا رأوا شيئًا لا يكونوا أوعية بلا حُراس، بل يكون كل منهم حارسٌ على باب عينه و سمعه و قلبه و عقله، و ينظر لما وراء الكلام و المشاهد مِن مغزى و إيحاء.
3- التعريف الدائم للمجتمع بأشهر المغالطات المنطقية التي يستخدمها الملحدون لتمرير إلحادهم أو تشكيكاتهم، و ذلك عن طريق المنتديات في الإنترنت، و مواقع التواصل الاجتماعي، و مقاطع الفيديو القصيرة و الهادفة، و المجلات و غيرها.

(1) جاء في الموسوعة البريطانية عام 2010، أن المُلحدين يُمثلون 2 % مِن العالم:
Encyclopædia Britannica Online. Encyclopædia Britannica Inc. Retrieved 2013-11-21.
و في دراسة استقصائية عن الدين النصراني، و معه باقي المعتقدات الأخرى أجراها مركز the Center for the Study of Global Christianity العالمي، أظهرت أن الإلحاد كانت نسبته 4.7 % عام 1970، ثم تناقص إلى 2 % في 2010، ثم مِن المتوقع أن يصل إلى 1.8 % في 2020، رابط الدراسة:

http://wwwgordonconwell.com/netcommunity/CSGCResources/ChristianityinitsGlobalContext.pdf

رابط للخبر من الـ cnsnews:

http://www.cnsnews.com/news/article/global-study-atheists-decline-only-18-world-population-2020

(2) http://www.ncbi.nlm.nih.gov/pubmed/22059841

(3) http://www.scientificamerican.com/article/in-atheists-we-distrust/

(4) http://www.washingtonpost.com/opinions/why-do-americans-still-dislike-atheists/2011/02/18/AFqgnwGF_story_1.html

(5) http://newsjunkiepost.com/2009/09/19/research-finds-that-atheists-are-most-hated-and-distrusted-minority/

(6) راجع النسب المئوية في المصدر السابق.

(7) سوري أمريكي الجنسية، توفي و ابنته رحمه الله 2005، في حادث انفجار عبوة ناسفة في أحد فنادق الأردن عن عمرٍ تخطى الـ 70 عامًا، و كان يُخطط لعمل فيلمين عالميين آخرين أحدهما عن (فتح الأندلس)، و الآخر عن (صلاح الدين الأيوبي).

(8) "Columbine High School Massacre: Aftershock and the Search for Reasons". Retrieved 2008-11-23

(9) للاطلاع على قصته بالإنجليزية من موقع Whyislam:

http://www.whyislam.org/spiritual-journeys/article-on-why-islam/

أو مُشاهدتها و هو يحكيها بنفسه مترجمة مِن اليوتيوب Youtube:

http://www.youtube.com/watch?v=BeveWIXa7mM

(10) و مِن هؤلاء الذين يُنكرون وجود محل معين للذاكرة في الدماغ: (كارل لاشلي) Karl Lashley متخصص علم النفس و السلوك، و الذي توفي 1985 عن عمر 68 عامًا، و له تجاربه الشهيرة في فصل أجزاء مِن مخ الفئران، و تسجيله لعدم تأثر ذاكرتها فيما لقنها إياه، و بروفيسور علم النفس و الطب النفسي الدكتور (كارل بريبرام) Karl Pribram ، و هو لا زال حيًا إلى اليوم عن عمر 95 عامًا، و دكتور أبحاث المخ (روبرت لورنس كون) Robert Lawrence Kuhn، و لازال حيًا إلى اليوم عن عمر 63 عاما، و عالم الفيزياء الشهير (ليونارد ملدينوف) Leonard Mlodinow، و لايزال حيًا إلى اليوم عن عمر 53 عاما.

(11) لمشاهدة المقطع مُترجمًا مِن الفيلم على رابط اليوتيوب التالي:

http://www.youtube.com/watch?v=UBd126ci3GA

(12) Head 2006، p. 70

(13) إلى اليوم و بعد عشرات السنين مِن مسح فضاء الكون للبحث عن أي موجات أو رسائل أو علامات على حياة عاقلة فيه تفشل عمليات (SETI) Search for Extra-Terrestrial Intelligence، المُختصة بذلك في العثور على أية كائنات أخرى للتواصل! و ذلك في صورة متناقضة بين تجاهل العلماء الملاحدة للنظام المُتقن، الذي تحت أيديهم في الخلية الحية الدالة على الخالق، و بين بحثهم عن أي علامات نظام في بث موجي في الكون، و مثل هذا التناقض يُظهره لنا الموضوع التالي باسم SETI -- Not able to recognize intelligent life على رابط موقع americanclarion:

http://www.americanclarion.com/seti-and-scientists-who-cant-recognize-intelligent-life-19546

(14) http://www.fbi.gov/wanted/topten/usama-bin-laden

(15) و كان الخبر بعنوان: Washington slaughter،Bin Laden denies role in New York :

http://asia.cnn.com/2001/US/09/16/gen.america.under.attack/

(16) و المقال بعنوان: Osama bin Laden Says the Al-Qa'idah Group had Nothing to Do with the 11 September Attacks الرابط:

http://www.serendipity.li/wot/obl_int.htm

(17) https://www.youtube.com/watch?v=kxmUFG9wOOQ#t=25

(18) http://www.fbi.gov/stats-services/publications/terrorism-2002-2005

و إليكم تعليق موقع globalresearch الشهير على الإحصائيات تحت عنوان:

Non-Muslims Carried Out More than 90% of All Terrorist Attacks in America

http://www.globalresearch.ca/non-muslims-carried-out-more-than-90-of-all-terrorist-attacks-in-america/5333619

(19) http://www.loonwatch.com/2010/01/terrorism-in-europe/

(20) ORIAS Summer Institute for K-12 teachers - Absent Voices: Experience of common life in world history

http://orias.berkeley.edu/summer2011/Summer2011Home.htm

(21) تحت عنوان: The Future of the Global Muslim Population الرابط:

http://www.pewforum.org/2011/01/27/the-future-of-the-global-muslim-population/

(22) http://fra.europa.eu/en/press-release/2014/violence-against-women-every-day-and-everywhere

(23) و يمكن قراءة أبرز الإحصائيات باللغة العربية مِن خبر جريدة الدستور الأردنية بعنوان: امتهان النساء في أكثر الدول «تقدمية»، الجمعة 7 مارس 2014.

(24) Francis Hitching، The Neck of the Giraffe: Where Darwin Went Wrong، New York: Ticknor and Fields 1982، p. 204

(25) في اللقاء الذي أجرته قناة الجزيرة الإنجليزية مع ريتشارد داوكينز دقيقة 42.

- يقول تشارلز داروين في أصل الأنواع:

«إذا كان من الممكن إثبات وجود أي عضو معقد لا يُرجَّح أنه قد تشكل عن طريق العديد من التعديلات المتعاقبة والطفيفة، فسوف تنهار نظريتي تماما» [1]

يعتبر بعض المتحمسين لداروين مقولته السابقة دعوة للتحدي، في حين يرجعها المتابعون إلى الشك و عدم الثقة المتأصلان في نظريته التي تناقش أصل الأنواع.

أيًا كان المقصد، فأطروحتنا التي بين أيديكم اليوم هي استجابة لدعوة داروين أو تأكيدًا لشكه و التبعات التي وضعها هو.

- ما هي الحياة و كيف يدحض تعقيدها الداروينية ؟
- ما هي تلك النظم الحيوية غير القابلة للاختزال، و كيف تمعن في تحدي الداروينية؟
- كيف تعاطى أنصار التطور مع تلك المعضلة، وهل استطاع كينيث ميلر تخطيها و تفنيدها كما ادعى خلال شهادته في محاكمة التصميم الذكي الشهيرة «دوفر»؟!
- هل تكسب تلك النظم مضاربة داروين و تحقق توقعه بانهيار نظريته أم تؤكد أنها مازالت عقيدة مادية راسخة؟

هنا نحاول الإجابة على هذه الأسئلة فتابعوا:

"الداروينية.. إعادة المحاكمة"

الداروينية

إعـادة المحاكمة

أحمد يحيى



ما هي الحياة؟

الفرق بين (الحي و الميت)، (الحياة و الجماد) هكذا ظل منتهى علمنا بالحياة حبيسا داخل حدود هذا التوصيف، فالحياة هي اللغز الأعظم الذي حير الفلاسفة و أعجز البيولوجيون و أعيا أجيالا متعاقبة من الباحثين.

فـ«الروح» هي الكينونة المبهمة بداخل كل مخلوق حي تميزه عن الجماد و تفارق بدنه عند الموت، سألت عنها اليهود رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأجاب إجابة واضحة مباشرة بما أوحى به اليه ربنا سبحانه وتعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً} [الإسراء: ٨٥].

كان هناك دائما و منذ بدأت الثورة العلمية نزاع تدور رحاه في أوساط المعرفة البيولوجية حول توصيف الحياة و مصدريتها كتصميم، انقسمت فيه الآراء إلى معسكرين: أحدهما يعلن أن الكائنات الحية ليست مختلفة إطلاقا عن المادة غير الحية، و كانوا يدعون أنفسهم أحيانا بالآليين Mechanists أو الفيزيقيين Physicalists و على الجانب المضاد؛ يقف معسكر يدعى أصحابه الحياتيين Vitalists و كانوا ينادون برأي مفاده أن للكائنات

الحية خصائص لا يمكن وجودها في المادة الخاملة و أن المفاهيم البيولوجية لا يمكن أن تكون خاضعة لقوانين الفيزياء و الكيمياء.

استمدت الحياتية منهجا راسخا بداية من القرن السابع عشر، و شكلت عقبة قوية في وجه الفلسفة الآلية المادية التي قالت أن الحيوان ما هو إلا آلة، و أن كل مظاهر الحياة هي عبارة مادة في حالة حركة.

و تبنت الحياتية فكرة وجود مادة خاصة وقوة حيوية غير موجودة في الجمادات هي ما تميز الحياة، و كان كثير من أتباع تلك المدرسة من الغائيين Teleolgists الذين يعتقدون أن الحياة وجدت لتحقيق غاية أخروية.

تسبب تشبث الحياتية بوجود تلك القوة الحيوية المبهمة في التعجيل من سقوطها باعتبارها فكرة ميتافيزيقية أكثر منها علمية حتى انزوت تقريبا من المشهد العلمي، مع بدايات القرن العشرين مع صعود الفلسفة المادية و النهج العلماني في تناول البيولوجيا.

ففي أواخر القرن التاسع عشر أتت الداروينية حاملة في كنفها نزعة مادية عاتية، كمخرج من سطوة الفكر الديني الأنجليكاني الذي تسيد المشهد البيولوجي آنذاك، فأنكرت وجود الغاية الكونية، و استبدلتها بقانون الانتخاب الطبيعي لقيادة التنوع الأحيائي من خلال مبدأ الصراع من أجل البقاء، بالإضافة إلى نهج التبسيط و الارتقاء الذي يحاول تخطى معضلة تعقيد الحياة في الوقت الذي كانت فيه دراسة الطبيعة طريقا إلى معرفة اللّه،

و حين كان مشاهير علماء التاريخ الطبيعي يلتمسون التقوى من خلال ذلك، مثل جلبرت وايت الذي ألّف كتابا عن اكتساب المعرفة بالملاحظة عنوانه التاريخ الطبيعي لسلبورن و الباحث الموسوعي و فيلسوف العلم ويليام هيويل الذي ألّف رسائل بريدجووتر التي تناقش حكمة اللّه و قدرته و دوره المباشر فى خلق العالم الطبيعي، و العالم الشهير ويليام بالي الذي كتب التاريخ الطبيعي اللاهوتي و عنوانه الفرعي الأدلة على وجود الذات الإلهية وصفاتها مأخوذة من مظاهر الطبيعة، و منه انتشر تشبيه صانع الساعات الإلهي حين قال:

«عندما نجد ساعة قابعة فوق الأرض نستنتج بداهة أن حرفيا ذكيا قد صنعها، و عندما نجد حيوانات و نباتات صممت تصميما معقدا و تتكيف على نحو رائع، ينبغي بالمثل أن نستنتج أن خالقا قديرا حكيما قد صنعها».

بيد أنه من المفارقات المتعلقة بهذا الشأن أن أحد أهم اسباب سقوط الحياتية هو ما ثبت صحته لاحقا مع سيرورة التقدم العلمي، فبالرغم من فشل الحياتيون في حل لغز تلك المادة المميزة للحياة و التي أطلقوا عليها آنذاك البروتوبلازم، فإن المشتغلون بالبيولوجيا اليوم يعلمون أن الحياتية كانت على حق في احتجاجها بتميز الكائن الحى عن الجماد بميزات مذهلة تم الكشف عنها تباعا مع تقدم العلم، و كان أهمها البرنامج المعلوماتي الجيني (الحمض النووي DNA).

ما هو النظام الحيوي؟

في عام ١٩٣١ أعلن عالم الفسيولوجيا هالدين J. S. Haldane أن علماء الأحياء (البيولوجيين) لم يجدوا بدا من التخلي عن الحياتية، بسبب كونها فكرة ميتافيزيقية في التوصيف المادي، و لكن في الوقت ذاته كان يقول إن أي تحليل آلي بحت لا يمكنه تفسير هذا التناسق المذهل للحياة، وبذلك فإنه رغم انحسار فكرة الحياتية عن قيادة الوجهة البيولوجية، لم تتسيد فكرة الآلية الميكانزمية التسطيحية على المشهد، بقدر ما مهد لظهور مدرسة أخرى تسلمت الراية من سابقتها و نحت وجهتها المادية بإتباع النهج الفيزيوكيمائى لتفسير النظام الحيوي و سميت بالعضوانية، لكن بالرغم أن هذا النهج قد تأهل لتوصيف الكثير من العمليات الحيوية على مستوى الجزيئات، فإنه يفتقد صلاحيته تماما في تفسير علة ذلك التكامل التكويني المذهل للكائن الحى، و كيفية و سبب حدوثه، و كلما ارتفع المستوى الذي يجري فيه الاختبار على طريق تكامل تكوين الكائن الحي، ارتفع معدل الفشل و خابت الآمال المرجوة، فعند النظر في المجاهر، تبين للعلماء أن حياة الكائنات المتنوعة، من بشر و حيوانات و نباتات، هي محصلة لتعاون مئات المليارات من الخلايا المنفردة الدقيقة غير المرئية التي تخصصت في وظائفها تخصصا عاليا لدرجة أن أي منها لم تعد قادرة على الحياة منفردة، و من ثم أصبحت مهمة العلماء هي فهم وظائف الخـــــلايا المنفردة و طريقة تعاونها، لأن المجال المرئي من العالم لم يقدم تفسيرا للحياة. و بدا لهم آنذاك أن من يستطيع أن يعرف لماذا تمكنت هذه الملايين من الخلايا، و التي توالدت جمعيها لدى كل حي من خلية (بويضة) ملقحة، من أن تتطور تطورا غائيا إلى العديد من الانواع المختلفة من الخلايا عالية التخصص الوظيفي، فإنه بذلك قد ملك سر الحياة، بيد أن هذا السر يأبى إلا أن يزداد غموضا فوق غموضه، فلا زالت مسألة التنوع الخلوي بدون حل حتى يومنا هذا، و ما زاد الأمور تعقيدا هو اكتشاف العلماء طبقة أعلى من التعقيد تحت المستوى الخلوي بداخل عمق الخلية ذاتها، و كان هذا المسار خطوة أولى في ما يسمى مجال البيولوجيا الجزيئية، و التي أعطتنا الكثير من التساؤلات و الألغاز المركبة بدلا من أن تمنحنا الإجابات.

و ظل التساؤل: كيف تنجز هذه الخلية مهامها؟ و ما هي العوامل التي تنظم وظائفها المتعددة في كل واحد منسجم؟

وصف العلماء الكائنات الحية كنظم غاية في التعقيد، على مستويات و طبقات متعددة حيث تعتمد الخصائص المميزة لها على تنظيم الكيان أكثر من اعتمادها على تركيب الكائن، فارتباط الكل بأجزائه في عالم الحياة، لا يقتصر علي التكامل الكمي بينهما، بل يشمل أيضا ما ينتج عن ذلك من سيطرة الكل على أجزائه، و فهم الكائنات المتعضية الحية ينبغي أن يتم من منظور كلي كما يخبر S.J. Smuts..

«إن الترابط بين أجزاء أي كائن حي متعض ينطوي على نوع من التفاعل النشط بينها، فهذه الجزيئات في حد ذاتها يمكن اعتبارها كليات صغرى كما هو الحال في الخلايا التي يتآلف منها جسم أي كائن حي»

و يشرح ألكس نوفيكوف Alex Novikoff إن الكل و الجزء كلاهما كيان مادي، و التكامل ينتج مما يتم بين الأجزاء من تفاعل مرتب على خصائصها فالكلية لا تنظر إلي الوحدات الفيزيوكيميائية التي يتكون منها الكائن الحي باعتبارها أجزاء في آلة، يمكن فكها و وصفها من دون اعتبار للجهاز الذي انتُزِعت منه"، و هو ما لخصه بيولوجيون آخرون في عبارة موجزة هي: الكل شيء مختلف عن مجموع أجزائه.

و من ذلك فإن وصف الأجزاء المعزولة لا يمكن أن ينقل صورة عن خصائص الجهاز الحيوي ككل، و لا يمكنه أن يفسر وجوده، فالذي يتحكم في الجهاز كله هو ما يربط بين هذه الأجزاء من نظام يطلق عليه اسم التعضي Organiztion.

و تكامل الأجزاء قائم على كل مستوى من مستويات التكوين: ففي الكائن المتعضي الواحد يتم التكامل في الخلايا، ثم بين تلك الخلايا، فالأنسجة، فالأعضاء، فالأجهزة العضوية التي بتكاملها يكتمل كيان الفرد.

كيف يعمل هذا النظام؟ و ما هو سر وجوده؟

- و هل نجحت الداروينية -حاملةُ راية التفسير المادي- في شرحه، أم أن هناك نظريات أخرى بديلة؟



التعقيد الحيوي في مواجهة الداروينية

عندما رأى داروين التشابه في العضلات و بنية الجسم عبر العديد من الأنواع، لم يكن لديه المعرفة الكافية بهذه التعقيدات الهائلة الكامنة داخل تلك الأجهزة في ذلك الوقت المبكر من تاريخ العلم، لكنه -و بالرغم من ذلك- أدرك حجم الإشكالية التي تواجه فرضيته، ممثلة في بنية الأعضاء الحيوية المعقدة بداخل كيانات الأحياء، و التي أطلق عليها أجهزة مفرطة الإتقان و التعقيد Extreme Perfection and complication.

أمام روعة هذه التصاميم الحيوية يقف داروين عاجزا، و يكتب عن تركيب العين في كتابه أصل الأنواع:

• إن الافتراض بأن العين بكل ما أوتيت من قدرات فذة لتعديل التركيز وفق مسافات متباينة، و السماح بكميات مختلفة من الضوء، و تصحيح الانحراف الكروي و اللوني، قد صاغها الانتقاء الطبيعي، هو على ما يبدو افتراض سخيف غـــــاية السخف، و أنا اعترف بذلك. (٤)

منذ الوهلة الأولى أعلنت الأعضاء الحيوية مفرطة الإتقان عن تحدي على نحو لا لبس فيه، لفـــرضية التطور

المتدرج و المبسط التي تبنتها الداروينية كتفسير مادي طبيعي لحدوث الحياة بمعزل عن التصميم، و التي تفترض أن هذه العضيات الحيوية تمر أثناء رحلة تطورها المزعومة عبر سلسلة من المراحل الوسيطة الطفيفة و المتتالية، يقوم خلالها الانتقاء الطبيعي بصياغة تكيفها تدريجيا، بالحفاظ على تغيرات المرحلة المفيدة و الوظيفية و تدمير ما هو غير صالح أو أقل تكيفا، و هنا تكمن المعضلة المحورية، فهذه الأعضاء لا تستطيع أن تقوم بوظيفتها إلا بوجودها مكتملة، و الكيانات الوسيطة المتتالية التي من المفترض أن يمر بها العضو أثناء رحلة تطوره ليس لها أي معنى وظيفي إلا بوصفها أجزاء من المنتج النهائي، و من ذلك فإن كافة المراحل الوسيطة ليس لها أي ميزة انتقائية، و ينعدم الدور المخول للانتقاء الطبيعي في الحفاظ عليها و تثبيتها، لأنها لا تحمل له أيّة قيمة تكيفية أثناء تطور العضو، بل هي مجرد أعضاء مشوهة ناقصة تمثل عبئ يجب التخلص منه.

فالانتخاب الطبيعي عملية لا غرض لها، عمياء عن رؤية المستقبل، ليس لها أهداف، و معيارا التقييم الوحيدان لها هما: النجاح في البقاء، و النجاح في التكاثر، و هذا ما يجب أن يتوافر في كل خطوة من خطوات التغيير في نشوء العضو الحيوي، و لكن الطبيعة غير الاختزالية للعضيات الحيوية التي لا تقبل التدرج الوظيفي أو الإنقاص تُفْشِل هذه العملية تماما، فهي إما تكون ككل أو أبدا لن تكون.

بالرغم من اعترافه بحجم تلك الإشكالية، فقد تعاطى معها داروين بمنهجية ملتوية، و نقل عبئ الإثبات لجهة المشككين مطالبا إياهم بإثبات خطأ إدعائه الذي يطالب هو بإثباته كأصل لقبول فرضيته، و ذلك لإدراكه الراسخ بأنها جولة خاسرة فقال في كتابه أصل الأنواع:

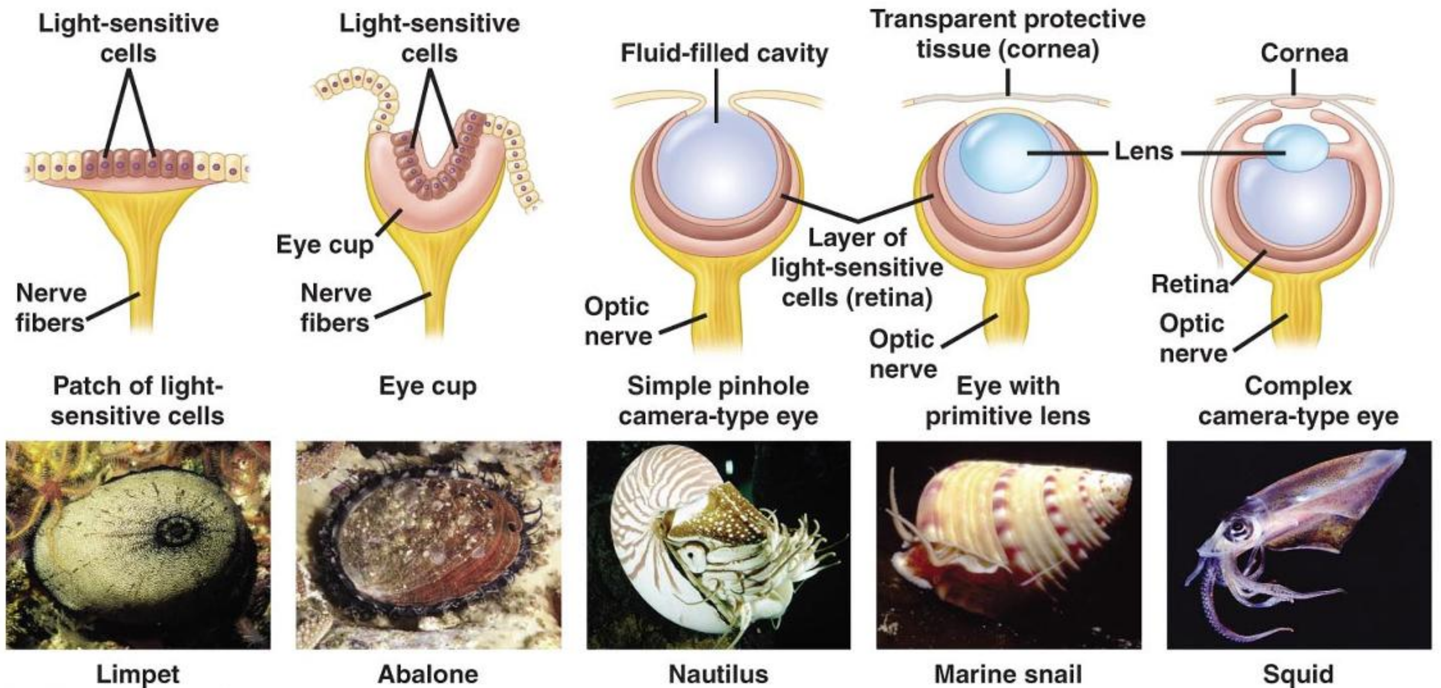
• إذا كان من الممكن إثبات وجود أي عضو معقد لا يُرجَّح أنه قد تشكل عن طريق العديد من التعديلات المتعاقبة و الطفيفة، فسوف تنهار نظريتي تماما. (1)

علينا أن ندرك أن داروين كان حذقا في التعامل مع العقبات التي تعترض فرضيته، و استعمل المواربات الذكية على أمل أن تحل تلك العقبات آجلا، و في المقابل سلم بالانهيار التام لفرضيته إذا لم تتمكن من تخطيها.

مرت عقود عديدة على طرح داروين و هو ما يمثل زمنا طويلا جدا بمقياس مسار العلم الحديث، و يبقى التساؤل البديهي الذي يفرض نفسه حتى الآن، هل نجح تلامذته في تخطي تلك العقبات؟

العقبة الكبرى

رغم التقدم العلمي الهائل في رصد تعقيدات حيوية مذهلة، و التي من المفترض أن تزيد من صعوبات تفسيرها بالارتقاء و التطور عنها في عصر داروين، إلا أننا -و على نقيض ذلك- نلاحظ أن داروين كان أكثر معقولية و اتساقا من أتباعه في مواجهة مشكلات التعقيد، رغم إحاطته المعرفية المحدودة بفداحته، و ترفع عن سلوكهم المتعمد بذلك التدليس الانتقائي بتسطيح التناول حول تطور هذه الأعضاء، و يمكننا القول إنه من السذاجة أن نقبل وفق معرفتنا الحالية بكم هذا التعقيد بأنه من الممكن من خلال محاذاة بسيطة لسلسلة من الكائنات العائشة الأقل تعقيدا إلى الأكثر تعقيدا، أن نستنتج أن نوعا من التطور التدريجي على مدى ملايين السنين سيكون مسؤولا عن تفسير التعقيد الحادث به، و هذا السبيل بعينه هو ما يجادل به أنصار التطور منذ عهد داروين و حتى يومنا هذا، لتفسير وجود تلك النظم الحيوية المعقدة دون تقديم أيّة آلية فعلية لسيرورة هذا التحول المفترض، فعلى سبيل المثال: تعرض لنا الداروينية محاكاة لتطور العين، تشرح كيفية تحول بقعة حساسة للضوء كنظام رؤية بدائي تدريجيا إلى تجويف منخسف شديد التقعر، ثم نصف الكرة مملوءة بمادة شفافة، و بعد ذلك تحولت إلى ما هي عليه الآن في العيون الأكثر تعقيدا، معتمدا في ذلك على صنع اصطفاف لنماذج من العيون المختلفة في الكائنات العائشة اليوم، من البسيط إلى الأكثر تعقيدا.



تكمن الإشكالية هنا في خطأ منهجي متمثل في صحة الاستدلال على التطور، بالاستناد على خصائص بعض العيون الموجودة في الوقت الحاضر، فلا يمكن بأي حال من الأحوال تمثيل العيون التاريخية التي من المفترض أن تمثل الأسلاف من خلال سرد سلسلة من العيون الموجودة حاليا، و التي تمتلكها أنواع حية عصرية، لأن التطور يتطلب أن كل العيون الحالية لديها نفس القدر من التاريخ التطوري، و هن

و هن أبناء عمومة لا يمكن اعتبارهن أسلافا لبعضهن البعض.

إن هذا النهج يتطلب اعتراف الداروينية بأن هذه العيون الحديثة "البسيطة" في أول السلسة التطورية هي نظائر للعيون المفترضة للأجداد و مماثلة لها، و هذا يضعهم في حرج حقيقي لأنه بالتبعية يؤكد أن تلك العيون لم تتطور أو يطرأ عليها أي تغيير منذ أزمان سحيقة، و هو ما يناقض الفرضية التطورية برمتها حول سيرورة التطور الدؤوبة.

داروين نفسه كان يدرك جيدا عدم صلاحية هذا الاصطفاف للاستدلال، و على الرغم من ذلك وقع هو نفسه في ذلك الخطأ، و تفشى في نهج أتباعه.

The crucial importance of this requirement to the theory of evolution was fully understood by Darwin, who stated that, in searching for the gradations through which an organ in any species has been perfected, we ought to look at its lineal progenitors. Indeed we ought; though he himself could not do so. It is deceptive to the reader to create a seriation beginning with eye spots as seen in unicellular organisms and call them, as does Duke-Elder (1958), the earliest stage of evolution. (5)

حين نحاول التعاطي مع حجة التطور السابقة حول اصطفاف (تطور العين كمثال)، فإننا و بمجرد الخوض في أولى خطوات اختبارها، نصطدم مباشرة بالكثير من التناقضات، و نرصد خرقا جسيما لما تضعه الداروينية لنفسها من آليات و إلزامات و قواعد داخل إطار الاستدلال العام على التطور (و هذا ليس مستغربا)، و لكن على الرغم من ذلك لا تيأس من البحث عن مبررات لتخطيها، و تقع أغلبها تحت إطار الحجج الدائرية، أو المسكنات الموضعية للإشكالية، أو ما يمكن تسميته بمبررات الاستهلاك المحلي، فحين ننظر في محاذاة عيون الأنواع العائشة من البسيط إلى الأكثر تعقيدا لتبرير تطور العين نجد أنها تناقض شجرة التطور (الفيلوجينية) التي تم رسمها.

على سبيل المثال: تخبر الداروينية أن أسلاف الرخويات قد انشقت عن الفقاريات خلال عصور سحيقة من تاريخ الحياة، في عصر ما قبل الكمبري Precambrian، مما يجعل البشر أكثر ارتباطا بنجم البحر، و ديدان الأرض عن ارتباطهم بالأخطبوط (من الرأسقدميات) و بناء على ذلك فمن المفترض أن نرى العيون البسيطة البدائية في السلسلة متواجدة بالأخطبوط، لكن من الحقائق المثيرة للدهشة أن الأخطبوطات بالرغم من انحدارها في أسفل سلسلة التطور، إلا أنها تمتلك ذلك النوع من نظام الرؤية شديد التعقيد، و المعروف بعيون الكاميرا الذي يميزنا نحن البشر، و العجيب هنا أن التشابه بين عيون الإنسان و الأخطبوط، رغم المسافة التطورية الشاسعة بين كلا النوعين يبدو متطابق في التراكيب على نحو مذهل.

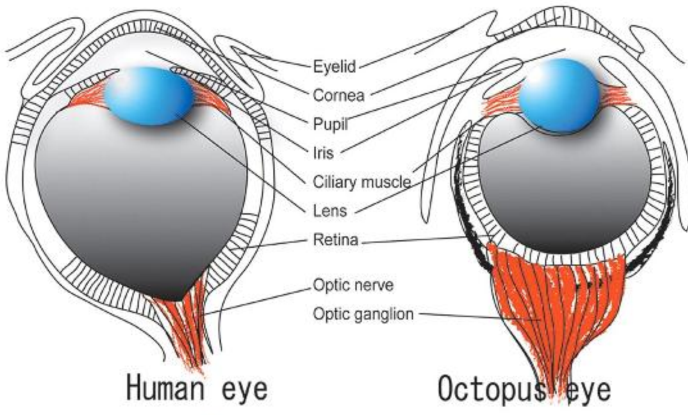
هذه القفزة الهائلة في تشكل العين عبر سلسلة المحاذاة، لا يمكن تفسيرها بالانحدار من أي سلف مشترك، و تقف مباشرة في وجه السيناريو التطوري

الذي يستدل بتدرج نماذج العيون الحالية كتمثيل لأسلافها، و كالعادة لا يمكن لأنصار التطور تحمل تبعات فرضياتهم فنجدهم يتملصون منها بالمجادلة حول كون كل من الأخطبوط و الإنسان أبناء عمومة من سلف قديم جدا، عاش في عصور ما قبل الكمبري، و لا يمثل أحدهما سلفا للآخر، و تلك البنية المعقدة و المتطابقة في نظام الرؤية بين كلا النوعين قد تطورت بمعزل عن بعضها البعض بطريق تطوري تقاربي convergent evolution.(٦)

و هذا الرد هو ما يعنينا الآن من طرح المثال السابق، و عليه نتساءل: إن كانت الكائنات العائشة لا يمكنها أن تمثل الأسلاف و لا تعبر عنها، فلماذا يحتج أنصار التطور بمصفوفات كائنات حية حالية لتبرير تسلسل تطور العين!

المثال السابق ليس استثناء فالتناقضات رصدت على نطاق كبير حيث لاحظ العلماء أن العيون في ثلاثة فئات رئيسية من الأنواع (الفقاريات و المفصليات و الرخويات)، تنشأ من أنسجة مختلفة و منه افترض أنصار التطور أن لدي هذه الفئات الثلاثة تاريخا تطوريا منفصلا، و العديد من أوجه التشابه بينها نتجت أيضا بسبب التطور التقاربي.(٧)

مثل هذه التناقضات الشديدة في المسار التاريخي المقترح لتطور العين تداعت بأنصار التطور إلى الافتراض بأنها قد تطورت و نشأت أكثر أربعين مرة بشكل مستقل، و هو ما يفسد سيناريو الاصطفاف، و يؤكد عدم جدواه في الاستدلال.(٨) (٩)



التطابق البنيوي بين عين الأخطبوط و عين الإنسان لغز يتحدى العشوائية

بالإضافة إلى تناقض هذا النموذج مع السجلات الجيولوجية التي لا تدعم هذا التدرج المزعوم، و تستعرض ظهورا فجائيا للعيون المعقدة، و بكامل تراكيبها المعروفة اليوم منذ أكثر من ٥٤٠ مليون سنة فيما عرف بعصر الكمبري Cambrian، و يشير إلى ثباتها منذ و جودها للوهلة الأولى، و لا زال أصلها التطوري يمثل لغزا حقيقيا.(١٠) (١١) (١٢)

بتخطي هذا النهج المعيب نتحول إلى محور تناولنا، و الذي يتعلق بتلك الإشكالية الكبرى التي تتعامى عنها الدراوينية، و هي آلية هذا التحول المطلوب لإنتاج ذلك الجهاز المعقد (العين).

فحدوث كل طفرة متتابعة في الحمض النووي داخل مقلة العين يتطلب تحولات جذرية و متزامنة و شديدة التعقيد و الترابط داخل بنية العظام، و الأعصاب، و وظيفة الدماغ، و يجب سلوك مئات من المسارات التطورية في ذات الوقت عن طريق طفرات فاعلة في جميع الجوانب المتعلقة بالرؤية، و مثل هذه التغييرات تتطلب أكثر بكثير مما يمكن توقعه

من الطفرات العشـــــوائية و الانتقاء الطبيعي.(١٣)

و لتقريب مدى صعوبة تلك العملية باتخاذ مقياس واحد فقط، هو عدد الجينات المسئولة عن إنتاج العين، نجد أنه قد تم التعرف حتى الآن على ٥٠١ من الجينات المرتبطة بالعين في تلك الحشرة البدائية (ذبابة الفاكهة)، أي ما يعادل ٣,٥٪ من حجم جينومها بأكمله.

و في الكائنات الأكــــــثر تعقيدا مثل الفقاريات نجد أن أكثر من ٧٥٠٠ جين يتداخل في تركيب و تنظيم شبكية العين، أي حوالي ٣٠٪ من الجينات البشرية قاطبة، و من ذلك فحدوث طفرات متزامنة على هذا العدد الهائل من المسارات و الجينات هو فرضية مريعة تتخطى حدود المنطق و تتزايد مع مستويات التكامل الارقى بين أجزاء تشكل العين، و حتى على المستويات التكوينية الأقل تدرك الداروينية تلك المشاكل الخطيرة في وضع تفسير لتطور كل جزء من نظام الرؤية، بما في ذلك العدسة، و مقلة العين، و شبكية العين، و النظام البصري بأكمله، و فصوص القذالي في الدماغ.(١٤)

مثل هذا التكامل و التنظيم أدى بالخبير تيرنر أن يسمى عملية الرؤية بالمعجزة، و يقول إن معجزة [الرؤية] الحقيقية تكمن في تلك العملية الحسابية التي يمكن أن تنتجها.(١٥)

فكل هذه الأنظمة المختلفة يجب أن تعمل معا كوحدة متكاملة لتحقيق الرؤية، و يتعجب جراس في بحث خاص يدرس أعضاء أقل تعقيدا في تشريح أسد النمل، و يتساءل حول إمكانية إنتاج مثل هذه النظم المعقدة بواسطة الانتقاء الطبيعي لطفرات عشوائية، و فرص حدوث مثل هذه الطفرات المتزامنة التي يمكنها أن تفعل ذلك، و جدوى هذه الطفرات في إنتاج الهياكل التي تلائم بعضها البعض بدقة.(١٦)

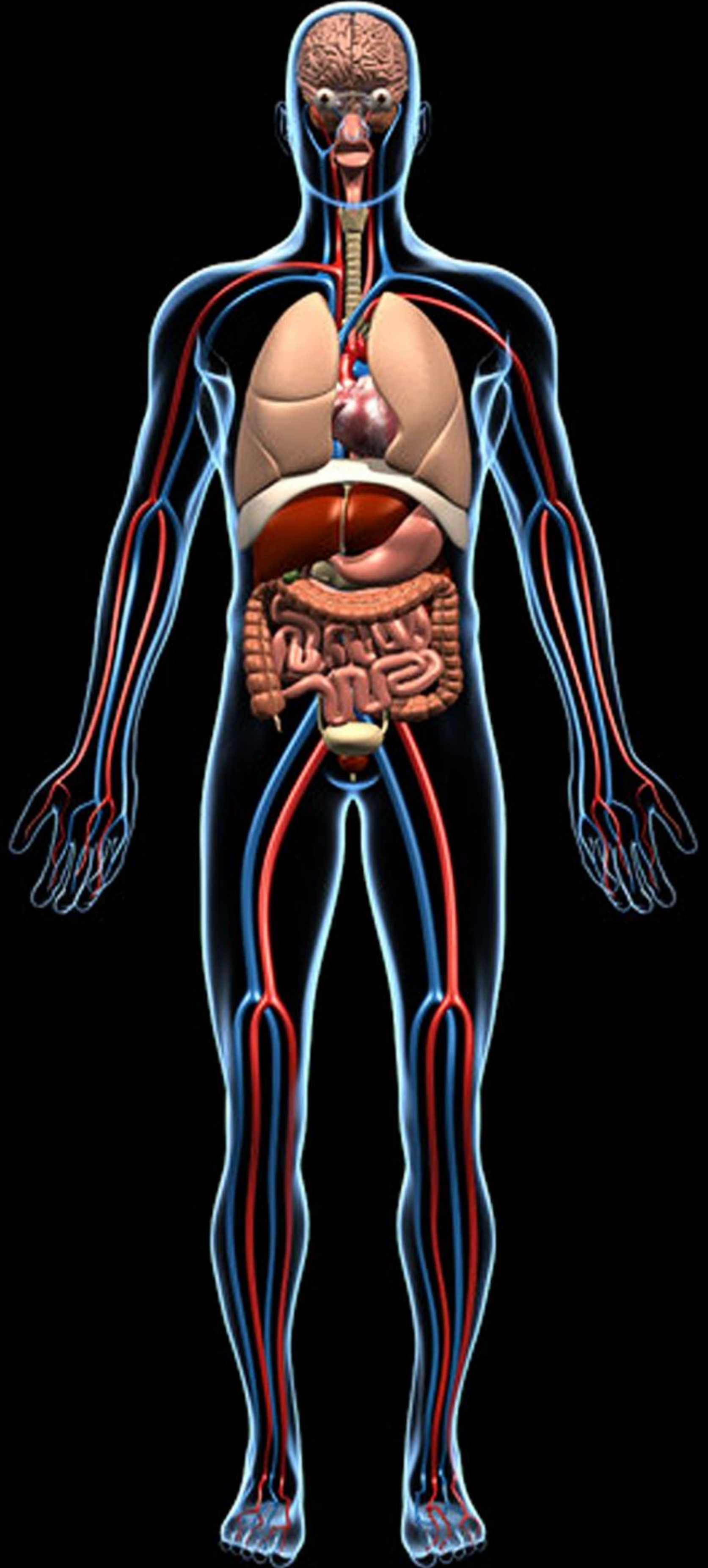
من المؤكد أن مثل تساؤل جراس سيلاقى طريقا مسدودا، فحتى أبسط نظم الرؤية و أكثرها بدائية (البقع الحساسة للضوء)، و التي استخدمت كحلقات أولية في سلسلة التطور، تتطلب وجود مجموعة كبيرة و معقدة من النظم الإنزيمية في المكان و الوقت المناسب لكي تعمل، و هي بحد ذاتها تعقيد لا يصدق و نظام لا يمكن اختزاله، و عندما اتخذ دوكينز و غيره من أنصار التطور البقعة الحساسة للضوء كبداية للصعود نحو سفح الجبل، فقد وقع في مغالطة منطقية بسبب تعقيـــــدها الهائل، و بذلك فرحلته نحو القمة محكوم عليها بالفشل لأنه ابتدأ من القمة و هوى مباشرة نحو الهاوية.

على صعيد الجسم البشرى يشير الدكتور جوزيف كوهين Joseph A. Kuhn من (جامعة بايلور - المركز الطبي) في ورقة نشرت مؤخرا بعنوان تشريح الداروينية، إلى أن الكثير من الأطباء من خلال دراستـــــهم للتعقيد الهائل للجسم البشري يمكنهم تقبل حدوث انتقاء لبعض الطفرات التي تعمل على مقاومة الملاريا، و خصائص الجلد، و العديد من التغييرات الطفيفة الأخرى لا يمكنها تحويل النوع، و لكن مثل هذه الطفرات لا تقدم أي تفسير حقيقي

حول منشأ وتشكيل الأجهزة و النظم المعقدة، فجميع عناصر النظم الحيوية تقريبا يجب أن تكون موجودة في وقت واحد بدلا من أن تتطور تدريجيا فيما أسماه نظام «كل شيء - أو - لا شيء» All-or-nothing.

و في نفس السياق يقدم جيفري سيمونز أمثلة عديدة من داخل الجسم البشري للأنظمة المعقدة المتخصصة التي لا يمكن اختزالها أو يمكن تشكيلها من قبل الطفرات المتتابعة، حيث يتوجب على جميع المكونات أن تكون موجودة لتعمل تلك الأنظمة بشكل صحيح، و تشمل هذه النظم المعقدة الرؤية، و التوازن، الجهاز التنفسي، الجهاز الدوري، الجهاز المناعي، الجهاز الهضمي، الجلد، و نظام الغدد الصماء، الذوق، و غيرها من الأمثلة على المستويات البيوكيمائية و التشريحية و وظائف الأعضاء.

يشير كوهين إلى أن الداروينية لا يوجد لديها تفسيرات فعلية لأصل النظام المعقد الذي لا يمكن اختزاله، ناهيك عن شبكة مترابطة من الأنظمة غير القابلة للاختزال، التي تشكل جسم الإنسان ككل. و بالتالي فجسم الإنسان يمثل نظام معقد لا يمكن اختزاله على النطاق الخلوي و الاجهزة والنظم. (١٧)



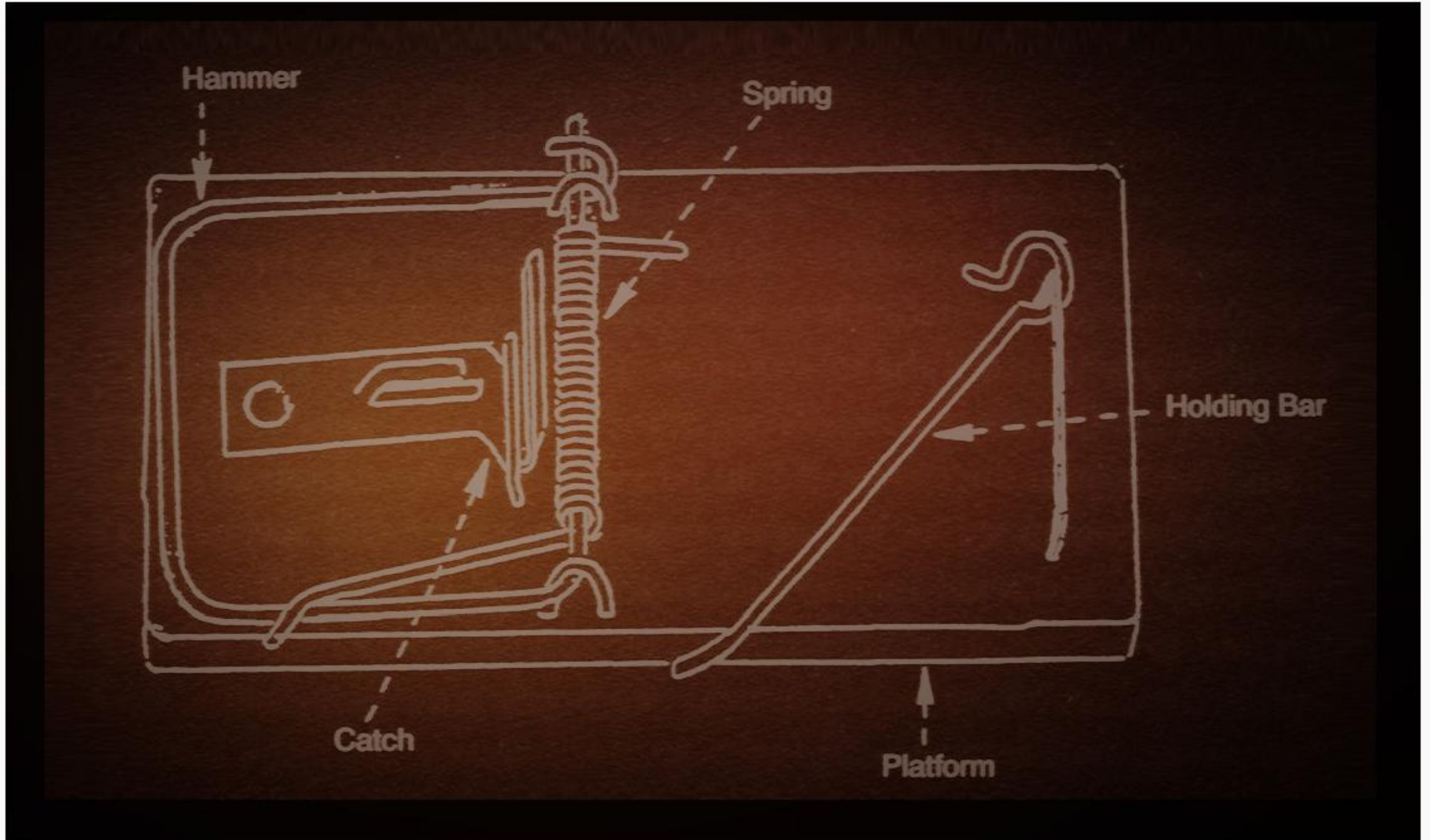
كل شيء.. أو لا شيء
التعقيد غير القابل للاختزال
Irreducible Complexity



يستعرض مايكل بيهي Michael Behe أستاذ الكيمياء الحيوية في جامعة ليهاي بنسلفانيا، و أحد منظري التصميم الذكي، من خلال كتابه الشهير صندوق داروين الأسود Darwin's Black Box: The Biochemical Challenge to Evolution طبقة أخرى من النظم غير القابلة للاختزال على المستوى البيوكيميائي الجزيئي في الحياة المجهرية الدقيقة.

و يعرّف بيهي النظام غير القابل للاختزال Irreducible complexity بأنه: مركب من العديد من الأجزاء التي تتفاعل بتناسق شديد لإنتاج الوظيفة المخولة بالنظام، و يتبع ذلك أن إزالة جزء واحد من أجزائه يعطل هذا النظام ويوقفه عن العمل، مما يعني أنه قد تم تصميمه من البداية مع جميع أجزائه، و بذلك لا يمكن أن يتكون نتاجا لطفرات طفيفة متدرجة يتم انتخابها، فالتطور لا يمكنه بناء عمليات بيوكيميائية معقدة خطوة بخطوة، لأن تلك الخطوات لا يمكنها توفير أي ميزة لحاملها, و هذا يعني أن الانتقاء الطبيعي لن ينتقي هذا النمو التطوري، و لن يسمح لنظام غير كامل و غير فعال بالانتشار من جيل لآخر، فهو لا يثبت سوى التغيرات الوظيفية، و هو ما تفتقده تلك النظم التي لا تعرف وظيفتها إلا بوجودها مكتملة.

يستخدم بيهي مصيدة الفئران كمثال تقريبي لشرح فكرته حول التعقيد غير



القابل للاختزال، فهي لا يمكن أن تعمل إذا فقدت أيا من أجزائها المكونة من القاعدة، الزنبرك، الماسك، المطرقة، و لا يكفي وجود كل الأجزاء في الوقت و المكان المناسبين، بل يجب أن تكون متناسقة مع بعضها بدقة حتى يمكنها القيام بوظيفتها، الأمر الذي يجعل من فرضية الفرص العشوائية محض جنون.

ينتقل بيهي لشرح العديد من تلك النظم البيوكيميائية، منها آلية استشعار الضوء في نظام الرؤية، و نظام تخثر الدم البشري، و السوط البكتيري الذي تستخدمه الكثير من البكتيريا للحركة.
فالعين تحمل طبقة أخرى من التعقيد على المستوى البيوكيميائى الدقيق، فعندما يضرب الضوء الخلايا الحساسة في العين، تحدث سلسلة من التفاعلات الجزيئية المتعاقبة المذهلة تماما، و التي يمكن تشبيهها بانهيار قطع الدومينو المتراصة حين نسقط أول قطعة، لتؤدي في النهاية إلى نقل النبض العصبي إلى الدماغ.

و إذا ما فقد أي جزيء في هذه السلسلة من قطع الدومينو أو كان معيبا لا يمكن بث النبض العصبي مما يعني ببساطة انعدام الرؤية و العمى التام، و من ذلك فهذا النظام لا يمكنه العمل على الإطلاق ما لم تكن كل أجزائه حاضرة في ذات الوقت.
و في مثاله الثاني: شلال تخثر الدم في الإنسان، و المسئول عنه أكثر من عشرة جزيئات بروتين شديدة التناسق، يجب أن تتفاعل مع بعضها البعض بشكل متسلسل لإنتاج الجلطة في الوقت و المكان المناسبين لإيقاف نزيف محتمل، و فقد أحد هذه الجزيئات يعني فشل نظام التخثر تماما (كما في حالة مرض الهيموفيليا).

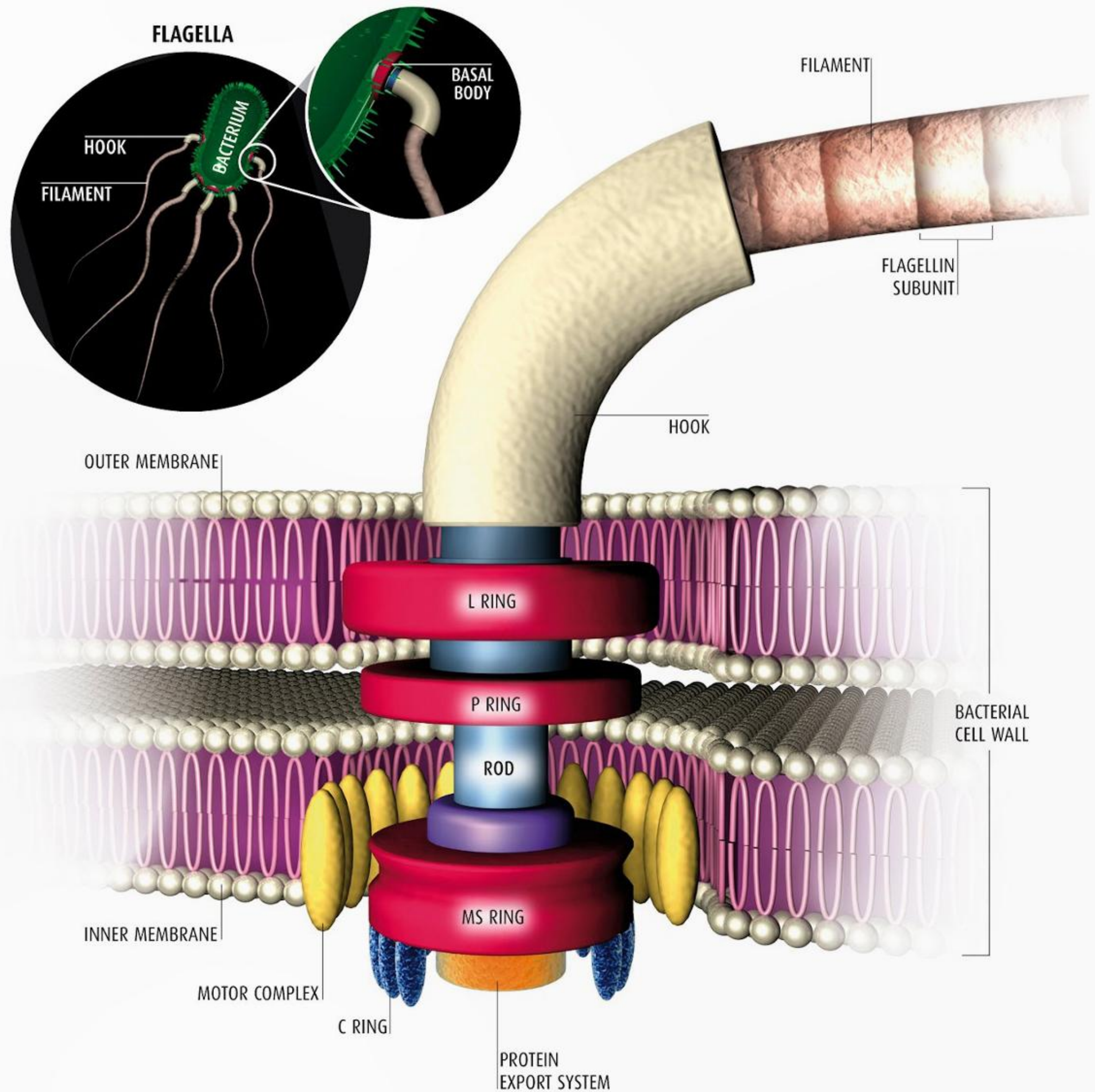
و المثال الثالث: هو سوط البكتيريا flagellum الذي يبدو مثل خيوط خارجية طويلة تساعد على دفع البكتيريا، و تمكنها من السباحة و الحركة خلال السائل المحيط بها، يتحرك السوط بآلية ميكانيكية تماما فعند قاعدة كل سوط محرك دوار يحركها آلاف المرات في الدقيقة الواحدة.

يتكون السوط البكتيري من الخيط Filament الذي يرتبط مع الجسم القاعدي Basal body بواسطة قطعة وسطية تسمى الخطاف Hook.

يحاكي السوط البكتيري أنظمة الحركة الميكانيكية بوسائل النقل المائية بآلية الدفع اللولبي، بواسطة محركات دوارة التي لا يمكنها العمل مع فقد أحد أجزائها، و مثل هذا النظام لا يقبل التدرج في التكوين، فالتطور بطريق الانتقاء الطبيعي و الطفرة يجب فيه المضي الحثيث نحو تحسين وظيفية واحدة في كل خطوة، فكيف يمكنه بناء جهاز لا يمكن اختزال خطواته مثل المحرك الدوار الذي لا يمكن أن يعمل على الإطلاق إلا إذا كانت جميع أجزائه في مكانها الصحيح؟! [١٨]

NATURE'S OUTBOARD MOTOR

Despite the intricacies of the bacterial flagellum, biologists are unravelling its workings and making great headway in understanding how the nanoscale appendage evolved



حجج الدروينية المضادة:

في عام ٢٠٠٥ أقامت منظمة الدفاع عن حريات المواطنين الأمريكية "American Civil Liberties Union"، بالاتفاق مع إحدى عشرة أسرة ممن يتعلم أبناؤهم في مدارس منطقة دوفر التابعة لولاية بنسلفانيا، دعوى قضائية ضد المجلس التعليمي للمنطقة.(١٩)

و كان السبب وراء ذلك هو أن مجلس التعليم في مدينة دوفر قد قرر دعوة الطلاب من خلال بيان مقتضب يتلى عليهم لدقيقة يعرفهم على "مبدأ التصميم الذكي" لتفسير الحياة بجوار نظرية التطور بالإشارة إلى بعض الكتب في مكتبة المدرسة، و انطلقت حيثيات تلك الدعوى بأن التصميم الذكي ينطلق من أسس دينية، و تدريسه في المدارس العامة يخالف (التعديل الأول) من الدستور الأمريكي و الذي نص على أن الكونجرس لن يصدر قوانين بناء على أية أسس دينية.(*)

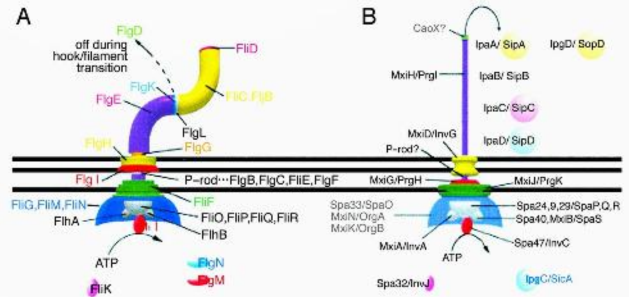
كينيث ميلر Kenneth Miller هو أحد الشهود الخبراء، ممن استعان بهم الادعاء في القضية، و ظهر مايكل بيهي Michael Behe الشاهد الخبير للدفاع. و أثناء استجواب ودي طرحه عليه الادعاء، أكد ميلر أن نظرية التصميم الذكي "ليست قابلة للاختبار"، و بذلك فهي ليست من العلم في شيء، و لكن في وقت لاحق أثناء شهادته يناقض ميلر ادعائه هذا، و يثبت أنها نظرية قابلة للاختبار حين جادل أن العلم قد اختبر حجة النظام غير المختزل و أثبت زيفها.

بالتغاضي عن تناقض ميلر الذي لم ينتبه إليه القاضي أو المحلفين في حينه، لنرى كيف أثبت زيف حجة بيهي حول التعقيد الذي لا يمكن اختزاله:

يمكن للمطلع بسهولة أن يدرك أن ميلر ارتكز خلال شهادته و في كتاباته العديدة على تشويه الحجج و طرح تعريف مضلل للنظام غير القابل للاختزال، و من ثم يقوم بدحض هذه الفكرة المضللة و المشوهة التي صنعها بنفسه مرتكبا بذلك حيلة منطقية يجيدها تعرف بمغالطة رجل القش.(٢٠)

دلس ميلر في تعريف النظام غير القابل للاختزال بادعائه بأن حجيته تكمن في كون الأجزاء المكونة له لا تحمل أي معنى وظيفي خارجه، و بذلك يمكن تفنيده إذا ما تم العثور على وظيفة ثانوية لهذه الأجزاء في نظم أخرى، و يستخدم مثال بيهي مصيدة الفئران للبرهنة على ذلك بنزع أحد أجزائها و استخدامها كدبوس لرابطة العنق، و من ذلك يدعي أن مفهوم التعقيد غير القابل للاختزال في السوط البكتيري قد تم دحضه، لأن ما يقارب ¼ البروتينات المستخدمة في وظيفة سوط البكتيريا تقوم بوظائف في نظام آخر في أنواع بكتيرية مختلفة، هو آلة حقن السم و تسمى (نظام إفرازي النمط-III، أو T SS)، مما يدل على أن السوط البكتيري من الممكن أن يتطور تدريجيا من نظام آلة الحقن الأقل تعقيدا.(٢١)

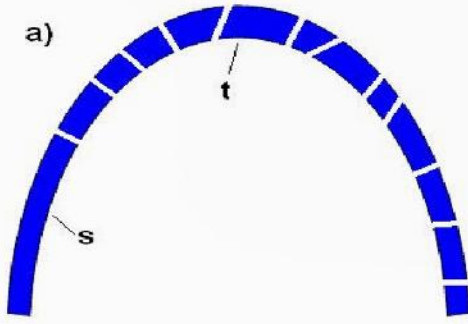
(*) "First Amendment". Cornell University Law School Legal Information Institute. Retrieved April 30, 2014.



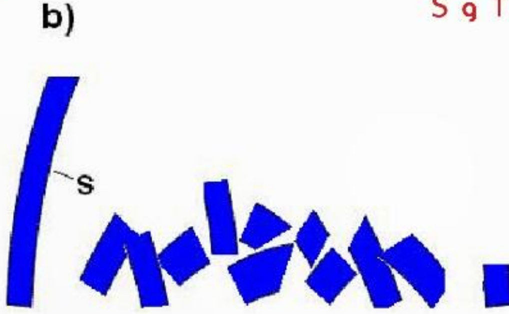
للتعريف بخدعة ميلر و تدليسه في اختبار النظام غير المختزل نضرب لكم هذا المثال: بما أننا قد وجدنا أن كلا من جهاز الكمبيوتر و الموقد الكهربائي لديهما سلك الطاقة المسئول عن توصيل التيار الكهربائي، إذًا نستنتج من ذلك أن جهاز الكمبيوتر لم يعد تعقيدا غير قابل للاختزال، وذلك لأن الكمبيوتر يتطلب عددا من قطع الغيار اللازمة من أجل وظائف ثانوية في أجهزة أخرى.

نعلم جيدا أن توافر بعض قطع جهاز الكمبيوتر الذي نستعمله الآن أو كل أجزائه في أي مكان أخر لا يغني عن تلك الخطوات الذكية التي يجب أن تكون مسئولة عن تجميع كافة الأجزاء في الوقت والمكان المناسبين، وفق مخطط إنشائي مسبق، و تعليمات موجهة، و الطريقة الصحيحة لتفسير تعقيده هي تتبع كافة خطوات تركيبه.

في مقالة نقدية نشرتها خدمة التصميم الذكي لكيسي لوسكين Casey Luskin حول مجريات و أحداث محاكمة دوفر، يضع مقاربة تصويرية رائعة لمنطق ميلر السابق ممثلا في تفسير التعقيد غير الاختزالي من خلال شكل القوس.[٢٢]



الشكل A: باعتبار القوس وظيفة معقدة لا يمكن اختزالها مقسم إلى العديد من القطع، بما في ذلك القطع T و S



الشكل B: برفع القطعة T من القوس ينهار القوس، و لكن تبقى القطعة S شاخصة ليس لها أيّة قيمة

من خلال الرسم السابق نطرح سؤالا: هل فسر أو دحض وجود الجزء القاعدي (S) من القوس التعقيد غير القابل للاختزال للقوس؟

بالطبع لا.

و إذا قمنا بتمثيل القطعة (S) بقاعدة إبرة الحقن T3SS، فكونها مشتركه مع السوط لم يدحض التعقيد غير القابل للاختزال في تركيب السوط، و يفشل تماما في تفسيره، و الاختبار الحقيقي الوحيد الذي يمكنه دحض هذا النظام هو إظهار قدرة الطفرات العشوائية و الانتقاء الطبيعي على بناء هذا النظام تدريجيا خطوة بخطوة كما اشترط داروين، فبروتينات نظام حقن السم T3SS المشتركة مع السوط البكتيري لا تمثل أكثر من وظيفة المساهمة في تثبيت كلا منهما في غشاء الخلية، و لا تساهم في الوظيفة غير الاختزالية للسوط.

إذا ضربنا مثالا أكثر ملائمة و قمنا بتشبيه السوط البكتيري بمحرك دفع خارجي لقارب، و نظام الحقن T3SS كرشاش مياه، و حتى نستطيع تثبيت كليهما على ظهر القارب (الذي يمثل بدوره جسم البكتيريا) يتوجب علينا استخدام قاعدة تثبيت (البروتينات القاعدية المشتركة)، و منه يمكننا القول إنه من السذاجة استنتاج أن وجود جزء التثبيت القاعدي في رشاش الماء دليلا على نفي التعقيد غير المختزل في تركيب المحرك الخارجي، و يمكن اعتبار هذه الحجة في أحسن الأحوال مثل القول إنه بإمكاننا السفر سيرا على الأقدام من لوس أنجلوس إلى طوكيو لأننا اكتشفنا جزر هاواي "بتشبيه ويليام ديمبيسكي".[٢٣]

ما هي متطلبات دحض نظام معقد غير اختزالي؟

لتتمكن الداروينية من وضع اختبار حقيقي حول تفسير أصل آلة جزيئية متكاملة غير قابلة للاختزال وظيفيا، يتوجب عليها تتبع الخطوات و الشروط الآتية التي تم تلخيصها وفقا لمنيوج Angus Menuge:

- أولا: توافر و إتاحة كل الأجزاء اللازمة لتشكيل النظام المطلوب.
- ثانيا: تموقع الأجزاء في موقع البناء في الوقت الذي يتطلب وجودها فيه.
- ثالثا: التنسيق و التوافق لتلك الأجزاء في الوضع الصحيح لملائمة التركيب في النظام وفقا للتوقيت و المكان المناسبين لتتفاعل بشكل صحيح داخل النظام.[٢٤]

الإخلال بأحد هذه الشروط يفشل الاختبار و يؤكد عدم صلاحيته، و الحقيقة التي لاحظناها بوضوح أن ميلر في اختباره لم يفعل سوى توفير جزء صغير من الشرط الأول، متمثلا في إتاحة الجزء القاعدي لإبرة الحقن و السوط الذي لا يمثل سوى ٢٠٪ من مكونات السوط، و لم يفسر وجود أجزاء المحرك الدوار الأكثر تعقيدا في السوط، أو يجد لها مثيلا بأية وظيفة ثانوية أخرى في أي نظام آخر، و بالتبعية لم يقترب قط من الشرط الثاني أو الشرط الثالث للاختبار ليشرح كيف تزامنت أجزاء النظام أو تواجدت في نفس مكان البناء؟

و كيف توافقت في تنسيق بعينه لإنتاج الوظيفة المخولة؟

و بدلا من ذلك بادرنا باستعراضه المسرحي و الهزلي باستخدامه لأحد أجزاء مصيدة الفئران كمشبك لرابطة العنق.

ادعى ميلر زورا أن بيهي قد افترض عدم وجود وظيفة ثانوية لأجزاء النظام في تراكيب أخرى، و التي يمكنها بحسب ادعائه أن تتكيف فيما بعد لإنتاج النظام الجديد، و أطلق عليها فرضية الخيار المشترك Co-option أو التكيف المسبق Exaptation، الذي تم اصطلاحه للتعبير عن الخصائص التي تظهر في سياق وظيفي ما، قبل أن يتم استغلالها في سياق آخر، حيث يمكن لسمة معينة كانت تخدم وظيفة بعينها أن تتحول في وقت لاحق لوظيفة أخرى.

و من الأمثلة الشهيرة للتكيف المسبق هو ريش الطيور. الذي تفترض الداروينية وجوده لتدفئة الحيوانات قديما قبل أن يتكيف كعامل رئيس في الطيران، و مثل هذه القصص من السذاجة بمكان بحيث يمكنها أن تصلح فقط كقصص ما قبل النوم التي كانت تحكيها لنا الجدات، فالريش بشكله الحالي وجد خصيصا بتركيب و توزيع ليساعد على الطيران، و كونه يحمل وظيفة أخرى تفيد في العزل و التدفئة لا يعني بالمرة أنه تكيف من هذه الوظيفة تماما كما لا يعني وجود جيوب بمعطف التدفئة نضع بها متعلقاتنا بأن المعطف الشتوي قد صنع في البداية للاحتفاظ بالمتعلقات، و من السذاجة بمكان ربط تطور الطيران بوجود الريش فالخفاش يمكنه الطيران بدون ريش، كما تفعل الفراشة و يفعل اليعسوب، و إن احتاج الحيوان ليصبح طائرا فلن ينفعه زغب التدفئة في تطوير تلك الخاصية، و مثل تلك الطرق الاستدلالية تقع تحت إطار مغالطة الهجوم على رجل القش.

و من ذلك المنطلق فقد وضع القاضي جونز في حيثيات حكمه أن بيهي كان جاهلا بآلية التكيف المسبق لتفسير تحول الوظيفة، و الحقيقة أن القاضي جونز هو من يجهل تماما مثل هذه القضايا المتخصصة، فبيهي تناول هذه الحجة تفصيليا من خلال كتابه (صندوق داروين الأسود) حين تكلم عن كيفية استخدام مجموعة من القطع التي تمتلك وظائف ثانوية في نظم أخرى كما في تطور أهداب الحركة في البكتريا، و شرح ذلك من خلال مثاله الشهير مـصيدة الفأر، حين أشار إلى فرص تكوين تلك الآلة من مهملات المرآب التي كانت تستعمل لأغراض أخرى سابقة، فقطعة خشبية يمكن استخدامها كثقالة أو لأي غرض آخر، و نابض مستخدم في ساعة قديمة مهملة و غيرها من أجزاء تشكيل المصيدة، و يقول بيهي إن الإشكالية الحقيقية تكمن في إدخال مثل هذه الأجزاء في نظام وظيفي جديد، و حاجاتها إلى سلوك مجموعة من التعديلات الملتوية بالغة التعقيد، و فيها ينعدم الدور المخول للانتقاء الطبيعي تماما، و هذا هو سر فعالية الحجة، فحتى مع توافر جميع الأجزاء الضرورية المطلوبة كالقاعدة، النابض، عصا توقيف، فإنه يتوجب عليها أن تتــــواءم مع بعضهـا بدقـة، و إلا فالمصيدة ستكون فاشلة و لن تعمل.

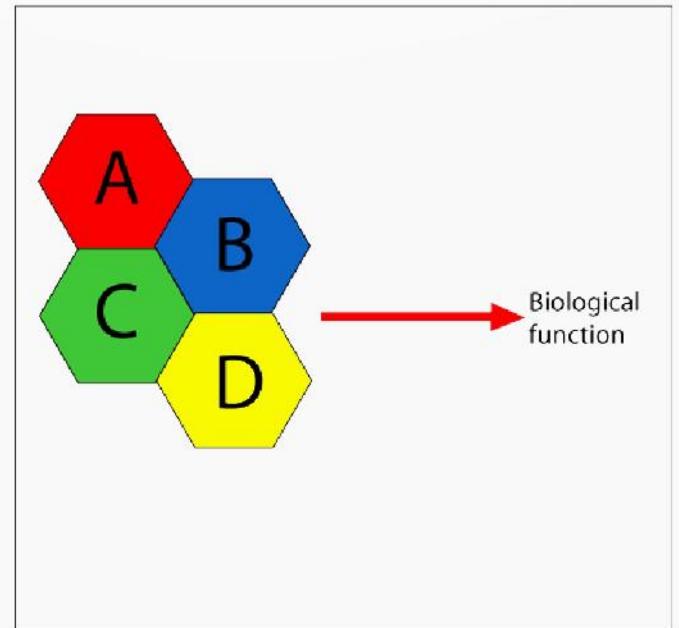
أنصار التطور يدركون جيدا حجم الإشكالية، و من ثم يجادلون في استنادهم على حجة التكيف المسبق؛ بأن النظم الحيوية المعقدة التي تبدو غير قابلة للاختزال يتم بناؤها بطرق غير مباشرة بعملية تشبه عملية التسقيل (دعم بسقالات)، و التي يمكنها المساعدة في رفع البناء و إيصال المكونات إلى مكانها في النظام حتى يكتمل، و من ثم يتم إزالة هذه الأجزاء (السقالات).

و الإشكالية هنا تكمن في الإجابة عن هذا التساؤل المحوري:

أي قانون طبيعي بلا هدف يمكنه أن يوجه تلك الأجزاء (بعملية التسقيل المزعومة) إلى موقعها المطلوب، في الزمن المطلوب، بالتناسق المطلوب، و ما هي فرص حدوث مثل هذا الحدث، و

من ناحية أخرى فالاستناد إلى مثل هذا التشبيه مرتد على صاحبه فعملية البناء بالتسقيل للأبنية المعقدة بالقياس هي عملية ذكية نتاج توجيه هندسي محكم، و ليست عشوائية حيث تتطلب دقة متناهية في توجيه السقالة في مكان محدد و نزعها في توقيت دقيق.

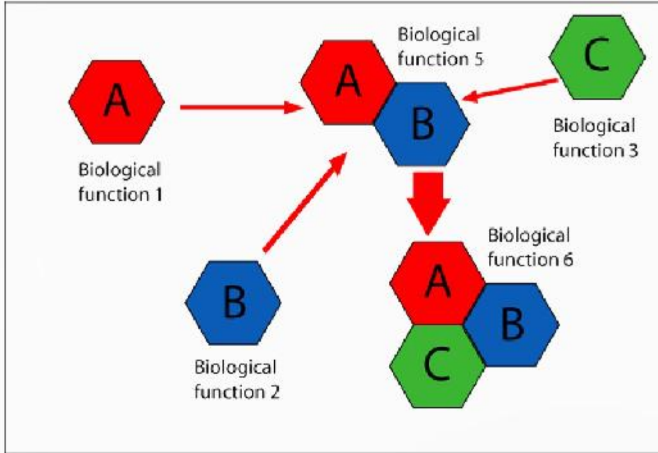
دعونا لا نستبق في الحكم.. و نتوجه مباشرة لاختبار هذه الفرضية، و نضع نموذجا افتراضيا لآلة جزيئية تتألف من مكونات البروتين A, B, C, D، و التي تتفاعل مع بعضها لتنتج الوظيفة البيولوجية المخولة بتلك الآلة البيولوجية.



الشكل ١ : مكونات A, B, C, D، و تتفاعل لإنتاج الوظيفة البيولوجية.

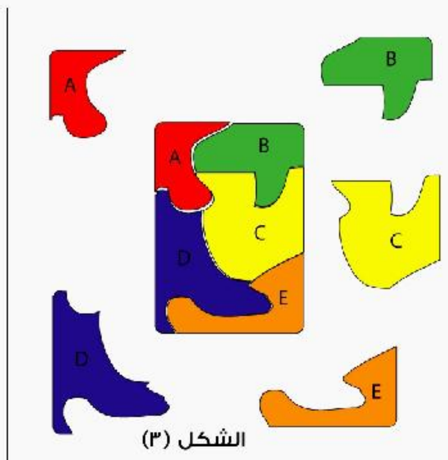
إذا كان لا يمكن لهذه الوظيفة البيولوجية أن تقوم إلا بواسطة التفاعل بين المكونات السابقة، يتوجب ساعتها على أنصار التطور استدعاء فرضية التكيف المسبق لتفسير حدوثها. و فيها يفترض أن كل جزء بروتيني من الأجزاء A, B, C, D، كان يحمل في الأصل وظائف ثانوية سابقة.

و من ثم يتفاعل مع بروتينات أخرى على مر الزمن التطوري، و يخضع النظام ككل لعمليات متكررة من التحول الوظيفي، و هذا هو جوهر التكيف المسبق، كما هو موضح في الشكل ٢.



الشكل ١ : مكونات A, B, C, D، و تتفاعل لإنتاج الوظيفة البيولوجية.

ندرك جيدا أن الآلات الجزيئية يتم بناؤها من أجزاء فردية من البروتينات، فالسوط البكتيري من السالمونيلا يتكون من ٤٢ من أجزاء البروتين، منها MotA و MotB (البروتينات الحركية)، FlgE (المحور).. الخ. هذه الأجزاء البروتينية تتفاعل مع بعضها بتكامل دقيق للغاية، يحدده أشكالها ثلاثية الأبعاد، التي يتم تعشيقها لتتآلف و تتعاون لإنتاج الوظيفة المخولة بالنظام النهائي حيث يتوجب على بروتين يمتلك شكل به نتوءات معينة أن يقابله بروتين آخر يمتلك شقوقا متكاملة معها تماما.



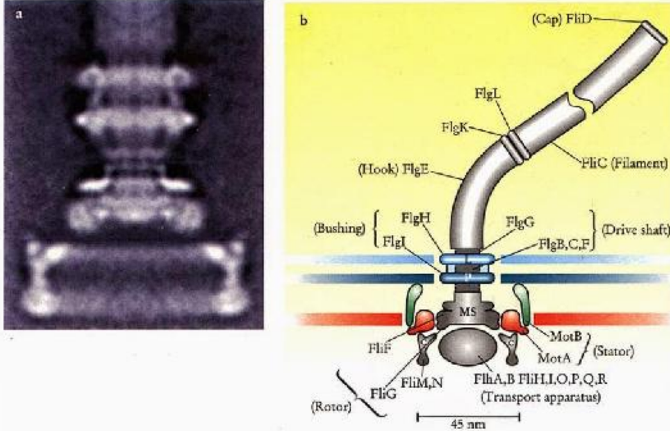
الشكل (٣)

في الشكل (٣) نرى آلة معقدة تتكون من خمسة عناصر (بروتينات) هي: A, B, C, D, E.

و هذه البروتينات هي مكملة لبعضها البعض، العنصر A هو مكمل لـ B, C, D، و العنصر D يعتبر مكملا لـ A, C, E.

سيناريو التكيف المسبق يحملنا على الاعتقاد بأن أجزاء الآلة من A إلى E كانت تعمل أصلا في سياقات مختلفة، و تشكلت كل واحدة منها بصورة مستقلة عن طريق الانتقاء الطبيعي.

و من ثم اجتمعت هذه الأجزاء لتتكامل في الوظيفة الجديدة، و لكن في خطوة التكامل هذه ينعدم تماما دور الانتقاء الطبيعي، و يبقى العامل الوحيد المتحكم في تكامل هذه الأجزاء داخل النظام الجديد هي الصدفة وحدها، فليس هناك شيء في الانتقاء الطبيعي من شأنه الدفع نحو موائمة أشكال البروتينات لبعضها البعض، و من المهم أن نتذكر ما شرحناه مسبقا بأن التطور غير غائي، و لا يوجد لديه بعد نظر، على عكس المهندس الذي يتحرك وفق خطة إنشائية مسبقة و يضع السقالات في المكان الملائم ليرفع أجزاء البناء لتتكامل في نهاية المطاف، و من غير المعقول تماما أن نتوقع أن تلك العمليات غير الغائية يمكنها خلق هذه البروتينات فقط في الطريق الصحيح لتتوائم بدقة متناهية في الشكل و التموضع لأداء الوظيفة الكلية للنظام، فكما يشير كل من Scott Minnich و Stephen Meyer أنه حتى مع توافر البروتينات اللازمة لتكوين السوط البكتيري الدوار فإنها يجب أن تترتب وفقا لتسلسل زمني صحيح تماما كما يتم تركيب السيارة أثناء خطوات تصنيعها، و من أجل حدوث ذلك فإنها بحاجة إلى نظام إنشائي مسبق من الشفرات، و التعليمات الجينية، و أدوات التجميع والتركيب المتمثلة في آلات جزيئية من البروتينات المتخصصة لمهمة ترجمة تلك التعليمات و تنفيذها.(٢٥)



مما سبق يتضح أن حجة أنصار التطور المركزية حول التكيف المسبق عاجزة تماما في تفسير التعقيد الحيوي و تفسير نشوءه، و يتضح أيضا أن ميلر لم يقترب بأي حال من الاحوال من تفنيد التعقيد غير القابل للاختزال، بل حوّل وجهة النقد إلى مهاجمة رجل القش، الذي صنعه بتحريف حجة بيهي و اختزالها، و من ثم وضع الاختبار في المسار الخاطئ، و الحقيقة أن فرضية الخيار المشترك بتحول الوظائف وتكيفها إلى أخرى مجرد حيلة أخرى من حيل تمرير الداروينية الشهيرة التي أجاد ستيفن جاي جولد (*)

(*) يعتبر Stephen Jay Gould أحد أشهر مؤرخي الداروينية و المتحمسين لها، و كان له أثر قوي في بلورة الكثير من أفكارها و البحث عن حلول لإشكالاتها المحورية، و اختراع العديد من الفرضيات التي يمكن توصيفها في الحقيقة تحت إطار الحيل مثل فرضية التطور المتقطع Punctuated Equilibrium لتخطي فقر السجل الأحفوري و انحرافه عن دعم الداروينية التدريجية، و فرضية التكيف المسبق Exaptation لتبرير ظهور النظم الحيوية غير القابلة للاختزال

اختلاق الكثير منها للهروب من الإشكاليات، و لكنه لم يقدم للتطور سوى نوع من تكييف المشكلة و تحويل مسارها إلى طرق جانبية ملتوية، لا تقدم أيّة حلول.

أيهما وجد أولا.. السوط البكتيرى أم نظام الحقن T3SS؟

كل التصورات السابقة قائمة على نقد سيناريو تطور السوط البكتيري تدريجيا من نظام أبسط هو إبرة الحقن T3SS كما تخبر الداروينية.

فماذا لو علمنا أن وجهات الفحص تصب في صالح تصور معاكس تماما؟!

حيث تفترض الدراسات أن السوط البكتيري كان سابقا لإبر الحقن، و أن البكتيريا لابد أنها احتاجت للدفع و الحركة قبل أن تحتاج أدوات الافتراس، التي تستخدم لمهاجمة خلايا حقيقيات النواة التي تطورت في وقت لاحق من البكتيريا. و من الأسباب الداعمة أيضا لتلك الفكرة هي أنه قد تم العثور على T3SS في نطاق ضيق من البكتيريا، في حين وجدت الأسواط البكتيرية على نطاق واسع في المجموعات البكتيرية المختلفة، و هو ما يعني أنها قد نشأت في وقت مبكر عن سابقتها.

كما يشير Howard Ochman باحث الكيمياء الحيوية في جامعة أريزونا إلى تطور TTSS من السوط و ليس العكس، فكيف يمكن للداروينية تخطي ذلك الأمر. [٢٦]

التعقيد غير المختزل.. دليل إيجابي على التصميم و ليس فجوة معرفية

مما لا شك فيه أن فكرة عداء العلم للدين في الغرب تعود بقسم كبير منها إلى ذلك الإرث الكنسي اللاهوتي القديم المغرق في السطحية، الذي وضع برهانا خاطئا على وجود اللّه ينحصر في نوع من المعجزات، مرتبط بما لا نستطيع تفسيره، و كان تبني تلك الفكرة المهينة بأن اللّه لا يتواجد إلا في الجزء غير المفسر من العالم بمثابة الحبل الذي لفه اللاهوتيون حول أعناقهم، و من ثم كانت الفرصة الذهبية لتنهي العلمانية المهمة بسهولة، و تركل الكرسي من تحت أقدام اللاهوتيين.

و عليه لا يمكننا تشديد اللوم على المادية في اصطلاحها المشهور إله الفجوات المعرفية، و لكن في المقابل من ذلك نجد أنه من الأهمية تصحيح المفاهيم و إعادة توجيه التوصيف إلى مساره، فتغيير الفكرة السائدة حول مرض الصرع، و معرفة أسبابه، و تصحيح الفكرة التي سادت حوله باعتباره تلبس بروح شريرة و أن علاجه يكمن في استجلاب معجزات إلهية بالصلوات في الحقيقة لا يعتبر هدما للإله و انزواء لدوره في مقابل الحل المادي بقدر ما يمكن اعتباره هدما للفكرة الخاطئة التي تبناها اللاهوتيون حول دور اللّه و توظيفه بالخطأ، و الذي اعتمد على الالتجاء إلى نوع من التواكل و عدم السعي لمعرفة الأسباب و تتبعها، و من ذلك ظلت العلمانية تكسب جولات زائفة بتراجع دور الإله بذلك المفهوم،

لكنها في الحقيقة لم تجابه إلا رجل القش الذي ساهم في خلقه هذه المرة اللاهوتيون أنفسهم. فنجاح المادية في تفسير كيفية عمل الآلة المعقدة التي كانت تبدو من قبل ذلك للبعض كالسحر و المعجزة، لا يمكنه أن ينفي وجود صانع لتلك الآلة، و يرجع الأمر برمته إلى القوانين الطبيعية مدعيا قدرة تلك القوانين على صنعها، بل على النقيض من ذلك يجب أن يزيد يقيننا في قدرة الصانع و براعته، و يؤكد قناعتنا بحتمية التصميم الحكيم.

و من جهة أخرى..
فإن الفجوات المعرفية المحيطة بقضية ما -على فرض صحتها- يتوجب عليها أن تعطي لدى الباحث المحقق انطباعا من الحيادية أو اللاأدرية بخصوص تلك القضية و عدم استباق الأحكام حولها، لكن في الوقت الذي يدعي فيه أنصار المادية استعانة المعارضين بإله الفجوات لسد تلك الثغرات المعرفية، فإنهم في المقابل يسدونها بإله آخر هو الصدفة العشوائية، و ينصبون التفسير المادي الطبيعي ليقعوا تحت نفس إطار الاتهام (سد الثغرات بإله الفجوات).
و حتى لا نتشعب كثيرا في تفاصيل فرعية يمكن للإشارة السابقة أن تكون كافية لإلقاء الضوء علي ذلك الادعاء الشائع، الذي يروج له أنصار المادية و النهج العلماني بأن التعقيد الحيوي غير الاختزالي لا يمكن اعتباره برهانا إيجابيا داعما للتصميم، بقدر ما هو برهان سلبي مبني علي استغلال فجوات معرفية متعلقة بجهل آليات نشوء هذه الاعضاء الحيوية، و التي يمكن سدها في المستقبل.
و لكن الحقيقة علي غير ذلك، فهذه النظم تبدي علامات التصميم الحكيم التي يستحيل تفسيرها من خلال عمليات طبيعية عشوائية، فمن خلال قياس بسيط يمكننا إدراك تلك الحقيقة؛ لو وجد شخص ما كوخا حجريا مصقولا وسط الجبال، سيستنتج أنه تم صنعه بفعل مصمم. لكنه أيضا لن يبرر بنفس الادعاء إذا وجد قطعا صخرية عشوائية الشكل و من نفس الحجم.

تتميز الحياة بتعقيد تفشل في مضاهاته أيّة معقدات غير حية، لأنها لا تتعدى بوصفها معقدات عشوائية ترتبط خلالها الوحدات الصغيرة من خال روابط كيميائية كأحجار الكريستال، كما نرى في نماذج التتابع الجزيئي في الجزيئات البيولوجية الوظيفية مثل النظام المعلوماتي للحياة المعروف بالحمض النووي DNA، و التي أسماها ويليلم ديمبسكي التعقيد المتخصص Specified Complexity، و يعرفه كعلامة واضحة من علامات التصميم الحكيم بقوله: عندما يبدي شيء ما تعقيدًا متخصصًا، أي عندما يكون معقدًا و متخصصًا بنفس الوقتِ، فإننا نستطيع أن نقول أنه قد أُنتج من قبل مسبب ذكي، عوضًا عن القول بأنه كان نتيجة للعمليات الطبيعية.[٢٧]

فالتعقيد المتخصص نظام لا يكتفي بالتعقيد العشوائي بل بتخصص التعقيد لأداء أدوار و مهام محددة، و يستخدم ديمبسكي المثال التالي:

- الحرف الأبجدي هو متخصص دون كونه تعقيدا.
- جملة طويلة من الأحرف العشوائية هي تعقيد دون كونه متخصصا.
- قصيدة لشكسبير هي تعقيد متخصص.

يضع ديمبسكي نموذجا رياضيا لتقنين التعقيد المتخصص، في إطار ما قام بتعريفه بـ «حد الاحتمال الكون»، فلو كان عدد الجسيمات الأولية داخل الكون هو $١٠^{٨٠}$، و عدد العمليات الفيزيائية التي يمكن حدوثها في الثانية الواحدة هي $١٠^{٤٥}$، وعمر الكون منذ الانفجار الكبير بالثواني هو $١٠^{٢٥}$، فحاصل ضرب العوامل السابقة يمكن أن يعطينا الحد الأقصى للأحداث التي يمكن أن تكون قد حدثت للجسيمات الاولية منذ الانفجار الكبير حتي وقتنا هذا، و من ذلك فإن أقل احتمالية لحدوث حدث ما بشكل عشوائي خلال تاريخ الكون هو واحد من $١٠^{١٥٠}$، أما الأحداث التي تكون قيمة احتمالها أقل من هذه القيمة فمن غير الممكن حدوثها بكوننا بشكل عشوائي، و منه يعرف ديمبسكي المعلومات المعقدة المتخصصة بأنها أي شيء احتمال حدوثه في الطبيعة أقل من ١ من $١٠^{١٥٠}$. (٢٨)

بالعودة إلي السؤال الذي طرحناه في التمهيد حول سر وجود النظام الحيوي، يمكننا الآن أن نكون تصورًا للإجابة عنه، في ظل التقدم العلمي في مجال "البيولوجيا الجزيئية"، الذي منحنا نظرة أكثر عمقا في سيرورته، و تكشف لنا مع ذلك التقدم أن الكثير من التفاعلات المهمة بين مكونات أي كائن متعض لا تتم على المستوى الفيزيوكيميائي، بل على مستوى تكاملي أرقى منه و متسيد عليه هو "البرنامج المعلوماتى" المتمثل في " الحمض النووى DNA"، الذي يتواجد داخل نواة كل خلية حية، و هو بمثابة أبجدية مكونة من أربعة أحرف تحمل المعلومات ذات التعقيد المتخصص "تماما مثل الجمل العربية" أو برامج الكمبيوتر، و التي لا يمكن تفسيرها بكيمياء الحبر أو فيزياء المغناطيسية، و لكنها ترجع بالضرورة إلى التصميم الحكيم. هذا البرنامج يمكن اعتباره القاسم المشترك بين جميع الكائنات الحية من البكتيريا إلى الإنسان، و هو ما يقوم بوظيفة توجيه الأجزاء إلى الترابط في تلك النظم الحيوية على نحو دقيق و قيادتها و يحمل مخططات بناء الكائن الحي و وظائفه بكل تفاصيله المدهشة.

يشير بول ديفيز Paul Davies عالم الفيزياء النظرية و البيولوجيا الفلكية إلى تلك الحقيقة بقوله:

- بإرجاء الحياة إلى قوانين الفيزياء أو الكيمياء نراها تبدو مثل السحر، إنها تتصرف بطرق غير عادية لا مثيل لها في أي نظام فيزيائي أو كيميائي آخر، و لكنها تحمل خصائص نابضة بالحياة تتميز بالاستقلالية و القدرة على التكيف، و السلوك الموجه نحو الأهداف، و تسخير التفاعلات الكيميائية لتمرير أجندة مبرمجة مسبقا، بدلا من أن تكون عبدا لتلك التفاعلات". (٢٩)

و في نفس السياق يقول:
«نعرف الآن أن سر الحياة لا يكمن في المكونات الكيميائية على هذا النحو، و لكن في البنية المنطقية و الترتيب التنظيمي للجزيئات،فالحياة هي نظام معالجة المعلومات، و برنامج الخلية الحية هي السر الحقيقي، و ليست الأجهزة، و لكن من أين أتى البرنامج؟ كيف لذرات غبية بشكل عفوي كتابة البرامج الخاصة بها؟ لا أحد يعرف..» (٣٠)

هذه الفجوة المعرفية التي يدعيها النهج العلمي العلماني حول مصدر البرامج و المعلومات الحيوية هي في حقيقتها ليست إلا فجوة مصطنعة يتم الترويج لها، بغرض الهروب مما تؤول إليه التحليلات المنهجية من نتائج في هذا الصدد.

و على النقيض من ذلك نجد أن الكثير من الأبحاث المعنية تؤكد حتمية تصدر التصميم لخلق مثل هذه البرامج المعلوماتية الحيوية، ففي بحث بعنوان In the Beginning Was Information لجيت فيرنر Gitt Werner (أستاذ الفيزياء و مدير قسم معالجة المعلومات في معهد الفيزياء و التكنولوجيا، براونشفايغ) يخلص إلى هذه النتيجة بقوله:
"نظام الترميز يستلزم دائما عملية عقلية. النهج الفيزيائي لا يمكنه أن ينتج رموز المعلومات. تظهر جميع التجارب أن كل قطعة من المعلومات الإبداعية تمثل بعض الجهد العقلي". (٣١)

و في نفس السياق يعترف كل من L.Lester و R.Bohlin بتلك الحقيقة:

"الحمض النووي هو رمز المعلومات.. الاستنتاج القطعي هو أن هذه المعلومات لا يمكن أن تنشأ تلقائيا من خلال عمليات آلية. الذكاء ضرورة في الأصل لأى رمز معلوماتي، بما في ذلك الشفرة الوراثية". (٣٢)

من خلال التحليل التتابعي السابق بالطرح نخلص إلى النقاط الآتية:

- الكائن الحي ليس تراكمات مجردة لمجموعة من المفردات، و إنما نظام دقيق متكامل لا يقبل الاختزال و التطورالتدريجي.

- يتحكم في سيرورة هذا النظام (برنامج معلوماتي) إنشائي و تشغيلي مسبق، يمثل نوع من التعقيد المتخصص.

- البرنامج المعلوماتي يستحيل تفسير وجوده بالنهج الفيزيوكيميائي و القوانين الطبيعية، و إنما هو نتاج حتمي للتصميم الحكيم كما أثبتت التجارب و الدراسات في هذا الشأن.

دمتم بود.. و إلى لقاء آخر بإذن الله مع فصل جديد من فصول:
إعادة محاكمة الداروينية.

أحمد يحيى

1- "If it could be demonstrated that any complex organ existed, which could not possibly have been formed by numerous, successive, slight modifications, my theory would absolutely break down."
- Charles Darwin, "The Origin of Species", Harvard University Press, 1964, p. 189.

2- Ernst Mayr, "This Is Biology: The Science of the Living World", Harvard University Press, 1998.

3- David Quammen, "The Reluctant Mr. Darwin: An Intimate Portrait of Charles Darwin and the Making of His Theory of Evolution (Great Discoveries)", W. W. Norton 2006.

4- Charles Darwin, "The Origin of Species", Harvard University Press, 1964, p. 190.

5- "the crucial importance of this requirement to the theory of evolution was fully understood by Darwin, who stated that, in searching for the gradations through which an organ in any species has been perfected, we ought to look at its lineal progenitors. Indeed we ought; though he himself could not do so. It is deceptive to the reader to create a seriation beginning with eye spots as seen in unicellular organisms and call them, as does Duke-Elder (1958), the earliest stage of evolution."
- Cousins, F.W., "The Anatomy of Evolution, Duffett Publications", London, p. 125, 2003.

6- Atsushi Ogura. et al, "Comparative Analysis of Gene Expression for Convergent Evolution of Camera Eye Between Octopus and Human", Genome Res. 2004.
<genome.cshlp.org/content/14/8/1555.short>

7- Fernald, R.D., "The evolution of eyes", Brain, Behavior and Evolution 50 (4):253, 1997.

8- Frank Salisbury, "Doubts About the Modern Synthetic Theory of Evolution", American Biology Teacher, September 1971, p. 338

9- Fernald, R.D., "Eyes: variety, development and evolution", Brain, Behavior and Evolution 64(3):141–147, 2004; p. 1917.

10- Croft, L.R., "The Last Dinosaurs", Elmwood Books, Chorley, Lancashire, p. 57, 1982.

11- Land, M.F. and Nilsson, D.-E., "Animal Eyes", Oxford University Press, New York, p. 1, 2005.

12- Duke-Elder, S.S., "System of Ophthalmology. Volume 1: The Eye in Evolution", The C.V. Mosby Company, St. Louis, p. 237–238

13- Breidach, O. and Kutsch, W., "The Nervous Systems of Invertebrates: An Evolutionary and Comparative Approach." With a coda written by T.H. Bullock, 1995.

14- Fernald, R.D., "Casting a genetic light on the evolution of eyes", Science 313:1914–-1918, 2006; p. 1914.

15- Turner, J.S., "The Tinker's Accomplice: How Design Emerges from Life Itself", Harvard University Press, Cambridge, MA, p. 161, 2007.

16- "Have you ever seen a mutation simultaneously affecting two separate components of the body and producing structures that fit one another precisely? … have you ever beheld three, four or five simultaneous mutations with matching structures producing coordinating effects? … These are vital questions that demand an answer. There is no way of getting around them, or evading the issue. Every biologist who wants to know the truth must answer them, or be considered a sectarian and not a scientist. In science there is no "cause" to be defended, only truth to be discovered. How many chance occurrences would it take to build this extraordinary creature [Myrmelion formicarius]'?"

- Grassé, P.P., "Evolution of Living Organisms", Academic Press, New York, NY, p. 163, 1977.

17- Joseph A. Kuhn, "Dissecting Darwinism", Proc (Bayl Univ Med Cent). Jan 2012; 25(1): 41–47.

18- Michael Behe, "Darwin's Black Box: The Biochemical Challengue to Evolution", 10th ed. (2006) Free Press, New York.

19- TAMMY KITZMILLER, et al. v. DOVER AREA SCHOOL DISTRICT, et al. - Case No. 04cv2688 - Middle District of Pennsylvania Court.

20- عادل مصطفى، "المغالطات المنطقية"، المجلس الأعلى للثقافة 2007 ص 163.

21- Dr. Kenneth Miller Testimony, Day 1, PM Session, page 16.

22- Casey Luskin, "Do Car Engines Run on Lugnuts? A Response to Ken Miller & Judge Jones's Straw Tests of Irreducible Complexity for the Bacterial Flagellum.", CSC - Discovery Institute, April 19, 2006.
<discovery.org/a/3718>

23- Dembski, Rebuttal to Reports by Opposing Expert Witnesses , p 52.
<designinference.com/documents/2005.09.Expert_Rebuttal_Dembski.pdf>

24- Angus Menuge, "Agents Under Fire: Materialism and the Rationality of Science", p 104-105, Rowman & Littlefield, 2004.

25- Scott A. Minnich y Stephen C. Meyer, "Genetic Analysis of coordinate flagellar and type III regulatory circuits in pathogenic bacteria", Discovery Institute p 8.
<discovery.org/scripts/viewDB/filesDB-download.php?id=389>

26- Dan Jones, "Uncovering the evolution of the bacterial flagellum," New Scientist (Feb 16, 2008).

27- Dembski. "Intelligent Design", p. 47.
<designinference.com/documents/2003.08.Encyc_of_Relig.htm>

28- Dembski, (ed.) "Mere Creation: Science, Faith & Intelligent Design.", Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 1998, 209-213.

29- "To a physicist or chemist life seems like 'magic matter,'" Davies explained. "It behaves in extraordinary ways that are unmatched in any other complex physical or chemical system. Such lifelike properties include autonomy, adaptability and goal-oriented behavior -- the ability to harness chemical reactions to enact a pre-programmed agenda, rather than being a
slave to those reactions."

- Skip Derra, "ASU researchers propose new way to look at the dawn of life", asu news Posted: December 12, 2012. <asunews.asu.edu/20121212_dawnoflife>

30- a) Paul Davies, "The Origin of Life: Fifth Miracle", Penguin UK.
b) New way to look at dawn of life. <sciencedaily.com/releases/2012/12/121212205918.htm>
c) Origin of Life Needs a Rethink, Scientists Argue. <livescience.com/25453-life-origin-reframed.html>

31- "A coding system always entails a nonmaterial intellectual process. A physical matter cannot produce an information code. All experiences show that every piece of creative information represents some mental effort and can be traced to a personal idea-giver who exercised his own free-will, and who is
endowed with an intelligent mind."

- Werner Gitt, "In the Beginning Was Information", CLV, Bielefeld, Germany, pp. 107, 141

32- "DNA is an information code. . . . The overwhelming conclusion is that information does not and cannot arise spontaneously by mechanistic processes. Intelligence is a necessity in the origin of any informational code, including the genetic code, no matter how much time is given."

- L. Lester and R. Bohlin, "The Natural Limits to Biological Change", (Dallas, TX: Probe Books, 1989), p. 157

نسعد بتواصلكم

fb.braheen.com

t.braheen.com

info@braheen.com



لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية

for Studying Atheism and Contemporary Issues of Faith



العدد الثالث - أغسطس ٢٠١٤ - شوال ١٤٣٥
www.braheen.com

دورية فصلية تصدر عن «مركز براهين» لدراسة الإلحاد من منظور علمي فلسفي شرعي

في نقد التوظيف الإلحادي
لمعطيات العلم
د. الطيب بو عزة

الكوة الضيقة
للمنهج التجريبي
د. هيثم طلعت

فردوس بيكون المفقود
عمار سليمان

العلم بين الإيمان والإلحاد
أبو حب الله

أسس العلم التجريبي
رضا زيدان

عدد خاص عن:
العلم
التجريبي
الأسس - المنهجية - التوظيف
المعيار الإنساني - مصادر
المعرفة

الفهرس

دورية فصلية تصدر عن:

«مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية»

المشرف العام: عبد الله بن سعيد الشهري

مدير التحرير: أبو حب الله

اللجنة العلمية : أحمد جاويش - أحمد يحيى
د.هيثم طلعت - مصطفى نصر قديح

فريق الإعداد: د. هشام عزمي - أبو بدر الراوي
عبد الله الصيدلي - عبد اللطيف العلي

الكتاب: أبو حب الله - أحمد إبراهيم - أحمد يحيى - د. الطيب بو عزة - رضا زيدان - عبد الله بن سعيد الشهري - د. عبد الله الصيدلي - عمار سليمان - د. هيثم طلعت

مستشار الشؤون القانونية:
محمود بسيوني عبد الله

المراجعة اللغوية و التصميم و الإخراج:
شركة دونر للنشر والتوزيع و الدعاية والإعلان

لجميع الاستفسارات يرجى مراسلة:
info@braheen.com

للمساهمة في الأعداد القادمة:
info@braheen.com

افتتاحية العدد

المطرقة و السندان

الحمد للّه والصلاة والسلام على رسول اللّه وصحبه وآله ومَن والاه ثم أما بعد..

تقول العرب للذي يقع بين شرّين لا مفر منهما: إنه واقعٌ بين المطرقة والسندان، والإلحاد بصورته الحقيقية، التي يحاول دومًا إخفاءها أو تزيينها، هو بين مطرقة العِلم وسِندان الإنسانية، لا مفر.

فهو إذا نظر أعلى منه وَجَدَ العلم الذي قوامه والدافع لأبحاثه هو الإيمان بالغيب! ذلك الإيمان بالتأثير والتأثر، بالسبب والمُسبب، إذ لولا إيمان العالم في معمله بأن هناك سببا ما خلف ظاهرة كذا، ما كان لينفق وقته وجهده في البحث عن ذلك السبب أو دراستها، وهذا النوع من الإيمان بالغيب يقتل النظرة الإلحادية المادية التي تدعي عدم الإيمان إلا بالمحسوس ويذبحها! فلولا انتظام الكون وظواهره الدالة على قوانين وعلاقات دقيقة تحكمه، ما كان هناك إيمان بغيب خلف تلك القوانين وخلف ضبط تلك العلاقات، وأينما وُجد الغيب وُجد الحديث عن الإيمان، لأنه لا أحد يقول للشيء المحسوس أمامه أنا أؤمن أنه موجود! وإنما يُقال الإيمان لغير المحسوس استدلالا عليه بآثاره.

وهكذا تهوي مطرقة العِلم على الإلحاد، منذ ظهر كفكر شاذ في الإنسانية، لتعلن أن علاقة الإلحاد بالعلم هي علاقة تضاد وتصادم لا توافق ووئام، ولتؤكد لنا مِن جديد أن الإلحاد ما هو إلا قضية نفسية لا أكثر ولا أقل، وأن الملحد لا ينقصه علم ولا أدلة، لأن مرضه في قلبه، إلا أن يهديه اللّه إذا فاق مِن جحوده وكفرانه: وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ [الأنعام : ١١١]

ثم ينظر الإلحاد أسفل مِنه، لعله يجد سبيلا آخرَ يُمرر به أسباب استمراره إلى غيره، فلا يجد إلا سِندان الإنسانية، الذي لا أمل في اختراقه أو النفاد مِنه أو الفرار، فالنفس الإنسانية جسدٌ وروحٌ، لن تتجزأ، وهي بهذه الصورة السوية لن تقبل الإلحاد أبدًا بين جنباتها، ليتعامل معها على أنها صخرة صماء لا مشاعر لها ولا أخلاق تحكمها، لن تقبل إلحادًا يرفع شعار البقاء للأقوى ولا مكان عنده لمعاني الرحمة والحب والتضحية والإيثار، ولا يعرف معنى النية أو الغاية أو الحساب، لن تقبل إلحادًا يناديها بنسبية الأخلاق أو مشروعية الاغتصاب أو إباحة قتل الأطفال الأجنة لأنهم في درجة أقل مِن الخنازير، لن تقبل إلحادًا يسد عليها آفاق التفكير في أجوبة الأسئلة الكبرى في الحياة؛ مِن أين أتينا ولماذا؟ فهي كلها خارج نطاق الإلحاد المادي بعِلمه المُشوه، الذي لا يتخطى النظر فيما بين يديه ولا يرنو إلى الأسباب والغايات.

وفي هذا العدد مِن المجلة، بإذن اللّه تعالى، سنواصل معًا إبراز تفسخ الإلحاد بين هذين الطرفين اللذين يتردد بينهما بلا مخرج؛ طرفي العلم والإنسانية، وكلٌ منهما يأبى احتوائه أو إنشاء علاقة نسب حقيقية معه!

ومن هنا.. فلن أضيع عليكم لذة قراءة مقالات العدد، مع وجوب الإشارة إلى تهانينا للظهور الإعلامي -مِن جديد- لثلاثة فرسان مِن فرساننا في مواجهة الإلحاد، وهم الإخوة: د. هشام عزمي ود. هيثم طلعت ومصطفى قديح، خلال شهر رمضان هذا العام على شاشة الرحمة، في برنامج "حوار الإيمان والإلحاد"، وكذلك نعرب عن الحفاوة البالغة بمقال د. الطيب بو عزة في ملف هذا العدد، فجزاه اللّه خيرًا على قلمه وجهده. وأيضا نحتفي بأول مشاركة للأخ أحمد إبراهيم معنا، عن شرح مبسط لبحثه المنشور في مجلة محكمة Network Biology، وهو عن السرطان الغازي كدليل تجريبي على الانتحار التطوري.

هيئة التحرير

الجواب الذي أسعدها

تأملات في الحكمة الإلهية

عبد الله بن سعيد الشهري

- البارحة، وأنا أجر خطاي على شاطئ الخليج العربي... ويلفعني نسيم ليلة صافية، بدت فيها النجوم تتلألأ فوق ظلمة البحر..

- سألتني نفسي سؤالاً، بل أسئلة: إنك سعيد قرير العين بهذا الجمال، هذا الجلال، هذا النظام، أليس كذلك؟
- قلت: بلى، وكيف لا؟
- قالت: لا شيء، ولا أنكر ما تراه، ولكن أخبرني: لم لا تَنْصف وتنظر إلى الجانب الآخر من الحياة.
- قلت: كيف؟ ما هو؟

- قالت: تلك المظاهر التي لا تنسجم تحت قانون مفهوم، ولا تنتظم في سلك معلوم...
طفل يعبر الطريق فتدهسه سيارة مسرعة..
و أخطاء الطبيعة الفادحة: إعاقات، تشوهات، إلخ..
آثار الفوضى ومظاهر العبث التي تحصل بلا فائدة معلومة أو نفع مفهوم ؛ انفجار نجمي في الغور السحيق من الكون، لمَ ؟
كوب القهوة الذي سقط من يدك صباح اليوم، لِمَ ؟
أتسمي هذا نظاماً؟
أترى في هذا جمالاً؟ أو دليلاً على خالق عظيم عليم، بزعمك، يحسن تدبير الأمور؟
إنك فقط تنظر إلى ما تريد أن تنظر إليه، هيا، اعترف، أليس كذلك؟

- سادت لحظة صمت...
يتخللها صوت تكسر الأمواج على جانب البّر...
ظنت بي نفسي ظن السّوء، على شيطانها دائرة السّوء...
وهي تنتظر لتنتزع مني اعترافاً...
ولم تدر..
لم يدر بخلدها، أني قد أعددت لهذا جواباً يسكن بين جوانحي، اقتبسته من علمي بكتاب الله..
وهكذا مرت الدقائق في ذلك المكان...

- التفت إلى نفسي وكأني بها قد خرجت لتواجهني...
نظرت إليها وتدبرت وجهها، لم تكن هي التي أعرفها...
هناك شيء ما، ولكني عرفت أن الشيطان أراد أن يمسها بنصب وعذاب، وقد كان شيء من ذلك...
رأيت نفحة من الإعياء تعلو مُحيّاها، فشعرت على الفور أنها بحاجة إلى مساعدة، إلى مد يد العون في أسرع وقت، استجمعت فكري كله..
ثم ناديتها: أيا نفس اطمئني، لا خوف عليك إن شاء الله..
سيأتيك ما يُذهب جزعك وفزعك..

- سألتها: ألست تعرفين القرآن ؟
- قالت: بلى..

- فقلت: هل قرأت هذه الآية أو سبق أن وقفت عندها: هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ [آل عمران : ٧]

فماذا فعلت بك وماذا فعلت بها؟ تعجبت !
- وقالت: ولم هذه الآية تحديداً ؟
وأين جوابك عن تلك الأسئلة؟
أتريد أن تتركني بلا جواب أم ماذا؟
- قلت لها: مهلاً إن الجواب في هذه الآية على أحسن ما يكون.
- ردت بحدة: كيف؟ أرني ! ولا تتأخر!.
- فقلت لها: أشترط عليك أولاً !
- ردّت: بماذا؟
- قلت: اشترط عليك شرط العبد الصالح مع موسى، ألا تقاطعيني حتى أفصّل لك الجواب تفصيلاً..
فأنت لست إلا نفساً مسلمة أقلقها بعض ما تسمع وتقرأ من الشبهات، أليس كذلك؟ قالت: بلى.. بلى.
- قلت: إذاً اتفقنا، نمضي قدماً، نسمع الجواب؟
- قالت: نعم.. نعم.. أعدك أن أنصت إلى جوابك..
إذ يبدو أنك قد عرفت دائي.. فعجل بدوائي..
كي أرتاح، وأعود من غربتي إليك، فلا أتركك أبداً.
إذاً، كوني معي بكليتك..

إن الله لما أنزل القرآن، جعل فيه المتشابه والمحكم، وكل منهما مقصود، حتى هذا المتشابه الذي يعتبره البعض مصدر تشويش وغموض، مجعول مقصود..
(فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ)
نعم، إن المتشابه له وظيفة ينتهي إليها، ومغزى يحققه..
تأملي معي، أليس يمكننا تصور عبث مقصود؟
- قالت متعجبة: عبث مقصود؟!!
ما هذا التناقض؟

- قلت: نعم. لعبة النرد أليست نشاطاً مقصوداً ولها قوانين، ولكن فيها قدر من الفوضى والعبث المتمثل في الرمي العفوي الذي لا تعلم عواقبه؟

- قالت: نعم، صحيح.. صحيح، بالفعل.

- قلت: فهذا فقط تقريب للمسألة التي نحن بصددها.
إن المتشابه القرآني التنزيلي من حيث كونه فتنة لمن تعلق به إنما تستجيب له النفوس التي ترد المحكم إلى المتشابه بدلاً من العكس، إنها غاية ربانية مرتبة ومقصودة، لها طلابها..

(وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ)

توقفتُ برهة أتأمل ذلك السرحان في وجهها..

ولكن سرعان ما ثابت إلى ما نحن فيه سائلة:

- كلام جميل، ولكن لا أدري ما غايتك من هذا؟ هل انتهيت؟

- قلت: أبداً، لم أنته، إنها البداية فقط

ولكن قبل أن أودعك لألتقي بك في المرة القادمة إن شاء الله، خذي هذه الفائدة، وإلى أن يحين موعد اللقاء بك، أظنك بتفكرك فيها ستدركين شيئاً مما أرمي إليه..

إنني اعتقد أن الله جعل المتشابه على نوعين من الوجود:

المتشابه القرآني التنزيلي، ويقابله ويتماهى معه، المتشابه العيني التكويني، الآن تفكري وتأملي في هذه المقولة، سوف ترين أن ما استحسنتيه قبل قليل حول المتشابه في القرآن هو ما سوف تستحسنينه في النوع الثاني من المتشابه العيني التكويني..

قالت: وماذا تقصد بالعيني التكويني؟

قلت: هذا شيء أريدك أن تفهميه بقليل من التدبر، ولابأس إن لم تصيبي، سوف أسددك، وأصححك..

والآن، لا بد أن أذهب (كارل ساجان!!)..

أتركك في حفظ المولى في أمان الله

هتفت بسرعة: لحظة، لا تذهب، كارل ساجان !!.

قد سمعت بهذا الاسم من قبل، أخبرني عن صاحبه، تمهل أرجوك..

ثم وليتُ وتركتها مشغولة البال، تدور طاحونة فكرها وفضولها لأقصى قوة..

- جئت على الموعد لم تُخلفني.

- رحبتُ بها، هشّت وبشّت، أصبحنا أكثر قرباً..

- والآن، أخبرني ولا تؤخرني، ما قصتك مع كارل ساجان هذا؟

- قلت: حسناً، سأخبرك عن الرجل، فهذا أوان الحديث عنه..

إنه رجل ملحد، يمثل فئة من الملاحدة تفكر بطريقة غريبة..

- قالت: كيف؟

- قلت: باختصار، أساس إلحاده أنه مولع بتتبع المتشابهات التكوينية..

- آه، بالمناسبة أجدها فرصة الآن لأشرح لكِ فهمي للمتشابه التكويني العيني.

حسناً المتشابه التكويني هو الجزء غير المفهوم من الكون المشاهد..

الجزء الذي يشتبه على الملاحظ، ويتردد بين أصلين فيصعب إلحاقه بأحدهما، ففيه مقومات النظام والإحكام، وفي نفس الوقت ينفعل في الوجود بطريقة تصطدم مع معاييرنا الأخلاقية ومقاييسنا العقلية..

كارل ساجان نفسه اعترف أنه يوجد نظام كثير في الكون، ولكن لسبب نفسي عميق أذكره لاحقاً، آثر التأثّر بالمتشابه وجعله الأصل الذي ترد إليه كل الأشياء، بما في ذلك المحكم التكويني الذي لا تشابه فيه..

- قاطعتني قائلة: أعطني مثالاً للمحكم التكويني إذاً؟

- قلت: آه لا أجـد!!

[جحظت عيناها]

- ردّت: ماذا؟ أتعني ما تقول؟ ليس عندك مثال لما تزعم أنه محكم وواضح لكل ملاحظ؟!!

[بابتسامة هادئة]

- أجبتها: نعم من الصعب إيجاد محكمٍ واحد يقطع النزاع فتجتمع عليه قلوب البشر كلهم..

[صمَتَتْ ومعالم الحيرة والقلق تعلو محيّاها]

- قطعتُ هذا الصمت: ماذا بك هل أزعجك جوابي؟

أنا لم أنف وجود المحكم التكويني، هو موجود ولكني أعجز أن أضرب لك مثالاً على محكمٍ لا يختلف عليه اثنان !

وإلا فالمحكم التكويني عندي شخصياً لا أمَد له ولا حصر له..

ما أريد أن أقوله هو أن إحكام الآيات الكونية مهما بلغت من الإحكام ليس شرطاً كافياً لضمان رؤيتها على نمط واحد من الوضوح عند كل ملاحظ..

إنها معادلة مقدْرة الإنسان طرف فيها، هاه فهمتِ ؟

- أجابت بتردد: ليس تماماً

- قلت: حسناً بسرعة، تخيلي أنك عاصرتِ أحد الأنبياء..

وكنتِ ممن شهد بأم عينيه نزول كتاب من السماء حتى وقع في يده..

وليس هذا فقط بل أمسكتيه بيديك، أفيبقى عندك شك في صدق ما رأيتي؟

- قالت: أبداً !

- قلت مستفهماً: ماذا تقصدين بـ"أبداً"؟

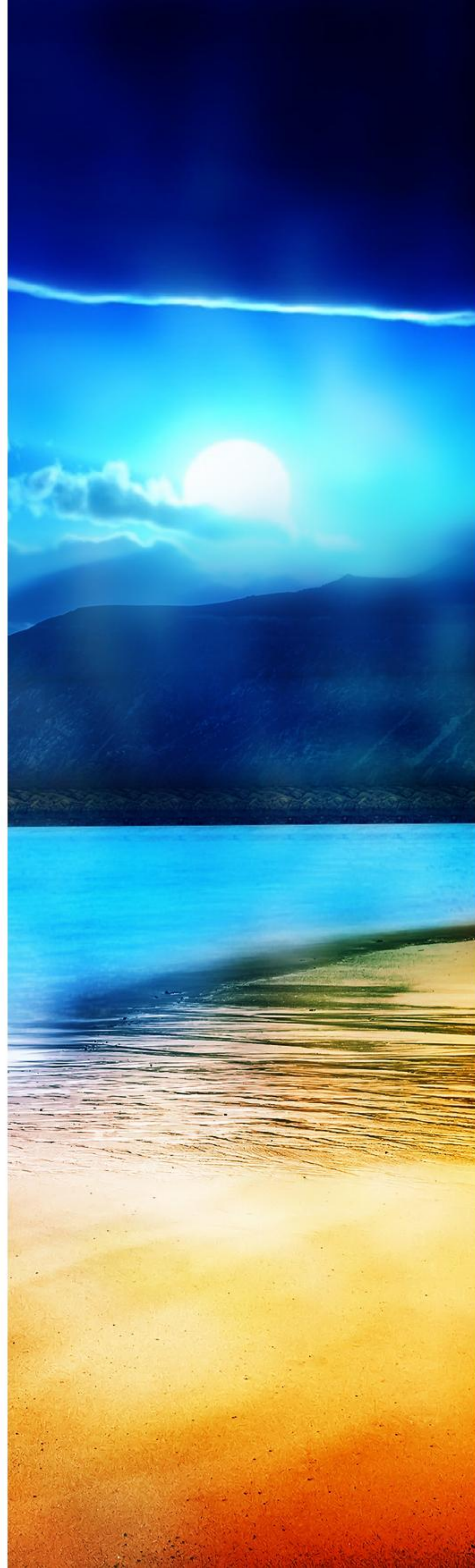
- أجابت: أقصد لا أشكّ في صدق ما رأيت وأمسكت البتة !

- قلت: إذاً إقرأي وتدبري هذه الآية..

(وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ)

صَرَخَتْ: يا الله يا رب..!

يتبع..



أسس العلم التجريبي

رضا زيدان

- قد يعتقد البعضُ أنّ الإلحادَ موقفٌ عدميٌّ لا يحتاج التبرير، موقفٌ مسلّح بالعلم والمنطق، أمّا الإيمانُ فهو موقفٌ إيجابيٌّ إضافيٌّ يحتاج التبرير لوجوده، ويغترُّ المحاورُ المؤمنُ بكثرة الشبهات والاعتراضات المنطقية وغير المنطقية علي الأديان، ساعد علي ذلك أن أغلب الحوارات العربية حوارات ميكانيكية استهلاكية، كالحديث عن تفاصيل نظرية التطور دون طرح الأسئلة الآتية: ما الدليل علي أنّ نظريةَ التطور علمٌ؟ وما هو معيار العلم؟ وما هو أساسه المنطقيُّ؟
ونلخّصُ ذلك في: ما الذي يؤمن به الملحد؟ هل العلم التجريبي معصوم؟

- إنّ دين الملحد يقوم علي الملاحظة والتجربة المتفاوتة؛ فتارة ملاحظة شبه خالصة كعلم الفلك، وتارة تجريبية كالكيمياء، والجمع بينهما كالطب وغيره، كلّ هذا تحت مسمى المنهج الاستقرائي في المعرفة البشرية..
فمثلا: استقراء الإنسان للمعدن أنه يتمدد بالحرارة بتجارب محددة، ثم يعمم علي المعادن هذا التمدد وتُستنتجُ قاعدة: المعادن تتمدد بالحرارة وكل معدن -ولو لم يخضع للتجربة- داخل في القاعدة أيضا، ولكي يقوم العلم التجريبي لابُدّ من عقيدة لا دليل عليها أيضا، تسمى "اطّرادُ الحوادثِ"، وهي الإيمان بأنّ قانونًا مثلَ (المعادن تتمدد بالحرارة..) كان في الماضي هكذا كما هو الآن وكما هو آت.

- والإيمان بالجزء الخارج عن التجربة -وهو باقي المعادن- واطّراد الحوادث هو دوجما التجربة التي يقوم عليها العلم، فهو اعتقاد براجماتي لا دليل عليه، تماما كما يتهم الملحدُ أهلَ الإيمان بأن لا دليل علي وجود اللّه، وكانت صياغة هيوم لهذه المشكلة مرعبة لكافة التجريبين، مما جعل راسل يصف المشكلة بأنها من أكثر المشكلات الفلسفية صعوبة وإثارة للجدل[١].

- وكان تشكيك هيوم هو الهزة الأعنف في تاريخ الإلحاد علي الرغم من كونه تجريبيا متطرفا، وممن نصوا علي أنها عقيدة دوجماتية نفعية تسابيه Farhang Zabeeh وجعل تبرير الاستقراء كتبرير الاستنباط[٢]، وأحيانا ريشنباخ حينما يشعر بأنّ العلم في ورطة يبرر الاستقراء بأنه عادة حسنة وكفى، وحينما يرجع للمنطق يفعل كما حاول الكثير بأن يسقط العلم التجريبي عن مرتبة اليقين إلي الظنية ومفاهيم الاحتمال! [٣].



شذرات معرفية

- وهذا ليس حلا، بل عدم قدرة على الوعي، وستجد كلاما هنا وهناك، الكل يحاول أن يقول شيئا ما، ولكن دون جدوى. فالحل استعصى، مما جعل وايتهلد يقول: الموضة الآن إنكار عقلانية العلم. وسميت المشكلة هذه بأسماء عدة، قريبة من الأسماء التي يطلقها الملاحدة علي شبهاتهم كفضيحة الأديان ونحوه، ومن تلك الأسماء: فضيحة الفلسفة، يأس الفلسفة [٤]، وبكل وضوح يقول راسل: لقد أثبت هيوم أنّ التجريبية المحضة لا تشكل أساسا كافيا للعلم.

لكن إذا سلمنا بهذه القاعدة الوحيدة -الاستقراء- فأيُّ شيء بعد ذلك يتلاءم مع نظرتنا بأن كلّ معرفتنا قائمة علي التجرية؟، ويجب التسليم بأن هذا افتراق خطير عن التجريبية المحضة، وقد يتساءل البعض: لماذا نسمح بالخروج عن نطاق التجربة في هذه النقطة بالذات، ونمنع غيرها كأي إيمان ميتافيزيقي؟!
لا أعتقد أن هذه الحجة يمكن معارضتها، وبغير هذه القاعدة -الاستقراء- يصبح العلم مستحيلا.

- فأين المفرُّ إذا؟

- بالطبع لا يمكن للملحد أن ينتقل إلي المذهب العقلي في المعرفة [٥]، فمن طبيعة الملحد الدنو التام من (الأرض، البيئة، التجربة) ويرفض أي تعالي قبلي أولي عن التجربة، لأن التساؤل سيلاحقه: هل تؤمن بأوليات عقلية متعالية عن التجربة؟
وما مصدرها؟

- فالعقلانية مثلا تؤمن بأنّ الحلَّ المنطقيّ للاستقراء هو القانونُ العقليُّ الأوليُّ السابقُ لأيّة تجربة وهو السببية؛ بمعني أن تؤمنَ بأنّ الكون منظمٌ قابلٌ للفهم، خلقه اللّه هكذا، وليست هناك عشوائية، وليس هناك عبث، كلٌّ يسيرُ وفْقَ نظام محدد، وجُعلَ كذا ليسببَ كذا وكذا، وبالتالي يسلمُ لك التعميم القانوني، أما خلاف ذلك فلن تجدَ سبيلا للخروج إلا الاحتمالية، ومن ثَمّ التنازل عن العرش الموضوعي المزعوم للعلم التجريبي.



المراجـــــع:

References:

(1) Bertrand Russell, “The Problems of Philosophy”, Wilder Publications 2009, p.36.

(2) Farhang Zabeeh, “Hume's Problem of Induction: An Appraisal”, Livingston & King (ed.), p.81.

(٣) ديمني الخولي، "فلسفة العلم في القرن العشرين"، عالم المعرفة، ص٧٥، وللمزيد عن فكرة الاحتمال: يراجع الأسس المنطقية للاستقراء لباقر الصدر.

(٤) السابق، ص٧٨.

(5) Bertrand Russell, “History of western philpsophy”, George Allen & Unwin Ltd, London 1946, p.699.

فردوس بيكون المفقود

حين تحكمنا أخلاق المذهب الوضعي التجريبي..

عمار سليمان

(١)

- في ليلة عنوانها الصمت، وريحها نسمات بعبق الماضي..
يجلس مارسيل على نافذة قرب تغريد الموج، ومغازلة البحر لنظرات البشر، تمر نسمة من عبير الهواء لتلامس جسده، فلا يتذكر إلا مادة الجلد تتفاعل مع مادة الأوكسجين، تطبع معناها على صفحات الدماغ الفارغ، فتنتج فكرا..
(كما ينتج الكبد الصفراء!).

- على جانب آخر من نفس الشاطئ..
يجلس جوزيف يحاكي همس البحر و أشواق الليل، تلك النسمة التي تمر على جسده تترجم إلى لغات عديدة، شعرا مرة و نثرا أخرى..
و كان جوزيف يتعامل مع اللغة على أننا نفكر داخلها [1]؛ فهي البحر حين تصفه، وهي الليل عندما تشكو أرقه، وهي الحزن وقتما تبكي دمعه..

[من هنا بدأت القصة عندما اختلفت زوايا الرؤية]

- كانت تالين تتألق جمالا وطفولة وهي في العشرين، وكان جوزيف يكتبها مع البحر والمطر، فهي حبيبته الصغيرة وضياء عينيه، وكان لا يرد لها طلبا، ويرسمها كلمات كلما خلدت للنوم، بسهوتها الطفولية، التي تحاكي لغة الملائكة، فيكتب ما قسم له القدر من جمالها، ويغفو على خصلات شعرها ليستيقظ على سحر نطقها.

- أما مارسيل فهو صعب المزاج، قليل الصبر، هائج الخاطر، ومعترك الشهوة، ينظر إلى الخلق نظرة المعمل والتجريب، وقد لمح تالين لحظات قليلة، حيث يسكن قرب منزلها، فكانت فكرة الفريسة والبقاء للأصلح بالإضافة إلى روح ميكافيلي تشعل فكره، ويهرب من هذه الأفكار نحو بقايا الضمير الذي ينضب في ذاك المعمل المعتم.

(٢)

- تستيقظ أطلنطس..
وقد اكتنفها الضباب، وترددت الرؤية بين تزاحم ضباب الصباح، تقرأ الأمل على وجوه المارة مع نوع من القلق، جوزيف ينادي تالين، لا إجابة، الثانية والثالثة.. ساوره القلق، رفع الصوت ولا مجيب، يبحث في غرفتها، السرير خاوٍ والنافذة تتلاعب بها رياح الصيف الخفيفة، الجدران كعادتها صماء، والجو كله يزيد القلق في النفس، ارتعد جوزيف.. وتكاثفت أنفاسه متراكمة، حتى بالكاد ينالها، تالين، تاليــــن، تاليــــــــــن.

يهرع إلى الحي و أزقته: يصرخ، ينادي، يناجي، و لا تكاد تفهم ما يقول.

يقابله صديقه ديفيد: ما بك يا رجل تصيح كالمجنون!
- تالين يا ديفيد فقدتها صباحا، ولم أجد لها أثرا، ولم تخبرني أنها تنوي الخروج.

- علّها يا صديقي ذهبت تجلب بعض طعام الإفطار، هلم نبحث من جديد..

تشارك أغلب سكان الحي البحث..
ولكن البحث عاد كصدى صرخة في بئرٍ سحيق.

- صباح يوم الجمعة..
جميع الأجهزة الأمنية في المنطقة تبحث عن طفولة الحي، عن البسمة التي قطفت من بستانه..
العجوز أنطون يتمتم كعادته فيما يفهم ولا يفهم..
بائع الأزهار سالين يراقب المارة وكأنه مخبر، والجو قريب إلى النفس الإنسانية وقت تغرب شمسها وتكتسي ثوب السحاب.

يسمع الضابط أنطون العجوز يقول: لماذا كانت الزهرة تمشي مع ذاك الطبيعي الكريه؟!
وعاد الضابط أدراجه وقال: من هو الطبيعي أيها العجوز؟ ومن هي زهرة؟
ويتمتم العجوز: يا لهذا الضابط الأبله، ففمه منتفخ عند السؤال، تشعر وكأنه سيأكلك عند قذف الكلمات.
- أعاد الضابط السؤال، فقال العجوز: سل بائع الكير (الزهر) فهو يعرفه.
- نظر الضابط إلى سالين فتفرس فيه خيفة، فتحرك نحوه في مناورة لقراءة نفسه، فما كان من الغبي إلا أن حاول الهرب!

(٣)

الضابط: من هو الطبيعي الذي كان يقول عنه ذلك العجوز؟

- إنه صديقي بيكون.

- أيها الأحمق أتسخر مني؟ قل وإلا جعلتك لا تعرف تقاسيم وجهك.

- يا سيدي إنه صديقي مارسيل، وشهرته "بيكون" لحبه للتجريب والعلم الطبيعي.

- وما علاقته بتالين؟!
- لا أدري.

- صفعة قوية كادت أن تسقط أسنان هذا البائع التعيس.

تحذير: المشهد القادم يحتوي على عنف قد لا يناسب بعض القراء

- كل ما أعلمه سيدي أنه اتفق معها أن يجهزوا لعيد ميلاد جوزيف، فتخرج معه ليلاً ليشتروا بعض الزينة، فيجدها عندما يستيقظ، ويدخلُ السرورُ قلبَه، وقد بعْثتُهم بعضَ الأزهار البارحة، وبعدها لا أعلم شيئاً، ولو قتلتني لن تُخرجَ مني معلومة أخرى لأن هذا مبلغ علمي.

- على غير المعتاد.. تداهم وحدة مكافحة الجرائم بيت مارسيل، فتجده يجلس بهدوء، وجهه أقرب إلى لوح من الخشب، أنفه قصير وعيناه جاحظتان كناية عن الأرق.

- أين تالين؟

- وما يدريني سيدي الضابط.

قال سالين: إن آخر ظهور لها معك.
-وكان الحادث مضى عليه عشرة أيام-

- نعم كان بعدها بيوم عيد ميلاد جوزيف، واستشارتني، ونصحتها بالزهور وبعض الحلوى معها القليل من الزخرفة، ثم لم أرها!

- اسمح لنا بالتفتيش.

- تفضل سيدي المحقق.

بعد البحث المضني.. مع عدم العثور على شيء وقبل الرحيل، لاحظ رجل التحقيق منضدة سجائر وكتابًا له غلاف غريب، فاقترب منهما واشتمهما، فإذا فيهما رائحة البشر!

- ما هذا؟
ارتبك مارسيل، وقال: ما ترى.
فأخذهما رجل البحث، وأمر بحجز مارسيل.

وبعد الفحص.. تبين أنها مصنوعة من جلد تالين!!
فأيّ جريمة هذه؟!

المحكمة

(الفصل الأخير)

أمام القضاء محامي الدفاع أبيقوري ميكافيلي يُسمى إيجور، وأما الادعاء فكان للكسير جوزيف.

- سيد جوزيف، تفضل.

جوزيف: سيدي القاضي "إن الشر إنساني و إنساني جدًا" [٢]، وإلا ما توصيف هذه الحالة من الاغتصاب الفعلي لفتاة بعمر الزهور واغتصاب كل معاني الإنسانية بتحويلها إلى مادة استعمالية بمنضدة سجائر وجلد كتاب، أية معرفة هذه التي تغلف بجلد البشر.

جوزيف مكملاً: سيدي القاضي "الإنسان يعترف بالشر، وبالتالي يعترف بوجود حرية اختيار الشر ومسؤوليته عنه" [٣].

القاضي: أخرج سيد جوزيف من الخطب البيانية وادخل صلب الموضوع مباشرة.

جوزيف: سيدي القاضي حجتي إنسانية أخلاقية، لابد من هذه الخطب!

القاعة صامتة.. وكأن حكم الأخلاق اكتسحها.

- القاضي: تفضل سيد إيجور.

إيجور: إن القانون الأول في أطلنطس -العلمية التجريبية- كما قررها الحكماء أنه:
لا معنى إلا للتجريب، والقانون الثاني: أن الكلام عن الأخلاق والما وراء لا معنى له، كما قررت الوضعية المنطقية، أما الثالث: أن البقاء للأصلح، والرابع: أن الميكافيلية هي الحلم الأخلاقي الأعلى، والأخير: أن الحياة والسعادة هي اللذة.

- وبناء عليه سيد إيجور؟

- حسنا سيدي القاضي لنأخذ فعل موكلي حسب هذه القوانين الكلية:
موكلي استخدم الدهاء المصلحي الميكافيلي في استدرج المادة الأنثوية ليجلبها لمنزله، ثم أقام مذهب اللذة باغتصابها على نية حفظ النوع والبقاء للأصلح!

ضجة من أنصار الأخلاق..
فيسكتهم القاضي بمطرقة سندانه.
- أكمل سيد إيجور.

- بعد تمرد هذه المادة دفعها موكلي فارتطم رأسها بالحائط ونزلت جثة هامدة، وكما هو متعارف عليه أن أسطوانة الدفن والطقوس الميتافيزيقية هي أمور غير علمية تجريبية، فقرر موكلي تحويل هذه المادة المنزوعة القداسة إلى منضدة سجائر وغلافًا لكتاب معرفي، ليؤكد ألا صوت إلا صوت التجريب واللذة والمصلحة.



حل ارتباك إنساني في القاعة، أخرسه صوت القاضي: هل عندك ما تضيفه سيد إيجور؟
إيجور: لا.

- وأنت سيد جوزيف؟
جوزيف: يا سيدي، أستنجد بك، حَكِّمْ الضميرَ والمعاني الإنسانية النبيلة، لا تكونوا يا سادتي من أتباع منهج "كل شيء مباح" [٤].

[تم تداول القضية، وخرج القاضي لينطق بالحكم]

- القاضي: حسب قوانين أطلنطس وإرشادات الحكماء، تقرر تبرئة المتهم، وتكريمه بجائزة المدنية كأفضل مُطبق للمذهب الوضعي التجريبي، رفعت الجلسة.

- في الليل..
يتسلل جوزيف إلى غرفة القاضي، وبعد أن قتل حراس منزله يوقظه، فينهض القاضي مفزوعًا.

- ما بك يا بني، لماذا هذه النظرات؟!

- لا شيء سيدي القاضي، فقط أريد تطبيق المنهج الوضعي عليك.

- يا بني أستطيع قلب الحكم و تغييره، فهذا من المصلحة، وهي ضمن قوانين الحكماء.

- اصمت.. اصمت سيدي القاضي!

- يا بني أستنجدك الضمير!

جوزيف وهو يمرر السكين على نحره يردد:

(لا وجود لحكم الضمير في أطلنطس)

المراجع:

(1) John Russon, "Emotional subjects: Mood & Articulation in Hegel's philosophy of mind", International PhilosophicalQuarterly Vol. 49, No. 1, Issue 193 (March 2009).

(٢) مصطفى عارف، "هرمنيوطيقيا الفعل الإنساني : الإنسان الإرادة و اللاعصمة"، مجلة تبيّن للدراسات الفكرية و الثقافية - العدد الثامن - ربيع ٢٠١٤

(٣) الناصر عمارة، "المرض : مقاربة إتيقية هرمنيوطيقية"، مجلة تبيّن للدراسات الفكرية و الثقافية - العدد الثامن - ربيع ٢٠١٤

(٤) دوستويفسكي، "الأخوة كارامازوف"، ترجمة سامي الدروبي، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم.

في نقد التوظيف الإلحادي لمعطيات العلم

د. الطيب بو عزة

تقوم النزعة الإلحادية اليوم على توظيف فيزياء الكم على نحو لا يخلو من غرض أيديولوجي ؛ حيث تقتطع هذه النزعة فرضية محايثة الصدفة للوجود، فتزعم نفي النظام، لتنتهي إلى نفي الألوهية. هذا باختصار هو المسلك المنهجي الذي يشتغل به أحدث تقليعات الفكر الإلحادي اليوم الزاعم أنه مدرك لمعطيات العلم ومستوعب لراهن تحولاته، مع أنه يوظف هذه المعطيات على نحو لم يخطر حتى على بال مبدعيها ومؤسسيها الكبار!

ويتناسى هذا الموقف الإلحادي، أن النزعة الإلحادية في القرن التاسع عشر مع لابلاس وماركس..

كانت ترتكز على الحتمية الفيزيائية من أجل توكيد إلحادها، حتى أن لابلاس عندما سأله نابوليون عن مكان الإله في نسقه الفيزيائي الشبيه بساعة منتظمة قال لا حاجة لي به ؛ لأن الكون منتظم ذاتيا على نحو داخلي! (١)

إن هذا التناقض كاف في تقديري لفضح التوظيف الإيديولوجي ؛ فليست المسألة الإلحادية تعبيرًا عن وعي بمستجدات العلم إنما هي مجرد توظيف لها لتوثيق موقف اعتقادي جاهز مسبق. وإلا لما حصل هذا التناقض التام في استعمال العلم، وأقصد بالتناقض: الاستدلال بنظام الوجود على استغنائه عن أي قوة خارجية -الإلوهية- مع لابلاس ؛ والاستدلال اليوم بالفوضى والصدفة في فيزياء الكوانطا (فيزياء الكم) للقول بعدم وجود النظام، وبالتالي عدم وجود المُنَظِّمِ (الإله)!!

وبين هذا وذاك، أريد في هذا المقال توجيه التفكير نحو ابستملوجيا العلم (٢) للنظر في أسسه المنهجية، وفي مدى اقتدارها على الإجابة عن سؤال معنى الوجود إجابة دينية أو إجابة إلحادية:

(١)

يُحدد الفلاسفة المدلول الغائي للعلم في كونه نشاطا عقليا يستهدف فهم الطبيعة. وبتحديدهم هذا يتضح أن التفكير العلمي يرتكز ابتداء على فكرة مبدئية مسبقة تتمثل في الاعتقاد بقابلية الطبيعة للفهم والعقلنة، وإلا لما جعلها موضوعًا لعملية الفهم والتعقل. وهذا ما يصطلح عليه فلسفيا بمُسلمة محايثة العقل للوجود، أي أن الوجود الطبيعي منتظم على نحو معقول وقابل من ثم للفهم العقلي.

إن هذه المُسلمة الثاوية داخل العقل العلمي هي منطلق مبدئي للممارسة العلمية ؛ وبذلك أريد أن أنبه إلى أن العلم يستوي مع غيره من أنماط التفكير في احتوائه على مسلمات غير مبرهنة، حيث تتخذ منطلقات للبرهنة على غيرها لا على ذاتها. وهذا ما نجد توكيده في النظرية المنطقية، حيث أبان كورت جودل استحالة أن يبرهن نسق معرفي على جميع قضاياه، ومن ثم لا بد للأنساق المعرفية من أن تحتوي على مُسلمات ابتدائية غير مبرهنة (٣).

وهذا الوعي المنطقي إذا أدركه هؤلاء الذين يركنون إلى ظاهر العلم المقتطع من مختصراته المدرسية، الذين يحسبون أن كل معطياته المعرفية مؤسسة برهانيا على نحو قطعي يقيني، سيبدلون من وثوقهم هذا، ويقطعون مع هذا التصور الساذج الذي أقل ما يمكن أن يقال عنه أنه متجاوز اليوم في حقل إبستملوجيا العلم

كيف يقارب العلم الوجود الطبيعي ؟

- إن الطبيعة مجموعة أشياء وظواهر محكومة بالصيرورة، وللإمساك عقليا بهذا الوجود الطبيعي المتحرك كان لا بد للعلم من أن يصطنع أداوت ووسائل لتمكينه من إدراك الكون. ومن بين أهم هذه الوسائل المفاهيم.

فامتداد الأشياء والظواهر يقاربه العلم بمفهوم المكان؛ وصيرورة الوجود -أي حراكه- يقاربها بمفهوم الزمان.. ثم إن تتالي الظواهر واحدة تلو أخرى جعل العلم يصطنع مفهوم العلاقة السببية / الحتمية لعقلنة هذه الصيرورة. وعندما يضع علاقة سببية يحرص العلم على صياغتها رياضيا، حيث ينزع العلم الكلاسيكي نحو تكميم الظواهر بناء على اعتقاده بأن "الكون مكتوب بلغة رياضية" كما يقول جاليليو.

والعلم الغربي الكلاسيكي منذ بدء انطلاقته الفعلية في القرن السابع عشر –مستفيدا من الرصيد الثقافي العربي الاسلامي– قام على هذا التصور السابق إيضاحه، أي انتظام الطبيعة وقابليتها للصياغة والتكميم الرياضيين.



بيير سيمون لابلاس (١٧٤٩ - ١٨٢٧)، رياضي وفلكي فرنسي، لأعماله حول تطوّر الرياضيات الفلكيّة فضل يستحقّ الثناء.

لكن المستجدات التي انبجست منذ بداية القرن العشرين خففت من غلواء هذا التصور الحتمي للوجود الطبيعي، وأدخلت معطى جديدا هو الصدفة، حيث تبين أن الوجود غير قابل للدخول بكل ظواهره ومجالاته ضمن هذه الأطر والمقولات الذهنية التي يعتمدها الوعي العلمي.

(٢)

يذهب علم فيزياء الكم إلى أن المجال ما تحت الذري ليس مجال السببية والحتمية كما هو الشأن في المجال الفيزيائي المألوف لنا في تعاملنا اليومي. لذا نجد هيزنبرغ يؤسس قانون "اللاتحديد" أو "عدم التعيين" كمدخل منهجي ضروري لفهم البنية الداخلية للذرة. وهذا ما فرض من ناحية أخرى اعتماد المقاربة الإحصائية الاحتمالية كميتودولجية منهجية.

والواقع أنه قبل هيزنبرغ، أي بدءا من أبحاث ماكس بلانك، لم يعد يكفي لدراسة الظاهرة الكونية الاعتماد على نيوتن وماكسويل، بل اتضحت ضرورة

الانتقال إلى نموذج معرفي جديد يجاوز مفاهيم السببية والحتمية.

لقد فتحت الفيزياء الكوانطية بكشفها عن المجال ما تحت الذري أمام الوعي العلمي والفلسفي أسئلة جديدة تتمحور حول طبيعة الوجود:
هل هو فعلا وجود منظم؟
أم أن الصدفة جزء أساس من تكوينه؟
وإذا قلنا بوجود الصدفة فهل يعني هذا انتفاء السببية الناظمة للوجود، وبالتالي انتفاء وجود إرادة عاقلة (الإلوهية بالمفهوم الديني) هي التي قامت بتنظيمه؟
قبل النظر في نوعية الجواب الفيزيائي المتداول اليوم حول مسألة الصدفة أريد أن أطرح سؤالا أوليًا أراه مُدخلا لإعادة النظر والتفكير في طبيعة أبحاث فيزياء الكوانطا وهو:
هل فعلا يكشف العالم ما تحت الذري عن وجود فوضى؟
أم أن هذه الفوضى مجرد نتاج ضعف أدواتنا ووسائلنا العلمية في القياس؟

- إن المجال الموضوعاتي للفيزياء الذرية قلب الكثير من المُسلمات والمفهومات والمناهج. بل حتى داخل المنطق، حيث نادى المناطقة بوجوب استبدال المنطق الصوري الأرسطي ؛ لأنه قائم على رؤية قيمية ثنائية (يختصرها مبدأ الثالث المرفوع)، وهو بذلك عاجز عن احتواء هذه الظاهرة الوجودية الجديدة والمدهشة.
وأمام هذه الظاهرة الخارقة لمألوف التفكير العلمي الكلاسيكي ونسقه المنطقي في مقاربته للوجود لم يكن أمام العقلانية إلا أن تقف موقفا من ثلاثة مواقف ممكنة، كما يقول روجر موشيلي:
إما أن تعد الصدفة الملحوظة في بعض ظواهر الطبيعة نتاج جهلنا بقوانين تلك الظواهر وأسبابها. وهذا بالفعل ما يعبر عنه بوانكاري بقوله:"إن الصدفة هي فقط مقياس جهلنا".
والفرض الثاني هو أن الصدفة نتاج تقاطع سلسلتين أو أكثر من الأسباب المستقلة وهذا هو التعريف الشهير الذي وضعه كورنو. [٤]

والفرض الثالث حسب روجر موشيلي يمكن أخذه من تعريف برجسون لمدلول الصدفة [٥]، وهو التعريف الذي مهد لإيضاحه بمثاله التالي: "قطعت ريح شديدة سقفا من القرميد فسقط فوق رجل كان مارا في الطريق فمات." في العادة نقول عن الحادث إنه وقع صدفة . لكن لو أن الريح قطعت ذات السقف وسقط على الأرض دون أن يحدث قتلا، فإننا نسميه حدثا عاديا ناتجا عن قوانين الطبيعة.
ويخلص برجسون من هذا المثال إلى تنبيهنا إلى أمر هام وهو أننا لا نصدر وصف الصدفة إلا عندما يكون ثمة تعلق بمصلحة بشرية . وبالتالي فالصدفة نوع من التأويل البشري يتم خلعه على الظواهر الحتمية.

(٣)

- بالنظر إلى الأبحاث الدارسة لإشكالية فيزياء الكوانطا نرى أن بعض التأويلات المتفلسفة التي أطلقها الفيزيائيون تنزع نحو القول بأن الصدفة هي وجودية وليست معرفية. بمعنى أن الوجود ما تحت الذري وجود خارق للانتظام السببي! وعدم كشف أسباب وأشكال انتظامه ليس نتاج ضعف وسائلنا في المعرفة، بل نتاج طبيعة الوجود ما تحت الذري ذاته.
لكن هل ثمة حقا إمكانية علمية للجزم بهذا التصور؟
هل يملك الفيزيائي المشتغل في حقل الذرة أدوات منهجية تسمح له بالقطع اليقيني الجازم في شأن هذا المجال الوجودي الدقيق الذي يشتغل فيه؟

- أميل إلى الاعتقاد بأن هذا التصور الذي يرجع الصدفة إلى الوجود يفتقر إلى الاستدلال الجازم، فهو مجرد افتراض. وهنا أستحضر جاك هارتونك أحد كبار المتخصصين في حساب الاحتمال، حيث يميز بين ما يسميه بالصدفة الموضوعية الهشة، والصدفة الموضوعية الصلبة ؛ فالأولى تتحصل بسبب ضعف أدوات المعرفة، أما الثانية فهي صدفة أنطلوجية حاصلة بسبب طبيعة الوجود ذاته الذي تنتفي منه السببية. وفي سياق بحثه في هذين النوعين من المداخل المنهجية الدارسة لإشكالية الصدفة في الوجود الطبيعي، ينتهي إلى أن الأمر غير قابل قطعا للبت والتوكيد. فلا يستطيع العلم أن يجزم بأن الصدفة ما هي إلا نتاج ضعف أدوات المعرفة، كما لا يستطيع الجزم بأنها راجعة إلى طبيعة الوجود ذاته ؛ بل كل ما هو ممكن هو اعتبار أحد الفرضين كمُسَلْمة عقلية غير قابلة للبرهنة.

- أرى في قول هارتونك توكيدا لنسبية القدرة المعرفية البشرية، ووقوفا عند محدودية إدراكها للوجود. وفي قوله مقدار كبير من لمسة العلم وحكمة العلماء، ولو أن الداعين للفكر الإلحادي اليوم كان لهم بعض من هذه الحكمة لما استسهلوا هذا التوظيف الإيديولوجي للعلم ومعطياته.
لكن في المقابل إن كثيرا من دعاتنا يقعون في ذات المزلق فتراهم باسم الإعجاز العلمي يقتطعون بضع معلومات معرفية أذاعتها العلوم، فيسارعون إلى أن يؤسسوا عليها تطابقات بِلَيّ أعناق النصوص القرآنية والحديثية، على نحو لا يسمح به العلم ولا النص الشرعي ذاته.

- ينبغي أن نعلم أن سمو وعلو الحقيقة الكلية للوجود يجعل كل مقاربة معرفية لها محكومة بأن تعي إبتداء ان هذه الحقيقة هي أمر إعتقادي لابد فيه من مقدمات توضع موضع التسليم.
ونحن في هذا كمسلمين معتقدين بقرآننا لا نستشعر تجاه أكبر عقل علمي لا أدري، ولا أصغر ملحد يشاكس بمقولات العلم دون فهم أصولها، بأي استصغار ؛ لأننا ندرك أن كل نسق معرفي -علميا كان أو غير علمي- لابد في قيامه المنطقي من مسلمات ابتدائية. والحقيقة الوجودية الكبرى -حقيقة الإلوهية وما بعد الوجود، والقضاء والقدر..- هي أفق ديني يجذب التفكير، ولكن لا يمكن لوعاء العقل أن يشملها ويهيمن عليها بأقيسته واستنباطاته. وكل تنطع لاختزال هذه الحقيقة -على وساعتها وعمقها- بعقلنة تزعم الوثوق و الشمول، فذاك -في نظرنا- سلوك لا معرفي ؛ لأنه ناتج عن جهل بحقيقة العقل ذاته وإمكاناته الابستيملوجية المحدودة بطبيعتها التكوينية، وليس فقط بمحمولها المعرفي.

" وكل تنطع لاختزال هذه الحقيقة -على وساعتها وعمقها- بعقلنة تزعم الوثوق و الشمول، فذاك -في نظرنا- سلوك لا معرفي ؛ لأنه ناتج عن جهل بحقيقة العقل ذاته وإمكاناته ا لا بستيملو جية المحدودة بطبيعتها التكوينية، وليس فقط بمحمولها المعرفي. "

المراجع:

(١) نص العبارة بالفرنسية:
Ne me faut pas de cette hypothése
(٢) ابستمولوجي Epistemology: هو ذاك الفرع الفلسفي المهتم بطبيعة ومنهج ومجال المعرفة. ويأتي فرع الأنطولوجي Ontology في الفلسفة كعلم دراسة وجود الأشياء وكينونتها.
(٣) يُنظر: مُبرهنة عدم الاكتمال الأولى لجودل "Godel's first Incompleteness Proof".
(4) Antony Augustin Cournot, The Creative Power of Chance-P.13
(5) Henri Bergson - Creative Evolution-P.233-234

الكوة الضيقة لمنهج العلم التجريبي

د. هيثم طلعت



يتشنج الملحد قائلا: لا تُحدثني عن الأدلة العقلية، أو البديهيات المنطقية، أنا لا أسلّم إلا بمعطيات العلم التجريبي الوضعي المادي.
ما لا يعرفه الملحد أن مصدر المعرفة في العلم التجريبي الوضعي هو العمل العقلي في مُدخلات الحس والمشاهدة والتجريب، وأساس العلم التجريبي هو البديهيات العقلية والمُسلمات المنطقية، ثم يكون الاستقراء المعرفي بدرجاته، هذه بداية العلم التجريبي ونهايته.

وواقع الأمر أن الملحد كاذب في ادعائه، لأنه يرفض الأدلة الدينية فقط، ولذا فهو يقبل النص التاريخي طالما أن مصدره خارج التأريخ الديني -ويرفض نفس النص التاريخي بنفس درجات الاستقراء وأدوات الثبوتية لو كان مصدره دينيا-، ويقبل الملحد أيضاً الترجيح العقلي والمنطقي بعموم، ويقبل الترجيح الرياضي، ولولا الترجيحات الثلاثة الأخيرة ما قبل بالعلم التجريبي نفسه، لأن أدوات التثبت من معطيات العلم التجريبي هي أدوات عقلية ومنطقية ورياضية.

ولذا نقول للملحد: هل شرطكم في بناء معرفة، أن تكون صحيحة وموافِقة للواقع بدليل علمي صحيح؟ أم تكون مقصورة على جنس البحث الإمبريقي والتجريبية المحضة فقط؟
إن كانت الثانية، وكان كل ما يأتيكم من دعاوى معرفية أخرى مرفوضة، فهذا الشرط ساقط بذاته إذ لا يُتخيل التسليم به مجردا دون تأسيس عقلي ومنطقي ورياضي ومعرفي، دون بديهة أسبقية A-Priori مستقرة في عقل الباحث أو العالم أو الفيزيائي.

المعرفة تعتمد على الهاديات الأربع، العقل والنقل والتجربة والوجدان. فالأدلة المعرفية لا تنحصر في الدليل التجريبي الوضعي، وإلا فما مصدر القيمة الأخلاقية؟ وما مصدر الحِس الجمالي؟

والعلم الطبيعي نحت لنفسه كوة ضيقة (*) بإصراره على:
١- تفرد الخبرة العلمية عن غيرها.
٢- ادعاء انفصال الخبرة العلمية عن التجربة الذاتية.
٣- الحديث عن عالم الحياة في مقابل عالم العلم.
٤- عالم العلم حاضن العقل الوضعي ومتنكر لأي شيء آخر.
٥- عالم العلم بطبيعته يستبعد معانٍ لا تقل أهمية عن خبرات العلم الطبيعي -إن لم يكن أهم-، مثل الغاية والقصد، والتي لا يمكن فصلها عن عالم الحياة باعتبارها لُب عملية الفهم. (١)
ولذا قرر هوسرل ضرورة وضع أسس منهج ظاهراتي لتبدو الأشياء كما تبدو عليه في سياقها الزمكاني بالنسبة لخبرة الملاحِظ، فلابد في رأيه من الاعتراف الحصري بالبُعد التوصيفي descriptive الموضوعي والبعد الذاتي الحياتي.
هذا المنهج الظاهراتي الأقرب للإنسان ولتحليل ظاهرة وجوده يقبل قول النبي صلى الله عليه وسلم لجبل أحد أنه "جبلٌ يُحبنا ونُحبه"، في مقابل البعد التوصيفي للجبل الذي لا يزيد عن استيعابه كذرات متلاحمة في خضم ذرات أخرى تنفصل عنه بنيويًا، فحب الجبل هو خبرة في عين الملاحظ لا يتيحها التحليل العلمي.
ولا عيب في هذا المنهج لعدم الدليل على عيبه، بل العيب في التحليل الجاف، فالصلاة حركات مادية وانحناء أوتار وذبذبات أحبال صوتية، لكنها في الخبرة الذاتية الإنسانية الأقرب للصواب: قُرة عين أو مجرد واجب ينبغي الوفاء به أو عادة أو رياء، وفي كل هذه الخبرات الذاتية هي تحليل إنساني أقرب للعقل، في حين يظل التحليل العلمي الجاف أبعد ما يكون عن الواقع والحقيقة في أصلها، وهنا تكمن المفارقة بين الإنسان وبين العالم المادي.

• إن الاستبداد المعرفي للعلم الطبيعي ولغلاة الموضوعية وضحايا التصور المغلوط للعقل، يسعى لإقناعنا بأن النطاق المعرفي للوجود المنطقي العلمي التجريبي هو أساس كل ما نحتاجه من حق، وأن كل معرفة تزعم الاتصال بغير ذلك النطاق أو تتخطاه مهما دعت الحاجة إليها وأقبل الوعي عليها، هي أساس كل وهم، ويجب أن نقتلها في مهدها أو أن ندير ظهورنا لها إن لم نقدر على قتلها.

فعندما نحت العلم كوته الضيقة الخاصة به اعترف بالعجز عن معالجة الأسئلة الناشئة عن صلة الوعي بمطلق الوجود -أسئلة النشأة والغاية والمعنى والقيمة والأخلاق وكل أسئلة لماذا-،ولم يكتف العلم بعجزه، بل إن كهنته وصموا تلك الأسئلة بالفارغة والتي لا معنى لها، بل تم وصمها بالغير مشروعة، وهذه بعينها مغالطة الاستدلال بعدم العلم على العلم بالعدم، فإن حقيقة قولهم يمكن تصويرها هكذا: لما عجزنا عن معرفة الجواب جاز لنا أن نصف السؤال بغير المشروع والفارغ. لكن مع أدنى تأمل وتنزّل يتبين لنا أن هذه الإجابة تنطوي على مصادرة لأهم ما يميز ويشغل الوجود الإنساني بالكلية، وتنطوي على خطأ بيّن؛ فخبرة عالم العيش أوسع من خبرة عالم العلم ومشتملة عليها، ومن البديهي أن إثبات الأخص -العلم التجريبي- لا يلزم منه نفي الكل -أسئلة النشأة-، بل إن العكس هو الصحيح، ولذا الذي يملك الدين يملك العلم والآخرة معًا، بينما الذي يرضى بظاهر من الحياة الدنيا لا يجيب عن شيء ولن يصل إلى شيء، {يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ}(٧)

فمحاولة تبرير السكوت عن الأسئلة المطلقة الكبرى بحجة البحث في الوجود الخاص -العلم التجريبي- هو محض تحكم ورغبة في اليقين.
وكما قال فريدريك شوماخر-في جمع حافل من العلماء- "محاولة ضغط كل علوم عالمنا في قالب الفيزياء الحسية، سيتحول إلى لعنة يصعب الهروب منها، والأمر أشبه بمحاولة حصر دراسة عمل فني عظيم في دراسة المواد التي يتكون منها". [٢]

• العقل بطبيعته قاصر عن إدراك حقائق الأشياء كما هي عليه في الخارج، فالعقل مثلاً بالنسبة لكانط يُطل على العالم الخارجي عبر ما أسماه بال categories، وتعني مفاهيم أولية للإدراك، وهي تفرض على العقل هيئة لا يتخطاها في فهم الأشياء، هيئة تصله بظواهر لا جواهر العالم، فيعجز الإنسان عن النفاذ إلى حقيقة بواطن الأشياء، وهذه طبيعة العلم ومدى قدرة الإنسان، فهناك طوق معرفي خاص على نطاق العقل وطريقة عمله، فلا يعرف بواطن الأشياء في حقيقتها إلا الله، وفي الحديث النبوي "وأنت الباطن فليس دونك شيء".

وهذا يعني بمنتهى البساطة والجدّية إصابة غرور المؤمنين بكفاية العلوم التفسيرية في مقتل.
صدر مؤخرًا في (٢٠١٢م) كتاب لفيلسوف الوعي الشهير توماس ناجل Thomas Nagel بعنوان Mind and Cosmos: Why the Materialist Neo-Darwinian Conception of Nature is Almost Certainly False.

والكتاب أثار ضجة في الأوساط العلمية والإلحادية، ويمثل ردة صريحة للفيلسوف عن كفاية المذهب الطبيعي، وفكرة الكتاب كما يظهر من العنوان: التدليل على قصور التصور المادي عن الطبيعة.

• فالعلم الطبيعي ليس شيء موضوعي في الخارج نفزع إليه ونتوكل عليه متى شئنا، إن عبارة "العلم سيجيب عن ذلك" تلك العبارة التي يكررها الملحد في اليوم الواحد أكثر من مرة، أضحت عبارة مستهلكة بلا معنى، تعطي للعلم لاهوت مستقل، وتثبت تصرفًا مستقلاً للعلم فهو يُعز من يشاء ويذل من يشاء ويعطي ويمنع، وهذا تدليس من العيار الثقيل فليس العلم مرجع تام الحياد، ولا يمنح سلطانًا ذاتيًا إيجابيًا، فإدراك حقائق الأشياء في الخارج قاصر بقصور العقل البشري، وإلى اليوم نحن لا نعرف ما هي المادة فضلاً عن أي شيء آخر.

يقول سير بيتر مداور Sir Peter Medawer في كتابه نصيحة للعالم الصغير advice to a young scientist: "لا شيء يُفقِد الثقة في العالِم أكثر من ادعائه أن العلم ذاتي وليس موضوعي:

• لا تخرج حالة العلم عن كونها محصلة لحالة من أحوال العقل، والعقل يتلبس بأحوال وتعتوره عوامل وثيقة الصلة بكيان الإنسان كله؛ حاجاته الجسدية، مطالبه الوجدانية، إملاءاته العاطفية، اتجاهاته الفكرية، إلى غير ذلك، وبالتالي يلزم من ذلك أن العلم الطبيعي يعتريه ما يعتري العقل من صروف وأحوال، فإذا أضفنا إلى ذلك الشاهد الكانطي الذي ذكرناه قبل قليل لزم من ذلك أن العلم الطبيعي عرض من أعراض العقل غير معصوم، وهو محصلة اجتهاد يتأثر بالاتجاهات العاطفية والمصالح الشخصية، والأهواء الذاتية، للعلماء والمؤسسات على حد سواء.
• وقد أحسن التطوري الكبير ستيفن جاي جولد حين قال: "لم تصل السذاجة بنا إلى حد الإيمان بخرافة أن علماء العلم الطبيعي نماذج مثالية للموضوعية غير المتحيزة، أو أنهم منفتحون بدرجات متساوية على كافة الاحتمالات، أو يصلون إلى النتائج على قدر الدليل، نحن ندرك يقينًا أن التحيزات تلعب دورًا قويًا في عملية الاكتشاف". [٣]
الذاتية والموضوعية لا تنفصلان!
علينا أن نعلم أن الموضوعية ليست نقيض الذاتية، وإلا ما اجتمعتا في النفس طرفة عين، وإنما صورة من صورها ومرتبة من مراتبها، مثل أن اليقين درجة من درجات الظن.

• فلا يوجد خندق فارغ بين العالم الذاتي والموضوعي، بل هما متداخلان إلى أبعد حد في النفس البشرية سواء نفس عالم أو عامي، بل إن الذاتية أصل الموضوعية وليس العكس، فنحن نقترب من الحقيقة ويمكن أن نصل إليها، وحين نصل إليها تكون مرتبة من الحقيقة تتلاءم مع تركيب عقولنا، وكما قال كانط: "إن الحقيقة تابعة لتركيب عقولنا". [٤]

فاتصالنا بالحقيقة يكون على الوجه الذي تأذن به بنية العقل، وهو وطيد الصلة بما ذكره ابن تيمية من استحالة مطابقة الحقيقة الذهنية للحقيقة الخارجية من كل وجه، وهذا لا يثبت نسبية كلية للحقيقة وإنما نسبية لطبيعة إدراك النوع الإنساني من جهة، وطبيعة الأشياء في حقيقتها من جهة أخرى.

• إذًا إدراك العقل للعلم الموضوعي بطريقة كلية الحياد هو خرافة، مَن يتبناها يجهل طبيعة العقل وطبيعة العلم، فنحن قد قررنا أن العقل لا يعمل كبرنامج حاسوبي صرف، وإنما هو تداخل تام بين الفكر والعاطفة بحيث لا ينفصلان، ثم إن العلم الطبيعي لا يستقل بوجود خاص، وهو ليس أكثر من عرض من أعراض العقل، والعقل عرض من أعراض النفس، وبالتالي يعتريه من التدرج ما

يستعصي على الحصر، ثم إن عالم الحياة سابق على عالم العلم كما فصّلنا، ثم عرجنا على الانفصام المتوهم بين الذاتي والموضوعي فرأينا أنهما أحوال للإدراك على مخبار مُدرج، وفي قمة الموضوعية يكون استيعابنا للحقائق بالقدر الذي يأذن به العقل.

• وأصل الصراع بين التنويريين والرومانسيين مرجعه إلى الصراع بين الذاتي والموضوعي؛ فالرومانسيون يحاولون حماية الذاتية من جفاف الموضوعية، والتنويريين يتعاملون مع الموضوعية على أنها شيء مطلق متجاوز ترانسندنتالي.

لكن حدود العلم الطبيعي الموضوعي غير واضحة ومناهجه غير منضبطة، فمن المستحيل والحال هكذا أن نصم العلم الطبيعي بالموضوعي فضلاً عن أن نصمه بالمطلقية المتجاوزة.
فتخوم العلم الزائف متداخلة بشدة مع تخوم العلم الطبيعي، فنحن إلى اليوم نكاد نجزم أن نظرية التطور علم زائف بلا دليل تجريبي واحد يدعمها ومع ذلك يعتبرها غيرنا علم حقيقي يمكن النقاش حوله.

ولذا يقول فيلسوف العلوم الكبير لاري لودان Larry Laudan: "لكي نُحسب في عداد العقلاء علينا أن نُسقط من معاجمنا مصطلحات من مثل علم زائف وغير علمي، إنها تعبيرات جوفاء تقدم لنا خدمة عاطفية فقط". [٥]

فمن الخانق التحكم في جنس العلم ومحاكمة جنس المعرفة بناء على فرضيات ومقدمات ظنية، مثل فرضية القابلية للتخطئة عن بوبر falsification، وهذا نفس ما نادى به لاكتوس Lakatos فالغلو في تبني افتراضات لحدود العلم الطبيعي ربما يحرم الإنسان من طرق أكثر وثوقية للمعرفة، وهذا الأمر يتفق عليه الآن كثيرون من فلاسفة العلوم أمثال بول فيرابند ونيكولاس ماكسويل وغيرهم.

فمنهج العلم الطبيعي نفسه غير منضبط، مما يجعل سؤال التمييز بين العلم الحقيقي والعلم الزائف ليس مطلب منطقي.

من المهم هنا أن نوضح أن الذي يضع مناهج العلم الطبيعي هو فلاسفة العلم الطبيعي وليس علماء العلم الطبيعي، فالذي يضع الأطر الآن فلاسفة العلم وليس العلم ذاته.

وهذا يؤكد على حقيقة هامة وهي أن المنهج المعتمَد للعلم غير ذاتي؛ أي غير قادر على تبرير نفسه أو وضع أطره بذاته بل يعتمد على شيء متعدي -فلاسفة العلم- لوضع أطره الذاتية وهذه نقطة ضعف قاتلة في المنهج العلمي المعاصر، فهو يزعم المطلقية ويبرر لها من خلال شيء متعدي غير مطلق وهو فلاسفة العلم.
فكما فعل كارل بوبر من وضع معيار القابلية للتخطئة، وكما صنعت الوضعية المنطقية من وضع فكرة فحص المقولات Peer Review، وهنا ننبه على الفرق بين التحقق verification والتخطئة falsification؛ فالأول ألصق بالممارسة المنطقية الوضعية، ولكن لو طبقنا هذا القيد على نظرية التطور بما تحمله من استحالة التحقق verification فهو ما يجعلنا نؤكد طبقًا للمنهج العلمي ذاته على زيفها، ومع ذلك يصر غيرنا على حقيقيتها، وهنا نؤكد على اختفاء التمييز بين الحقيقي والزائف.

• تعتمد ممارسات العلم الطبيعي كما نعرفه اليوم على الفرضيات الكلية للمنهج التجريبي المعياري Standard Empiricism، والذي هو بحسب ماكسويل: "المذهب الذي يقول بأنه في العلم لا يمكن قبول فرضية ذات بال عن العالم كجزء ثابت في المعرفة العلمية من غير دليل، ومن باب أولى إذا انتهكت الدليل".
وعندما تم تقييم هذا المنهج المعمول به في العلم التجريبي المعاصر؛ عندما أعيد تقييم هذا المنهج على يد ماكسويل ذاته، اكتشف عشرة إشكالات جوهرية لم يتمكن المنهج المذكور من حلها، ودعاها إخفاقات المنهج التجريبي المعياري the failings of standard empiricism، وهي موزعة كالتالي: ثلاثة إشكالات تتعلق بالاستقراء induction، وإشكالان في طلب البساطة simplicity، وإشكالان يمسان قضية الدليل evidence، وثلاثة إشكالات في أطروحة تطور العلم scientific progress.

• ثم إن المنطقية الوضعية لا تنفي إمكان المعرفة خارج الإطار الذي يوفره العلم التجريبي، لكن لما كانت الوضعية المنطقية بطبيعتها التي يمثلها البشر العاديون، فإنها تجاوزت المسموح وصارت تقلل من شأن بقية المعارف نظرًا لطبيعة دعاتها في محاولة اختزال غيرها من أدلة وطرق للمعرفة.
فالمنهج العلمي المنطقي الوضعي يفتقر إلى ضابط جامع ينفي عن الفرضيات التي تقود العلم الطبيعي خلل الاضطراب وآفة الاعتباط في قبول أو رفض النظريات.

• فالمنهج التجريبي بحد تعبير ماكسويل نفسه يروم النزاهة إلا أنه ميئوس منه وخادع، فهو يروم مثلاً النظرية البسيطة على النظرية المعقدة وكأنه صاغ فرضية ثابتة عن العالم استقلالاً عن الدليل، وهذا يعني خرق المنهج التجريبي ذاته، بل إن المنهج التجريبي بهذه الصياغة حين يتعامل مع نظرية معقدة فإنه يقوم على ما يكره.



والمدهش حقًا أن المنهج التجريبي لا يعترف بأية فرضية تستعصي أو تمتنع على الدليل، لكنه هو ذاته قائم على فرضيات من هذا القبيل، فلا يقوم المنهج التجريبي إلا على:
١- افتراض أن هناك في الخارج توجد أشياء مستقلة عنا تُسمى حقائق.
٢- أن هذه الحقائق تستحق اهتمامنا.
٣- أن هناك شيء يميز فهمنا لتلك الحقائق.

يقول الفيزيائي روبرت لافلين: "علماء الفيزياء يقومون على فرضية مسبقة أن العالم دقيق ومنظم، وأن أي فشل للعلم في تعزيز هذه الرؤية هو قلة إدراك بسبب عدم الدقة في إجراء القياسات الكافية". (٦)

وعالم الفيزياء الشهير بول دافيز Paul Davis يُسلم بمعقولية الكون قبل البدء بممارسة العلم كحقيقة خارجة مستقلة وتتيح نفسها للفهم بنفس المقدار. لا يمكن تصور قيام علم تجريبي من دون إيمان مسبق بهذه الفرضيات السابقة، وكأن هذه الفرضيات في حكم القبلية البديهية A-periori التي لا يقوم علم تجريبي بدونها.

ثم قل لي: هل علوم مثل "علم النفس، اللسانيات، الاجتماع" هل تدخل في نطاق العلم الطبيعي أو العلم الزائف؟ إن التمييز الحاد مستحيل وغير منضبط، وفي مثالنا هذا ينهار. وحينها يصبح تخلف التناسب incommensurability بين ما هو علمي وما هو غير علمي حقيقة، ويصبح من الصعب تمحيص إحدى النظريتين في ضوء نظرية أخرى.

وينص مبدأ التناسب commensurability أنه إذا كان لدينا نظريتان علميتان متعارضتان وتعذر الترجيح ساعتها لا يعمل مبدأ التناسب ويتوقف، وهل تخرج النظريتان خارج إطار العلم؟ على خلاف بين العلماء؛ يقول فيلسوف العلوم فيرابند: «لا يوجد شيء اسمه نظرية علمية للعالم، وهذا لا يمنع أن هناك أشياء نتعلمها من العلم، ولكن أيضا نحن نتعلم من الدين وبقايا الفلسفات القديمة، لا يوجد مبدأ أو مجال موحد موضوعي يصرفنا بعيدًا عن متجر الدين». (٧)

بل إن العلم الطبيعي بأشخاصه وأدواته ومناهجه وغاياته ومؤسساته صار يمارس استبدادًا فظيعًا، خاصةً عندما يدعي احتكاره لسلطة التمييز بين ما هو مشروع وممنوع في حق المعرفة، ولذا افتتح فيرابند كتابه Against Method بدعوى أن الأصل في العلم الطبيعي أنه فوضوي وغير منضبط بأصل، فلا وجود للنظرة العلمية كنموذج paradigm متماسك كامل في ذاته، منضبط تفسيريًا ووظيفيًا، بل تخومه كما فصلنا تتداخل بشدة مع تخوم العلم الزائف واللا علم.

- تشظي المعرفة التجريبية:
جُل العلم الطبيعي مركب من أوضاع معرفية مكتسبة ومتغيرة، فهو ليس كتلة معرفية صلدة موحدة monolithic، بل هو يعاني من انقسامات وتعتريه انشطارات، وتنتابه أزمات وينطوي على ثغرات متعددة، سواء على مستوى المنهج أو على الممارسة الفعلية لآحاد المؤسسات العلمية أو على مستوى النظريات أو على مستوى تطوره من منظور تاريخي، من هذا المنطلق يمكن أن يحدث التعارض بين الوضع المعرفي المنتمي للعلم الطبيعي والوضع المعرفي المنتمي لبقية العلوم، ولذا قفزت المدرسة الظاهراتية التي تحدثنا عنها في بداية المقال لانتشال الخبرة البشرية من براثن العلم الطبيعي، حتى تتم إعادة الاعتبار للمنطلق الأخلاقي والخبرة البشرية والوجدان والفطرة.

يقول عالم الأحياء التطوري الشهير هنري جي Henri Gee وأحد كبار المحررين في مجلة Nature الشهيرة يقول: "من الأخطاء التي يقع فيها الناس، وأنا أضع العلماء والصحفيين ضمن كلمة ناس لأنني هكذا أكون مُحسنًا، من الأخطاء التي يقعون فيها اعتقادهم أن العلم الطبيعي كله معنيّ باكتشاف الحق، بل يذهب العالم الملحد ديفيد سلون David Sloan إلى أبعد من هذا فيصف العلم بأنه دين يجعل مطلبه إلهًا، ولكن العلم ليس شيئًا من هذا القبيل، والوصول للحقائق مفهوم يُفضل تركه لعلماء اللاهوت والفلاسفة، فمن الأفضل النظر إلى العلم ليس على أنه دين وإنما على أنه عملية عقلية، ليس هدفها البحث عن الحق، وإنما هدفها قياس كمية الشك". (٨)
ويقرر الملحد ديفيد سلون أن الإلحاد أيضًا تحول إلى دين ويرى أن المرء العاقل "سيكون مُغفلاً إذا ما افترض أن الإلحاد يكافئ العقل الخالص لمجرد أنه لا يستدعي الإيمان بأية آلهة". (٩)

نعود للعلم موضوع المقال ونقول: العلم يؤدلَج ويؤدلج لأنه يرتبط بأشخاص، وليس مرتبطًا بمُثل أفلاطونية، والعلم أسير المرحلة واللحظة التي تهيمن على سياقه التاريخي، وبالتالي أوضاعه المعرفية عرضة للإخفاق والظن والمغالطات والتخمينات والأساطير والخرافات، ما يداني القدر الذي نقموا جنسه على أنواع الملل والديانات.

يُحكى أن سيجموند فرويد بعث رسالة خاصة إلى أينشتاين يسأله فيها عما إذا كان يمكن للنظريات العلمية أن تُصبح أساطير من حيث لا نشعر؟! ويعلق الفيلسوف الموسوعي إدغار موران على هذه الحادثة بقوله: "هذا التساؤل يستحق أن

يُطرح، صحيح النظريات العلمية في سمائها المفتوحة والدنيوية هي الطرف النقيض للأسطورة، ولكن في نواتها منطقة معتمة تستطيع أن تحوي خميرة تحول الفكرة التي أصبحت سائدة إلى أسطورة، وهكذا أصبحت أفكار غاليليو ولابلاس ونيوتن عن النظام الرياضي للعالم أساطير". (١٠)

• لكن المُربك حقًا أنه لو تحولت الأصول العلمية إلى أساطير فإن وعي الكثيرين لن يستوعب ذلك، وستتعرض الأفكار الجديدة لمحاربات من قِبل المجتمع العلمي.

مثلًا ظل نموذج بطليموس قرونًا طويلة سائدًا، وكلما اتسعت الاكتشافات يتم تكييف التفاصيل حتى تنضبط مع النموذج المعياري المهيمن لبطليموس-الأرض مركز الكون-، ويمكن في أيّة لحظة أن تعود النظرية للثبوتية، فليس بمقدورنا أن نتيقن من هذا أو خلافه إلا برصد الظاهرة في علاقتها بالنظام برمته وهو متعذر.

• المهم أن للعلم دجاجلته كما للوثنيات كهنتها؛ فبين وَهْم الفلوجستون Phlogiston وكذبة البلتداون piltdown وأحجية البانسبرميا panspermia وتزييف أرنست هيكل Ernest Haeckel وشطحة تيكتاليك tiktaalik وتخرصات لورانس كرواس، بين كل هذا يقبع العلم معترفًا بوجود كهنة مكرة في كنيسته يروجون ويكرزون للسخافة بلا وعي.
يقول كارل بوبر علميًا: "أبدًا لن نتيقن تمامًا من أننا لم نقع في الخطأ، وهذا يعني أننا لن نتأكد تمامًا أننا لم نُخطئ حتى لو اتخذنا أقصى قدر من الحذر". (١١)

يقول الفيلسوف نورمان كامبل: "العلم درس فكري خالص، غايته تلبية حاجة العقل لا حاجة البدن، إنه لا يروق لشيء كما يروق للفضول النزيه للإنسان". (١٢)

• فهنا كامبل يستبعد مسائل كالأخلاق والقيمة عن العلم وهو الحق الذي لا مرية فيه، والعلم هو مجرد خبرة مجتزأة من الخبرة الإنسانية، لا يجوز أن يخرج على هذا السياق ولا أن يتضخم.
يقول نورمان كامبل: "يستحق رجال العلم الطبيعي القدر الأكبر من اللوم إزاء التخليط الذي نعترض عليه، لقد اعتادوا إلى حد بعيد فرض استنتاجاتهم على مجتمع العوام والمترددين، إلى درجة أنهم مُعرَّضون لتخطي حدود ميدانهم الخاص، إنهم ينسون أحيانًا أنهم لم يعودوا خبراء فور مغادرتهم لمختبراتهم، وأنهم فيما يتعلق بالأسئلة الأجنبية على العلم لا يستحقون أن يحظوا باهتمام يفوق ذلك القدر الذي يستحقه غيرهم". (١٣)

• إن التداعيات التي خلفها المنهج ما بعد البنائي post-structuralist على التصور المألوف للعلم والدرس الذي أعطاه لدعاة موضوعية العلم التجريبي لن يُنسى، فقد أكد المنهج ما بعد البنائي أن العلم يمتنع عليه سمة التفرد التي يدعيها في تحصيل المعرفة، فالعلم يقوم على فرضيات منهجية ووظيفية ودلائلية ونطاقية، بحيث تجعل هذه الفرضيات من العلم شبحي المُعطى لا يحق له الاستبداد tyranny بالمعطى المعرفي، أو ممارسة أيّة صورة من صور القوة، فيصدق عليه أنه مروية arbitrary narrative كسائر المرويات التي يؤلفها الإنسان عبر الأزمان. (١٤)

• ويتكئ كل مُنظري العلم الطبيعي على النجاحات المحلية Parochial التي حققها العلم في نطاق وجودي محدود limited ontological sphere، مما يجعل من اعتقادهم بموضوعية العلم مجرد دوغما واهمة، من أجل ذلك نادى جورج كونغليم Georges Canguilhem فيلسوف البيولوجيا الفرنسي إلى ضرورة إدخال مفردة "أيديولوجيا العلم" إلى معاجمنا. (١٥)

- الخاتمة:
العلم لا يُغطي إلا جانبًا ضيقًا جدًا من حقل المعرفة، وهو ليس موضوعي وإنما ذاتي، يخضع للرؤية البشرية وتحلله القدرة البشرية، فعلى العلم أن يُنشئ ممارسته الخاصة وطريقة تواصله الخاصة ومجتمعه الخاص وجماعته الخاصة، لا أن يحتكر جميع الأوضاع المعرفية، ثم يدعي الموضوعية، بل ويصم غيره بالحدسية غير المنضبطة وغير المعرفية، لذا فمطلب الألفية الثالثة هو عزل العلم عن الدولة.
فالخبرة العلمية قاصرة بقصور الإنسان، وعاجزة عن استكناه ذاتها قبل غيرها، وغايتها الرصد وليس اختراق المرصود أو الحلول فيه لتبينه. لذا فمحاولة إصدار أحكام شمولية universalist-absolutist هو تصرف لا مبرر له، فمِن أين للإنسان البرهان الضروري على أن خبرته هي الأساس في فهم الأشياء؟!

لذا يعبر القرآن الكريم عن هذا الشعور الوهمي بقدرة الخبرة البشرية على إعطاء أحكام مطلقة، يعبر عنه بلفظ السلطان authority {الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم }(٣٥) سورة غافر، فهذا التخويل المقترن بذلك السلطان يُمنح من سلطان يتجاوزنا، وليس شيئًا نمتلكه {أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون} (٣٥) سورة الروم، فمجموع قيم هذا العالم لا تجد معناها إلا خارج هذا العالم لا داخله، لأنها في ذواتها أشياء اتفاقية غير مقصودة، والاتفاقي لا يبرر ذاته بذاته.

(*) هذا الجزء من المقال من وحي كتاب:
عبد الله بن سعيد الشهري، "ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان"، مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى ٢٠١٤، بتصرف.

المراجع:
(١) إدموند هوسرل، "أزمة العلوم الأوربية والفنومينولوجيا الترانسندتالية"، ترجمة: د. إسماعيل مصدق، المنظمة العربية للترجمة، ص٣٤.
(2) E. F. Schumacher, "A Guide for the Perplexed", Harper Perennial; Worn Condition edition (May 31, 1978), p.117.
(3) Stephen Jay Gould, "Wonderful Life: The Burgess Shale and the Nature of History", W. W. Norton & Company (September 17, 1990), p.244.
(٤) يوسف مكرم، "تاريخ الفلسفة الحديثة"، مكتبة الدراسات الفلسفية، ص٤١٩.
(5) Larry Laudan, "The Demise of the Demarcation Problem", In Robert S. Cohen & Larry Laudan (eds.), "Physics, Philosophy and Psychoanalysis: Essays in Honor of Adolf Grünbaum", D. Reidel. 111--127 (1983).
(٦) روبرت ب. لافلين، "كون متميز: إعادة ابتكار الفيزياء من أساسها"، ترجمة: عزت عامر، المركز القومي للترجمة، ص٣٦.
(7) Paul Feyerabend, "Against Method", Verso; Fourth Edition (May 11, 2010), p.261.
(8) Gee, H. (2012) "Different Kinds of Truth", the Guardian, Friday 31 August 2012.
(9) Sloan, D. (2012) "Atheism as a Stealth Religion" ; Hoffpost, Posted 12/14/07.
(١٠) إدغار موران، "المنهج: الأفكار: مقامها، حياتها، عاداتها وتنظيمها"، ترجمة د. جمال شحيّد، المنظمة العربية للترجمة، ص٢١٣.
(١١) كارل بوبر، بحثًا عن عالم أفضل، ترجمة: د. أحمد المستجير، ص١٥-١٤.
(12) Norman Campbell, "What is Science?", Kessinger Publishing, LLC (November 3, 2007), p.1.
(13) Ibid, p.163.
(14) George Lakoff and Mark Johnson, "Philosoohy in the Flesh", Basic Books (October 8, 1999) p.467.
(15) Ibid, p.44.



العلم بين الإيمان والإلحاد

أبو حب الله

قبل البدء..

لنتخيل معًا شابًا باحثًا مُحبًا للعلم وقد ملأ الإعجاب قلبه بمحرك السيارة وأراد الوقوف على سر عمله (ولنعطي هذا الشاب مثلا اسم س)، حيث جمع الشاب (س) مبلغا من المال واشترى بالفعل مُحركا من أحد المعارض الهندسية وعكف عليه كامل وقته ليفك أجزائه جزءًا جزءًا إلى أن وصل أخيرًا لفهم كيفية عمله وتشغيله..

هذا الموقف للشاب (س) سيكون محور الأمثلة معنا في هذا الموضوع بإذن الله. وذلك بعد استبعاد الفرض الإلحادي العجيب في أن تصميم المحرك والمكون المعرفي الموضوع فيه، لا يحتاج إلى مصمم أو صانع.

١- معنى العلم:

العلم في اللغة العربية هو الإحاطة التامة بالشيء وحقيقته وكلياته وجزئياته، وهو بذلك المفهوم أكبر من مجرد المعرفة بالشيء والتي تنحصر في الإدراك الجزئي أو البسيط له، فعلاقة الشاب (س) بالمُحرك مثلا قبل فحصه والوقوف على سر أجزائه كلها توصف بأنها معرفة، وأما بعد إحاطته بكل هذه التفاصيل فتوصف بأنها قد صارت علمًا، ولذلك يوصف الله تعالى دومًا بصفات العلم ولا يوصف بصفات المعرفة فيُقال في حقه مثلا: "عالم" "عليم" "علام" "يعلم"، لأنه المُحيط بكل شيء سبحانه أو كما قال: "وأن الله قد أحاط بكل شيء علمًا" الطلاق ١٢، في حين أن أعلم البشر دينيًا أو دنيويًا لا يصح أن نصفه بأنه يعلم الله! وإنما نصفه فقط بأنه عارف بالله، لأنه لا يُحيط أحدٌ علمًا بالله تعالى أبدًا أو كما قال سبحانه: "يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علمًا" طه ١١٠.

- وجدير بالذكر هنا أن كلمة علم بهذا المفهوم العربي والإسلامي هي أكبر من كلمة (Science) في اللغة الإنجليزية وأوسع منها شمولا وإحاطة، ولذلك فإن الأقرب إلى معناها هي كلمة (knowledge) رغم استخدام الإنجليز لها كثيرًا كمرادف لمعنى المعرفة!! ولذلك نجد كلمة عالم في لغتنا العربية هي أوسع استخدامًا في معانيها وتنوعاتها الدينية والدنيوية من كلمة (Scientist) وهي الحديثة نسبيًا في اللغة الإنجليزية وتعني المُتخصص في العلوم الطبيعية فقط.

٢- بحث الإنسان في العلل والأسباب.

لا شك أن علم الإنسان بشيء ما وإحاطته به لن يتحقق إلا بالبحث في علله وأسبابه للوصول في النهاية إلى رؤية شاملة عنه وإحاطة تامة به، وهي الرحلة التي تبدأ من المُلاحظة والبحث والتجريب في توصيف الشيء وبيان كيفية عمله، وتنتهي إذا استطعنا الإجابة عن الغاية أو لماذا وجوده أو حدوثه؟ وبذلك نرى أن صنفيّ العلل التي يُمكن للإنسان البحث فيها هي علل فاعلة وعلل غائية.

فالعلة الفاعلة: هي الوقوف على وصف الشيء وكيفية عمله ووقوعه -وذلك مثل الطبيب الشرعي الذي يدرس الجريمة ويصف ملابساتها بكل دقة-، وهي تستلزم أن يكون الشيء أو آثاره المادية محل الدراسة هي موجودة بالفعل ومرصودة أمام الباحث. ولكن لا تستلزم معرفة الفاعل أو الصانع نفسه في دراستها، وقد رأينا عدم تأثر الشاب (س) في كشفه لكيفية عمل المُحرك بمعرفة صانعه أم لا. وكذلك لا تتوقف صحة البحث فيها على مُعتقد الباحث أو دينه أو مذهبه في الحياة؛ متدين، ملحد، لاديني.. إلخ. فالكل من المُفترض أن يُعطي نفس النتائج إذا اتبع نفس السلوكيات ومنهجية البحث.

- وأما العلة الغائية: فهي الوقوف على غاية الفاعل من الشيء ولماذا، وذلك مثل الشرطي المُحقق الذي يكشف شخصية المُجرم ودوافعه ونحوه، وهذه العلة -وبعكس العلة الفاعلة- تتعلق بالبحث في الغائب عن حواس الإنسان الخمسة: السمع والبصر والشم والتذوق واللمس، وهو الفاعل غير الموجود أو دوافعه غير المادية. ويمكن تمثيلها في حالة الشاب (س) بمعرفة شخصية صانع المُحرك أو دوافعه لصنع المُحرك أول مرة ماذا كانت؟ وهنا نجد اختلافا عن العلة الفاعلة في تأثر العلة الغائية بمعتقد الشخص ونظرته إلى الوجود.

فوقوع زلزال ما مثلا، فإنه تستوي معرفة كيفيته الجيولوجية ووصفه الطبيعي عند العالم المؤمن أو الملحد، فإذا جئنا إلى تفسير الغاية أو لماذا وقع الزلزال في هذا الوقت تحديدًا أو هذا المكان فيُصيب بضرر -كتهدم البيوت وابتلاعها وموت الناس- أو يُصيب بنفع -كظهور بعض كنوز الأرض أو المتحجرات الهامة-؟ فهنا يبدأ الخلاف في الظهور بين المؤمن ويقينه من أن كل شيء في الطبيعة يجري بإرادة ومشيئة الله وحكمته، وبين الملحد الذي يُريد أن يتخيل العالم وكأنه مُحرك آلي بلا غاية ولا هدف حيث تنتهي علومه بمعرفة كيفية عمله وفقط!





فإذا استوعبنا ذلك: سقط أول خلاف مزعوم بين العلم والإيمان، حيث في الوقت الذي نجد لدى المؤمن إجابة عن كل من العلة الفاعلة والغائية لهذا الزلزال مثلا، نرى الملحد وقد تعمد استقطاع العلة الغائية فقط من كلام المؤمن ليوهم الناس أنها هي الإجابة الوحيدة التي لديه لتفسير وقوع الزلزال! وأنها بذلك تكون -بالطبع- إجابة غير علمية لأنه لا يمكن رصدها ولا التحقق منها تجريبيًا! فنقول له: إنه كما ذكر الله تعالى في قرآنه للناس أنه هو الذي يُنزل المطر رحمة بهم أو عذابًا عليهم (علة غائية)، فقد ذكر في آيات عدة أخرى تفاصيل نزول هذا المطر ودورته في الطبيعة بكل إعجاز (علة فاعلة)، فلماذا أظهرت الأولى وأخفيت الثانية؟!

٣- حدود العلم الطبيعي وحدود الدين.

ومن الشرح السابق نرى أن حدود العلم الطبيعي، وهو النظر في الموجودات من حول الإنسان، تنحصر في البحث عن العلل الفاعلة في الأشياء، وذلك لغرض فهمها وتفسيرها واستخراج قواعدها وقوانينها، إما لتجنب أضرارها وإما لتطويع فوائدها، فضلا عن إرضاء الفضول العلمي، وتعد أدوات العلم الطبيعي في ذلك هي حواس الإنسان التي يقودها عقله لتحليل بياناتها ومُدخلاتها وتصميم تجاربها، ثم تدوين مُلاحظاتها للخروج في النهاية بالنتائج والتفسيرات والنظريات أو القوانين.

وبذلك فإن العلم الطبيعي له شقان، شق مادي تجريبي مُتعلق بالحواس والرصد، وشق عقلي بحت في الملاحظة والاستدلال والقياس والاستقراء والاستنباط، ثم الاستنتاج وتعميم الفرضية أو القانون.

وأما الأديان، والتي يقودها عمومًا الإيمان بخالق، فهي تشمل حدود الموجودات المادية وتجعل منها أداة عقلية دالة عليها، ثم هي تتخطاها إلى ما وراءها من فاعل مُريد وغايات، وهي بذلك تتعدى حدود حواس الإنسان لتصب في استخدامه لـ (عقله) المتدبر المُحلل المُفكر في كل ما حوله من أشياء وعلاقات، للوصول منها إلى صفات عامة

يقينية عن الخالق أو الصانع، فتثبت وجوده حتمًا وربوبيته في الوجود -تمامًا كما يستطيع (س) الاستدلال على وجود صانع بالتأكيد للمُحرك، بل ويستطيع كذلك استنباط العديد مِن صفات هذا الصانع مِن غير أن يراه أو يحيط به كله، مِثل أنه لديه صفات علم وحكمة ودقة وتقدير وقدرة وقوة على تشكيل المواد وتركيبها.. إلخ-، ثم تأتي مِن بعد ذلك رسالات الرُسل لتخبرنا بمُراد الخالق مِنا، والكيفية التي يريدنا أن نعيش عليها ونتصرف لنحقق إرادته فينا -وهو ما لا يمكن أن تصل إليه أبحاثنا في العِلل الفاعلة ولا في العلوم الطبيعية ولا حواس الإنسان بمفردها كما قلنا-، وهكذا يُمكننا تمثيل العلم الطبيعي بدائرة تقع داخل دائرة أكبر وهي الدين ولا يتعارض معها، ولكن لا يُمكننا عكس موضع الدائرتين حيث لا يُمكن أن يُحيط العلم الطبيعي بكل غايات الدين وغيبياته وإنما يُستخدم فقط للدلالة عليه وبعض صفاته.

فنحن عندما نأتي مثلا إلى تفاعل حيوي مُعين داخل الخلية الحية ونطلب مِن العلماء الطبيعيين أن يدرسوه ويحللوه ويعملوا عليه، فإننا ننتظر مِنهم تقاريرًا تترجم لنا تخصص كل مِنهم في جانب مِن جوانب المادة المرصودة أمامه أو آثارها، فننتظر تقاريرًا مثلا لعلماء الكيمياء عن تفاعلات جزيئات المواد وذراتها، وتقاريرًا لعلماء الفيزياء عن الجسيمات داخل هذه الذرات، وتقاريرًا لعلماء البيولوجيا عن تفصيل ما جرى داخل هذه الخلية الحية ككل.. وهكذا، ولكننا أبدًا لن ننتظر مِنهم تقاريرًا عن مَن الذي قرر وصمم هذا التفاعل في الأصل! ولا ماذا كان مُراده أو غايته مِنه! فذلك خارج هذه التخصصات العلمية الطبيعية كلها، وجوابه لا يمكن أن نجده عند أحدها بحال مِن الأحوال.

فإذا فهمنا ذلك: سقط ثاني خلاف مزعوم بين العِلم والإيمان، والذي صوره الملحدون في صورة عدم خضوع الدين كله للعِلم الطبيعي والتجريبي وتعارضه معه، حيث رأينا الآن أن الإشكال هو في محاولة إقحام أدوات بحث العلة الفاعلة للطبيعة والكون -مثل الحواس- لتبحث لنا في العلة الغائية، وهي الخالق وإرادته وغيبيات الدين، بل والمسألة بذلك الحجم الكوني هي أعقد بالطبع من محاولة البحث في مُحرك الشاب (س)، وذلك لأن الشاب (س) نفسه سيكون ساعتها داخل في الطبيعة والكون مِن حوله ومؤثر فيها، فكيف سيصل إلى حل هذه المنظومة الأكبر وهو جزء منها؟! يقول العالم الأشهر "ماكس بلانك Max Planck"[١] أحد الفائزين بجائزة نوبل في الفيزياء:

"العِلم الطبيعي لا يستطيع حل اللغز المُطلق للطبيعة، وذلك لأنه في التحليل الأخير نكون نحن أنفسنا جزء مِن الطبيعة، وبالتالي جزء من اللغز الذي نحاول حله"[٢].

ولذلك فإن حاكمية العِلم الطبيعي على الدين تتمثل فقط في البحث والتأكد مِن نصوصه العقلية والطبيعية الكونية، للحُكم على صدق هذا الدين أو كذبه، وليس مِن شأنها نفي غيبياته بالكلية لمجرد أنها لا تخضع لأدوات بحثه المادية! فإذا تعارضت الحقائق اليقينية المُكتشفة في العِلم الطبيعي مع عقلانية ونصوص دين ما، فهي تعطي مؤشرًا للعاقل ساعتها بترك هذا الدين وأنه ليس مِن لدن الخالق الحق لكل هذا الكون وما فيه -ووصف اليقينية هنا هام جدًا لاستبعاد كل ما كان في مرحلة الفرضيات والنظريات وعرضة للتغيير-، وأما إذا تطابقت هذه الحقائق اليقينية أو أكدت صحة نصوص هذا الدين ووصف الخالق فيه بالحِكمة وكمال العلم: فهي حينئذ تأخذ العاقل خطوة إلى الأمام للتمسك أكثر بهذا الدين وتصديقه واتباعه، يقول عالم الفيزياء الفلكي جوزيف هوتن تايلور Joseph H. Taylor [٣]:

"الاكتشاف العلمي هو أيضًا اكتشاف ديني، ليس هناك تعارض بين العلم والدين، معرفتنا عن الله تصبح أكبر مع كل اكتشاف نكتشفه عن العالم"[٤].



- جوزيف هوتن تايلور، عالم فيزياء وفلكي أمريكي معروف، فائز بجائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٩٣م لاكتشافه أول نجم نابض ثنائي.

٤- متى يصير العِلم صراعًا بين الإيمان والإلحاد؟

لقد رأينا كيف أن البحث في العلة الفاعلة لا يتوقف على مُعتقد الباحث ولا دينه ولا حتى إلحاده، وذلك بخلاف البحث في العلة الغائية والذي كثيرًا ما يتأثر برؤية الباحث المُسبقة الناتجة عن معتقده أو دينه أو إلحاده.. ومِن هنا:
فإن أي مُكتشفات أو أبحاث علمية -ومهما بلغت مِن قوة تغييرها لفهمنا الطبيعة والكون- فلن تستجلب صراعًا بين الإيمان والإلحاد إلا إذا تلامست مع حدود الغاية ولماذا لدى كل مِن المؤمنين والملحدين!
فاكتشاف (الكهرباء، الكهرومغناطيسية، الإشعاعات، الذرة، نواتها، الإلكترونات، الحمض النووي.. إلخ) كلها صنعت انقلابات وطفرات في نظرة العلماء والناس للطبيعة والكون، ولكنها لم تسبب خلافات كبرى بين الدين والإلحاد إلا عندما تعلقت تفسيراتها بنقطة بدء الكون أو الوجود وبدء الإنسان، حيث نرى الملحد ساعتها يتخطى حدود بحثه العلمي ليعطي تفسيرات مِن ميوله ورؤيته الخاصة لهذه المحطات الوجودية الهامة مُستميتا في إبعادها عن تفسير الخالق عز وجل!

وهذا يدل على أن الملحد -مثل المؤمن- يدخل معامل العلوم الطبيعية والتجريبية بحصيلة مُسبقة مِن الدوافع أو الغايات والرؤى غير المادية، والتي ستتحرك نتائجه حتمًا بين حدودها مهما كانت مُخالفة لها، وطالما أنه كان مثل المؤمن في ذلك -أي في وجود رؤى مُسبقة- فهل لنا أن ننظر فيمَن كانت رؤاه هي الأصح عقلا وأصدق مع النفس؟

٥- المؤمن أعقل وأصدق حالا مع نفسه مِن الملحد:

إن واحدة مِن أكبر فريات الملحدين في مواجهتهم مع المؤمنين باسم العِلم، هي محاولتهم الفاشلة في إظهار محصورية صفة الموجود على المحسوس فقط، ومحصورية وسائل إدراك الإنسان التي حباه الله تعالى بها على الحواس الخمس فقط، مُتناسين بذلك أن أوثق وسائل الإدراك هي البدهيات الرياضية التي لا تحتاج إلى إثبات خارجي -مِثل قولنا ١+١=٢ أو أن ٤ أصغر مِن ٧-، ثم يليها البدهيات العقلية التي لا تحتاج في ذهن العاقل إلى شرح وتفسير وإثبات كذلك (مِثل أنه لكل حادث مُحدث، وأن العدم مفهوم ذهني لا يُخرج شيئا بدون خالق، وأن فاقد الشيء لا يُعطيه أي أن ذرات المواد والقوانين غير المُختارة لا يُمكن أن ينتج عنها وعي الكائنات الحية المُختارة، وأن الجزء أصغر مِن الكل، وأنه يستحيل تسلسل العِلل أو المُسببات إلى مالانهاية، ومِثل صحة قياس المُتشابهات ومهارات الاستدلال والاستنباط والقياس والاستقراء وهكذا)، ثم تقبع في النهاية حواس الإنسان التي قد تخدعه (مِثل رؤيته للسراب في الصحراء على أنه ماءً).

ولذلك فإن كل مُكتشفات العلوم الطبيعية لا تقوم إلا على هذه البدهيات العقلية في أبحاثها واستنباطاتها وإثباتاتها لوجود الأشياء، بالنظر فقط في آثارها ومِن غير الحاجة لرصد تلك الأشياء نفسها! ولذلك نقول إلى هذا الصنف مِن الملاحدة ومَن يصدقه أو يقع في شِباك خداعه وكلماته، لقد تناقضت ثلاث مرات على الأقل مع إلحادك المادي وعلاقته بالعِلم الطبيعي وهم:

١- افتراضك قبل الدخول إلى معملك أن الكون (موضوعي Objective) أي قابل للدراسة والفهم، وهذا افتراض عقلي سابق على أي تجربة وغير مدعوم بالحواس الخمس، وهو ما يُناقض مبادئ الإلحاد المادي البحت الذي تحاول أن تتمثله، وذلك بعكس الإيمان -أو الدين- الذي لا يجد في مِثل هذا الافتراض أيّ إشكال، وخصوصًا مع نفيه للعبثية والجهل عن الخالق وإرادته الحكيمة.
وإلا.. تخيلوا لو قيل للشاب (س) عن المُحرك أنه مجرد تجميع عشوائي أو تجميع طفل صغير، فهل تعتقدون أنه كان سيُنفق وقتا أو مالا للانكباب عليه لدراسته وفهمه؟!

٢- افتراضك انتظام سلوك الأشياء باطراد (Consistency) وثبات القوانين (Persistency) وفعالية العلاقات الرياضية (Efficacy) للتعبير عن الحقائق والاستقراءات بالشكل الذي يتم فيه تعميم النتائج الواحدة على كل ما عداها مِن حالات في نفس سياقها رغم عدم معاينتها بعد! وكل ذلك لا غنى عنه لاستمرارية الاعتماد على العلوم الطبيعية وقبول نتائجها والعمل بها في كل مجال، وتوقع ذلك الانتظام الكوني والطبيعي هو فطرة مغروسة في الإنسان، بل وفي الحيوان نفسه أيضًا! ويمكن ملاحظتها بوضوح في تجنب كل منهما لمواضع الأذى بمجرد وقوعه في أحدها ولو مرة واحدة فقط، وهذه افتراضات عقلية مُسبقة كذلك وتناقض مبادئ الإلحاد المادي في عدم الإيمان إلا بالموجود والمحسوس في كل مرة.

٣- سلوكك أيها الملحد لنفس خطوات البحث العلمي الطبيعي والتجريبي القائمة على المُلاحظة، ثم التخطيط والافتراض والتجريب، ثم الاستدلال العقلي المُتقبل لإثبات وجود الأشياء مِن مجرد رصد آثارها فقط، بل وتقبلك لوصف الأشياء وإلباسها أسماءها المُميزة لها مِن غير ضرورة الوقوف على كنهها أو ماهيتها وحقيقة ذاتها!

فها هو العالم في معمله -سواء المؤمن أو الملحد- يتحدث يقينا عن وجود الجاذبية الأرضية وهو لم يرصدها ولم يعاين بحواسه وقياساته إلا



آثارها فقط، في حين تبقى ماهيتها وكنهها مجهولين عنده إلى اللحظة، وكذلك يتحدث عن الإلكترون والفوتون وعن سائر الجسيمات دون الذرية وهو لم يرها بعينه المُجردة إلى الآن، بل ويتعامل مع توزيع احتمالات حركتها وموضعها لعجزه عن رصدها وهي تتحرك في سرعاتها الرهيبة فضلا عن (مبدأ عدم اليقين Uncertainty principle لهايزنبرج)(٥)، والذي يحكم بالفشل مُقدمًا على أية محاولة لرصد خاصيتين كموميتين معًا مثل السرعة والموضع للخروج بنتائج تامة ١٠٠٪ عنهما!

إذًا المؤمن أعقل وأصدق حالا مع نفسه من الملحد الذي يناقض ادعاءاته علنا في كل لحظة يقف فيها في معمله وبين أدواته وفي أحضان سجلاته و تدويناته لملاحظاته.

ومعلوم أن الله تعالى قد ذكر في القرآن علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، ويتمثل الفرق بينهم في مراتبهم، حيث عندما يجمع الإنسان الأدلة على وجود شيء ما وإلى أن يتيقن من وجوده -مثل الأدلة على وجود دولة جيبوتي مثلا- فذلك يُسمى علم اليقين، فإذا وقع ومر عليها بالطائرة فعلا ورآها بعينه فذلك هو عين اليقين، أما إذا نزل فيها بالفعل فهو هنا يكون قد وصل إلى أقوى مراتب اليقين وهو حق اليقين. والخالق عز وجل لم يُكلف المؤمنين به إلا بأولى درجات اليقين فقط؛ وهي علم اليقين.

٦- اضطرار الملحد إلى عالم الغيب:

إن الرغبة الجامحة لملامسة الغيب ومحاولة فك أسراره والخروج عن حدود الملموس والمرصود هي رغبة أصيلة في عقل الإنسان وفضوله العلمي إذا صح التعبير، إنها تشبه إلى حد كبير إنسانا مَحبوسًا داخل سجن صغير، وهو يعرف أن قدراته الحركية تفوق هذا الحيز المحدود الخانق بكثير. وبمثل هذه الحاجة المُلحة نجد العالم الملحد لا يكتفي بحدود هذا السجن من العلوم الطبيعية التي باتت محدودة بشقيها شق الزمان، مثل جهل ما قبل الانفجار الكبير وزمن بلانك وجهل المستقبل الكوني في انهياره أو ثبوته، وشق المكان، وهو صدمته في تتبع مرصود اتساع الكون بسرعات أكبر من سرعة الضوء أو في تتبع مرصود الجسيمات دون الذرية التي يؤثر عليها وأجهزته نفسها ساعة الرصد حيث يرصد بفوتون الضوء فوتونا ضوئيًا مثله فيصطدمان!

إنه سجن حقيقي لمن يعلم، سجن يتألم فيه العالم الملحد نفسيًا وهو عاجز عند تلك الحدود الطبيعية، إذا ما رأى مقارنة الناس بينه وبين علماء الدين والدنيا المؤمنين، والذين يجدون في أديانهم

والزمان، ومن هنا -وحتى لا ينسحب البساط من تحت قدميه- فلن نجده يرضى بمثل هذه الهزائم أبدًا إلا أن يخترع لنفسه غيبًا هو الآخر يستطيع به سد فراغاته المعرفية، ولتقديمه إلى الناس في صورة تصبرهم على الإلحاد مثله، أو كما قيل:
«من يُنكر الميتافيزيقا، يتفلسف ميتافيزيقا» !!

ومن هنا.. فلم يستحي الملحد أبدًا من أن يُحدث الناس مثلا عن ما قبل الانفجار الكبير Big bang ولحظته المتفردة Singularity، وذلك رغم جهل العلوم التام بما قبل زمن بلانك Planck time! أو حتى يُحدثهم عن وجود الطاقة السوداء Dark Energy أو المادة السوداء Dark Matter واللتان لا يمكن رصدهما ماديًا، ولكنه يفترض وجودهما لحل لغز التوسع العظيم في الكون ولتستقيم له معادلات الفيزياء الكلاسيكية من جديد! أو يتلو على الناس قصص التطور Evolution الخيالية التي لم يُشاهد هو ولا غيره منها شيئا، أو نراه تأخذه الجرأة الميتافيزيقية فيُحدث الناس عن احتمالية وجود أكوان موازية Parallel Universes لا نراها -وكما عند المؤمنين- أو حتى وجود أكوان مُتعددة Multiverse رغم أنه لا يُمكن رصدها نظريًا بسبب محدودية أقصى مسافة من الجسيمات الحاملة للمعلومات عن الكون أو ما يُسمى بأفق الجسيم The particle horizon!

والآن.. هل يمكن لأي ملحد شجاع أن يُقارن كل هذه الإيمانيات الغيبية الميتافيزيقية الإلحادية باتهاماته الجاهزة لنظرية التصميم الذكي مثلا، والتي يسوقها لينفي دلالتها على وجود الخالق فيقول كما نسمع ونقرأ منهم كثيرًا:
نظرية التصميم الذكي ليست علمًا لأنها تتعامل مع كيانات لا يمكن ملاحظتها أو تجريبها!
ولذلك فلا عجب من المقال العلمي النقدي اللاذع الذي وجهه عالم الكونيات الشهير (جورج إليز George Ellis)(٦) للسخرية من فرضية الأكوان المتعددة التي لا يمكن إثباتها، والتي وصل عددها حسب ما قاله الملحد (ستيفن هوكينج Stephen Hawking) وهو شريكه السابق في الكتابة العلمية الكونية إلى ١٠ أس ٥٠٠ احتمال!(٧) وذلك في محاولة إلحادية بئيسة للهروب من تفسير الإحكام المُتقن لقوانين الكون (Fine-tuning of universe) التي ألجمتهم وهم يحاولون نفي دلالتها على القصد والغاية الحكيمة للخالق!

فإذا فهمنا هذا التناقض الصارخ لرأينا العلم وهو يميل في كفة الإيمان عن الإلحاد بالكلية، إذ امتاز الإيمان أولا بصدق فرضياته المتناسقة مع روح العلم وانتظامه، وثانيًا مع معقولية استدلالاته على وجود الغيب من آثاره المادية في الطبيعة والكون المرصود.

٧- بين إله الثغرات المعرفية، والسببية والاحتمالية!

لا شك أن مفهوم إله الثغرات المعرفية الديني قد سقط الآن بما أوضحناه من النقاط السابقة، بل والغريب أنه قد حل محله إله ثغرات معرفي آخر ولكنه إلحادي هذه المرة، حيث نرى الملحد يُسارع عند كل جهالة تسد طريقه العلمي الطبيعي إلى إضافة تفسيرات غيبية ميتافيزيقية من عنده ليخلع عليها لبسة الإلحاد، بعيدًا عن التفسير الديني الذي يكون دومًا أقرب للعقل والعلم الحقيقي، يُذكرنا ذلك بقائمة عالم التطور الدارويني الألماني Robert Wiedersheim التي وضعها في كتاب (The Structure of Man: An Index to His Past History) عام ١٨٩٣، وساق فيها ٨٦ عضوًا مجهول الوظيفة في وقته على أنها دليل على الأعضاء الأثرية المزعومة (Vestigial organs)(٨) والتي يستميت الملحدون والتطوريون لإثبات وجودها كدليل على بقايا تطور الكائنات بعضها من بعض وصولا للإنسان! فذكر منها الزائدة الدودية وكذلك الغدد الصماء التي كانت مجهولة الوظيفة قبل اكتشاف الهرمونات وغيرهم الكثير، وهو ما يترجم لنا كيف تؤثر الأفكار المُسبقة على تفكير المُلحد في وضع تفسيرات إلحادية لكل مجهول علمي.

ففي هذا المثال السابق -ومثل زعمهم أيضا أزلية الكون التي أسقطها العلم وكذلك الجينات الخردة وغيرها- يمكننا أن نستخدم نفس تعبيرات الملاحدة التي يستخدمونها ضد الأديان لكشف إله الثغرات المعرفية الخاصة بهم، ولعل أشهرها هو قولهم:
"كلما تقدم العلم خطوة.. انحسر وتضاءل دور الإله وتراجع"!

ويشيرون بها إلى أنه كانت هناك تفسيرات دينية لظواهر طبيعية مجهولة السبب في وقتها، فكان المؤمنون يكتفون بنسبتها ساعتها إلى الإله، وأما بمجرد كشف أسباب الظاهرة، فيتراجع دور الإله عند المؤمنين، أقول:
- إن إيمان المؤمنين بأن الإله هو السبب الرئيس من وراء أية ظاهرة هو إيمان صحيح، فسواء عرفوا سبب الشيء -مثل سبب نزول المطر مثلا- أو لا فهذا لن يمنعهم في كلتا الحالتين من أن يرجعوا بسبب النزول الأول إلى الخالق، إما على سبيل تحكمه الاختياري في احتمالات العلة الفاعلة، وإما على سبيل علته الغائية كمُريد ومُسبب أول في وقوع المطر كما شرحنا من قبل، تمامًا كما لو تخيلنا الشاب (س) وهو عاجز أمام قطعة صغيرة من المُحرك لا يعرف ما الذي يتحكم في حركتها بالضبط، فهنا يمكنه القول أن المُصمم أو الصانع أو المُريد أو المُسبب الأول هو الذي يُحركها، ويكون بذلك غير كاذب ولم يلجأ إلى مُداراة جهله وإنما

اعترف به، لأنه سواء اكتشف هذه القطعة الأخرى فيما بعد أم لا فستبقى عبارته الأولى صحيحة وهي أن المُصمم أو صانع المُحرك أو المُريد أو المُسبب الأول هو الذي يجعل كل قطعة فيه تتحرك.

نجد الله تعالى يؤكد هذه العلاقة في قوله في إحدى آيات القرآن مثلا: "وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ" الشورى ٧٨.
فهذه علة غائية وهي إرادته في نشر رحمته بماء المطر ليُغيث به الناس، وأما إذا نظرنا إلى نفس الحدث -وهو نزول المطر أو الغيث- من وجهة نظر العلة الفاعلة فنراه يقول وبوضوح لا لبس فيه: "وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" الأعراف ٥٧.

وهنا -وبعد سقوط هذا الخلاف الآخر المزعوم بين العلم والدين- دعونا نتماشى مع خيال العلماء الملحدين في غاية ما يتمنوه من تحكم في مجريات أمور الطبيعة، ولنأخذ مثلا ظاهرة نزول المطر وما يتعلق بها من تفاعلات الرياح وجسيمات ذرات الهواء والكهرباء.. إلخ، وحتى تكون أقرب للمقارنة مع الآيات المذكورة أعلاه فنقول:
يتخيل الملحد أنه إذا استطاع التحكم في كذا ثم كذا ثم كذا وصولا لأصغر مكونات المادة والذرة، فإنه سيكون بإمكانه أخيرًا التحكم في كل شيء في الطبيعة من حوله! ورغم أن هذه الخيالات هي من المُحال.

إلا أننا نريد أن نصدم الملحد بحقيقة لا يقف عليها إلا المُختصون لينظروا إليه بعدها بشفقة وهي:
أن أصغر مكونات للمادة والذرة -وهي جسيمات عالم فيزياء الكم- لا تتبع الحتمية أبدًا في سلوكياتها وتصرفاتها وإنما تتبع الاحتمالات! وبذلك ينتحر حلم الملحد بين يدي الخالق عز وجل في كل لحظة اختيار يحكم بها الله وفي كل احتمال يشاؤه ويُريده سبحانه، وهو ما بينه لنا عالم الفيزياء والرياضيات الألماني الأشهر (ماكس بورن Max Born) الحائز على جائزة نوبل ١٩٤٥م بسبب أبحاثه في فيزياء الكم، حيث وضح في أثناء تفريقه بين (السببية والحتمية Causality and Determinism) كيف أنه في عالم فيزياء الكم لا تنتفي السببية، ولكن التي تنتفي هي الحتمية لتحل محلها الاحتمالات، وأن ذلك لا يتعارض مع ما جاءت به الأديان! (٩).

- وفي ختام هذه النقطة نقول أن مثل هذا التفكير هو الذي أفرز لنا لادينية مثل لادينية "آينشتاين" في تقديسه للقوانين التي تسوق الكون واكتفائه بها عن الإيمان بإله مُعين أو مُشخص، حيث شابهت الحتمية التي ظنها آينشتاين تحكم العالم مع ما يتخيله الملاحدة في قدرتهم على التحكم يومًا ما في أسباب كل شيء، ولذلك اشتهرت على لسانه دومًا عبارة كررها في أكثر من محفل ولقاء وهي:
"إن الإله لا يلعب النرد مع الكون"! (١٠)
أو بنص عبارته:

Quantum mechanics is certainly imposing. But an inner voice tells me that it is not yet the real thing. The theory says a lot, but does not really bring us any closer to the secret of the "old one." I, at any rate, am convinced that He does not throw dice (11).

ولكن كل هذه الرؤية المغرورة تهدمت بمئات الاحتمالات الرياضية المتنوعة التي يمكن الخروج بها لسيناريوهات المحطات الكبرى في الكون -مثل نشأته ونهايته.. إلخ- فما بالنا بالأصغر منها مثل نزول المطر أو زلزال ما هنا أو هناك؟! فسبحان الذي جعل الإنسان البسيط بفطرته وقبل آلاف السنين يلمس هذه الاحتمالية في كل ما هو أبسط من ذلك، ودون الحاجة لاكتشاف عالم الكم وما دون الذرة! ويعلم أن المُتحكم الحقيقي فيها هو واحد فقط، هو خالقها عز وجل.

٨- هل هناك ما يمنع علماء الطبيعة والعلم التجريبي من الإيمان بالله؟

حيث يجدر بنا في نهاية هذه الدراسة المختصرة والمتواضعة أن نسأل سؤالا وجيهًا واقعيًا بعيدًا عن تهويلات الملاحدة وتشويهاتهم المتعمدة لوجه العلم -للأسف- وهو:
على مدار التاريخ، ولاسيما مع عصر النهضة العلمي الحديث على يد المسلمين، هل هناك ما يمنع علماء الطبيعة والعلم التجريبي فعلا من الإيمان بالله أو بإله خالق لم يروه؟

والإجابة يُمكن استخراجها بكل سهولة من النقاط السابقة، حيث رأينا أنه لا تعارض أبدًا بين العلم الطبيعي التجريبي الذي يبحث في الموجودات، وبين استدلال العقلاء والعلماء واستخراجهم منه ما يدلهم على الخالق والصانع الحكيم العليم الخبير المُريد سبحانه، تلك الصفات المُمكن استنباطها من غير الحاجة حتى إلى وحي -لأن هناك صفات لا نعرفها إلا بوحي من الخالق ذاته ورسله-. ولذلك نرى الإسلام خصوصًا -وفي كتابه المحفوظ القرآن- لم يُعلي شأنا بعد إخلاص الإيمان بالله مثل ما أعلى من شأن العلم والعلماء، بل ووصفهم بأنهم أحق الناس بخشية الله إذ يعرفون من صفاته ومن عظمته ما لا يعرفه غيرهم فيقول:
" إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" فاطر ٢٨.

وبالفعل، فعلماء المسلمين، وهم واضعو أسس المنهج التجريبي نفسه، وعلى رأسهم (جابر بن حيان Jabir Ibn Hayyan) و(الخوارزمي Al-Khwarizmi AlGorismi) و(الرازي Al-Razi-Rhazes) و(ابن الهيثم Ibn Al-Haytham-AlHacen) و(ابن النفيس Ibn Al-Nafis) و(الكندي Al-Kindi–Kindus) و(عباس بن فرناس Abbas Ibn Firnas-Armen Firman) قد أبهروا العالم في شتى العلوم الطبيعية، ولم يروا أبدًا أي تعارض أو أي عائق بين البحث في الكون والموجودات وبين الإيمان بخالق يدل عليه كل شيء من مخلوقاته، حيث برعوا مثلا في شتى علوم الكيمياء والطب والجراحة والتخدير والتشريح وعلوم النبات والحيوان وعلوم الفلك والتشفير والتسيير الذاتي والميكانيكي..
وغير ذلك الكثير الذي يصعب حصره (١٢)، وإنما يُمكن التعرف على بعض ملامحه من موقع ألف اختراع واختراع على الرابط التالي -يمكن تغيير اللغة-:
http://www.1001inventions.com/arabic
والذي كان في الأصل معرضًا في مدينة مانشيستر في بريطانيا للتعريف بأفضال المسلمين واختراعاتهم التي غيرت وجه العالم إلى اليوم، ثم



انتقل بعدها إلى الكثير مِن مدن العالم.

ولعل ذلك ما أورث (روجر بيكون) تعزيز إيمانه بالله رغم أنه يُعد في عين الغرب -زورًا وبهتانا- واضع أسس المنهج التجريبي [١٣] [١٤]، في حين أنه لم يكن في الحقيقة إلا ناقلا له مِن علماء المسلمين [١٥] [١٦] [١٧] الذين احتك بهم وتعلم مِنهم كيف يقف العالِم المؤمن بالله في معمله ليُسجل ملاحظاته ويُجهز تجاربه ويختبر صحة فرضياته بعيدًا عن الدوجمائيات والآراء الوهمية المُسبقة بلا دليل، ولعله مِن أشهر الكُتاب الذين وضحوا هذه الحقائق هو الباحث (روبرت بريفولت Robert Briffault) في كتابه الشهير (صناعة الإنسانية Making of Humanity) فيقول:

"إن روجر بيكون درس اللغة العربية والعلم العربي في مدرسة أكسفورد على يد خلفاء معلمي المسلمين في أسبانيا، وليس لروجر بيكون ولا لسميه الذي جاء بعده الحق في أن يُنسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا مِن رسل العلم والمنهج الإسلامي التجريبي إلى أوروبا المسيحية.."

إلى آخر ما قاله في إثبات أولية المسلمين وتفوقهم وإبداعهم في المنهج التجريبي. [١٨]

وهكذا لم يكن مشاهير العلماء الذين غيروا وجه العلم الحديث مثل (بيكون Bacon) و(غاليليو Galilo) و(كبلر Kepler) و(نيوتن Newton) و(ماكسويل Maxwell) لم يكونوا أبدًا مِن أهل فكر الإلحاد ولا إنكار الخالق عز وجل لحظة مِن الزمان، بل وبالعودة إلى النقولات الرائعة لعالِم الفيزياء الأشهر (ماكس بلانك Max Planck) مِن كتابه "أين يذهب العلم" "Where is Science Going" والتي يوضح فيها الكثير مِن الحقائق بين العِلم والإيمان نجده يُقرر قائلا:

«لا يُمكن أن يُوجد أبدًا أي تعارض بين الدين والعلم، بل كل مِنهم مُكملٌ للآخر، وأعتقد أن أي شخص جاد وصادق يُدرك ذلك، وذلك لأن العنصر الإيماني في طبيعته سيظهر حتمًا إذا تكاتفت كل قوى نفسه وتكاملت معًا بكل اتزان وتناسق، وفي الحقيقة لا يُعد مِن الصدفة أن أعظم المفكرين في كل العصور كانوا نفوسًا ذات إيمان كبير» [١٩].

فإذا تركنا الإحصائيات المُضللة التي يُظهرها الملاحدة عن نسبة العلماء الملحدين في جمعية كذا أو معهد كذا.. إلخ، وهي الإحصائيات التي تتسم غالبًا بعدم الموضوعية لخضوع معظم هذه الجمعيات والمعاهد ومَن فيها مِن العلماء لاعتبارات رسمية تتعلق بتمويل الأبحاث والدعم المادي، نجد أن أكثر الفائزين بجائزة نوبل مثلا هم مِن أصحاب الأديان سواء مِن العلوم الطبيعية أو غيرها كالأدب ونحوه! وهو ما نطالعه مِن الصفحة ٥٧ مِن كتاب "مائة عام مِن جوائز نوبل" حيث نقرأ في الفصل الذي عنوانه "ديانة الفائزين بجائزة نوبل Religion of Nobel prize winners" أن أكثر الفائزين هم مِن أصحاب الأديان، وأكثرهم النصرانية التي تحتل وحدها ٦٥,٤٪، ثم يقبع في النهاية بنسبة ١٥٪ كل اللادينيين -وصف عام يشمل الملحد واللاأدري والمُفكر الحر free thinkers-.[٢٠]

بل وإذا تركنا علماء كبارًا كتبوا وأجادوا في بيان علاقة العلم بالإيمان، مِثل الكتاب الأكثر مِن رائع لجون لينوكس John C. Lennox هل دفن العلم الله؟ [٢١]، نرى أن هناك مِن العلماء الملاحدة مَن انزاحت عن أعينهم الغشاوة ليفيقوا على حقيقة الخداع العقلي الذي كانوا فيه حيث بدلا مِن أن يكون وجود الخالق هو بديهة البديهيات التي يؤكدها العِلم والعقل والوجدان معًا، كانوا يطلبون عليها هي نفسها الدليل -تخيلوا مثلا لو يطلب الشاب (س) دليلا على أنه هناك صانع لهذا المُحرك المُحكم الغائي الدقيق!-.

فمنهم مَن أفاق في منتصف العمر مِثل (فرانسيس كولينز Francis Collins) على حقائق الأخلاق وقصور المادة عن شرح الوجود، بل على الحقائق المُبهرة في تخصصه الكيميائي الحيوي والجيني بخصوص التعقيد المُذهل والمُعجز للحمض النووي والخلية -حيث يُعد كولينز رائد مشروع الجينوم البشري- فلم يملك إلا أن كتب كتابًا رائعًا لإثبات وجود الخالق وهو كتاب (لغة الله: عالِم يُقدم دليل على الإيمان) [٢٢].

ومِنهم مَن تدارك نفسه في نهايات عمره مِثل السير البريطاني الفيلسوف الملحد أنتوني فلو، والذي بعد أن قضى أكثر مِن نصف قرن كامل ينشر الإلحاد في كتبه التي بلغت الثلاثين كتابًا، رأى أن يكون صادقا مع نفسه أخيرًا ويعترف بالإعجاز العجيب في الأرقام العلمية المُذهلة في دقة خلق الكون وأن له بداية وليس أزليًا، وكذلك حقائق الحمض النووي الوراثي التي يستحيل أن تكون إلا بمُدبر حكيم عليم قدير، ففاجأ العالم في عام ٢٠٠٣م وقبل موته بسبع سنوات ففاجأ العالم في عام ٢٠٠٣م وقبل موته بسبع سنوات فقط عن عمر ٨٧ عامًا بخبر تحوله مِن الإلحاد إلى الربوبية! وكتب كتابًا رائعًا هو الآخر باسم (هناك إله: كيف قام أكثر الملحدين شراسة بتغيير رأيه) [٢٣].

فأمثال هؤلاء العلماء في كل زمان ومكان هم البشر الذين صدقوا مع أنفسهم، واتبعوا ما وصلهم مِن رسالات الله تعالى، سواء كانت الإسلام الخاتم أو غيره، فآمنوا به واستجابوا لنداء ربهم عز وجل: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ" التوبة ١١٩.

المراجع:

(١) ماكس بلانك، هو مِن أشهر علماء الفيزياء النظرية الألمان وأحد أهم العلماء في القرن العشرين، ويعتبر مؤسس نظرية الكم، وقد حصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩١٨م.

(2) Max Planck. (1932). Where is Science Going? New York, NY: W. W. Norton & Company, Inc.

(٣) جوزيف هوتن تايلور، عالم فيزياء وفلكي أمريكي معروف، فائز بجائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٩٣م لاكتشافه أول نجم نابض ثنائي.

(4) Taylor, as cited in Brown 2002

(٥) مبدأ عدم التأكد أو مبدأ الريبة أو مبدأ اللايقين أو مبدأ الشك، واحد مِن أهم المبادئ في نظرية الكم ، تمت صياغته بواسطة عالم الفيزياء الألماني هايزنبرج عام ١٩٢٧م وينص على أنه لا يمكن تحديد خاصيتين مُقاستين مِن خواص جملة كمومية إلا ضمن حدود معينة مِن الدقة، أي أن تحديد أحد الخاصيتين بدقة كبيرة (أو ذات عدم تأكد ضئيل) يستتبع عدم تأكد كبير في قياس الخاصية الأخرى، ويُعد تحديد موضع وسرعة جسم أولي هي مِن أكثر الحالات الشائعة لتطبيق هذا المبدأ ، ويعني ذلك علميًا أن الإنسان ليس قادرًا على معرفة كل شيء بدقة ١٠٠٪، ولا يمكنه قياس كل شيء بدقة ١٠٠٪، حيث يوجد دومًا قدر لا يعرفه ولا يستطيع قياسه.

(6) Ellis, George F. R. (August 1, 2011). "Does the Multiverse Really Exist?". Scientific American (New York: (Nature Publishing Group) 305 (2): 38–43

(7) Stephen W. Hawking, Leonard Mlodinow. (2010). The Theory of Everything. In; The Grand Design (pp. 188-189) New York, NY: The Random House Publishing Group.

(8) Wiedersheim, R. (1893) The Structure of Man: An Index to His Past History. Second Edition Translated by H. and M. Bernard. London: Macmillan and Co. 1895.

(٩) ماكس بورن: هو أحد أهم مؤسسي نظرية الكم الحديثة مع غيره مِن العلماء مثل (نيلز بور) و(هايزينبيرج) وهو صاحب تفسير دالة الموجة ومؤسس ميكانيكا المصفوفات ، والجزء المُتعلق بتفريقه بين السببية والحتمية في عالم الكم هو مِن الفصل الثاني مِن كتابه الشهير: NATURAL PHILOSOPHY OF CAUSE AND CHANCE

(10) William Hermanns. (1983).Einstein and the Poet: In Search of the Cosmic Man Paperback (pp. 58) Brookline Village, MA: Branden Press.

(11) Letter to Max Born (4 December 1926); The Born-Einstein Letters (translated by Irene Born).

(١٢) يمكن الاستزادة بالكثير مِن هذه التفاصيل بمشاهدة فيلم القناة الثانية الألمانية RTL الوثائقي الرائع (علوم الإسلام الدفينة)، ويمكن مشاهدته مُترجَمًا مِن الرابط التالي:

http://www.youtube.com/watch?v=oTS٣_isphhs

(13) James S. Ackerman (1978). "Leonardo's Eye" 41. Journal of the Warburg and Courtauld Institutes. p. 119

(14) John Maxson Stillman (2003) [1924]. Story of Alchemy and Early Chemistry. Kessinger Publishing. p. 271. ISBN 978-0-7661-3230-6

(15) Mark Smith (1996). Ptolemy's theory of visual perception: an English translation of the Optics. American Philosophical Society. p. 58. ISBN 978-0-87169-862-9

(16) Nader El-Bizri, "A Philosophical Perspective on Alhazen's Optics", Arabic Sciences and Philosophy, Vol. 15, Issue 2 (2005), pp. 189-218 (Cambridge university Press)

(17) Hub Zwart (2008). Understanding Nature: Case Studies in Comparative Epistemology. Springer. p. 236. ISBN 978-1-4020-6491-3

(18) Robert Briffault. (1919). Making of Humanity. (pp. 200) London: George Allen & Unwin Ltd

(19) Planck, Max Karl Ernst Ludwig. (1932).Where is Science Going? (pp. 168). New York, NY: W. W. Norton & Company, Inc

(20) Baruch A. Shalev, 100 Years of Nobel Prizes (2003), Atlantic Publishers & Distributors, pp.57: between 1901 and 2000 reveals that 654 Laureates belong to 28 different religion Most 65.4% have identified Christianity in its various forms as their religious preference.

(21) God's Undertaker: Has Science Buried God?, John C. Lennox, Lion UK, Updated edition (September, 1, 2009)| 224 p | ISBN 0-7459-5371-9

(22) Collins, Francis (4 September 2008). The Language of God: A Scientist Presents Evidence for Belief. Simon and Schuster. ISBN 9781847396150.

(23) Flew, Antony (2007), There is a God, New York: Harper One.

من آيات الله في خلقه (١)

د. هيثم طلعت

في لحظة الخلق الأولى، لابد أن تتساوى أعداد الإلكترونات والبروتونات في تلك اللحظة المثالية، وإلا لما تشكلت الذرة.

تخيل أن الإلكترون يدور حول النواة بسرعة ألف كيلو متر في الثانية وإلا لسقط داخل النواة بفعل قوة التجاذب مع النواة الموجبة ولانهار الكون قبل أن يبدأ، وهذه هي السرعة المثالية لتشكل الذرة.

-زميلك الملحد سيفترض الصدفوية في الأمر، مع أن شرطي الصدفة هما الزمان والمكان، والوجود جاء من اللازمان واللامكان-.

لا بد أن يكون الجسيم بنسبة أعلى من الجسيم المضاد حتى لا يتحول الكون إلى ظاهرة إشعاعية سرابية مجردة .

تخيل أن البروتون والنيوترون قررا أن يتحدا داخل نواة الذرة، مع أن كثافتهما تقع في الخط الفاصل بين الوجود واللاوجود، إننا أمام عملية واعية وموجهة بشكل فائق، وإلا ما تشكلت الذرة ولا ظهرت من الأساس.

يقول الدكتور محمد باسل الطائي أستاذ فيزياء الكونيات بجامعة اليرموك:

«طبقا لميكانيكا الكم فإن العالم دون الذري يحتاج حتمًا إلى مُدبّر ومُحرك في كل لحظة Operator formulation of quantum mechanics إن ميكانيكا الكم تثبت أن الله قيوم.. أي قائم بالكون في كل آن، وفي كل لحظة»

- محاضرة الله والكون والإنسان - أ.د. محمد باسل الطائي - يوتيوب.

تخيل أن كل الإلكترونات بنفس الشكل والكتلة ومع ذلك لكل الكترون مدار منفصل ومستقل مُسخر داخله تماماً لا يتخطاه ولا يتمرد عليه ويدور بسرعة منتظمة ألف كيلومتر في الثانية، تخيل الآن كل جزء من جسدك به مليارات الإلكترونات التي تجري بمنتهى الكفاءة وبلا أدنى ضوضاء وملايين الإلكترونات لا تملأ النقطة التي في نهاية الجُملة تلك.

كيف قررت الجسيمات ماهية الذرات التي سوف تكونها وبأية كميات؟

لماذا لم تقم كل البروتونات والنيوترونات بتكوين ذرة هيدروجين واحدة وانتهى الأمر ؟

كلاً من الإلكترون والبروتون يحمل شُحنة كهربية وفقا لخصائصه، وهذه حقيقة ظهرت بعد الثانية الأولى من خلق الكون، وهي حقيقة اختيارية احتمالية وليست واجبة الوجود، وأدنى تغيير في شدة هذه الشُحنة من شأنه أن يؤدي إلى انطلاق الإلكترونات بعيدًا عن النواة أو وقوعها داخلها، وفي كلتا الحالتين سيؤدي ذلك إلى استحالة وجود الذرة وبالتالي استحالة وجود الكون، ومع ذلك فمنذ الثانية الأولى من خلق الكون قامت البروتونات بجذب الإلكترونات بالقوة المطلوبة بالضبط لتكوين الذرة.

إذًا خروج الكون هو خروج اختياري، وكان على أعلى درجات الإعداد بعناية. ولذا يرى ليونارد سوسكايند أستاذ الفيزياء النظرية بجامعة ستافورد، والمؤسس لنظرية الأوتار الفائقة، أن مُعطياتنا عن الثوابت الكونية، مثل النسبة بين الإلكترون والبروتون، تقف كلها على حافة سكين وكلها مُستقلة عن بعضها البعض، وفي الوقت نفسه تتلاقى لتسمح فقط بإحداث الحياة، وتغيُّر أيِّ مُعطى من هذه المعطيات التي نشأت مستقلة لم يكن يسمح لها بالتلاقي، فضلاً عن إمكانية إيجاد حياة أو حتى منظومة كونية.

لو زاد عدد البوزيترونات عن عدد الإلكترونات فإن الذرة لن تظهر، وسيتوقف الكون.

ظهور الكون اختياري وليس حتمي كما تقرر ميكانيكا الكم، وهذا ينفي الصدفة.

اكتشف العلماء أن النسبة بين الإلكترون والبروتون هي ١: ١٠ أس٣٧، وهذا يشبه كمية من الدولارات توضع فوق بعضها البعض من هنا إلى القمر، ودولار واحد فقط هو الذي يتيح الاختيار الصحيح، وأي اختيار آخر سيؤدي إلى توقف الكون قبل أن يبدأ، فهذه النسبة هي النسبة الوحيدة التي تسمح بتشكيل الذرة وبالتالي ظهور الكون.

إن قوانين الفيزياء التي ظهرت في أول ثانية من نشأة الكون هي نفسها التي تحكم عالمنا اليوم، هذه القوانين تم ضبطها بعناية، وإلا فإن أي خلل أو أي تغيير في أي من الثوابت الكونية سيفرز كونا مُجهضًا، بيضة كونية لا أكثر. ولو تغيرت كمية أي جُسيم يظهر، فإنه سيتم تدمير مستوى الطاقة الذي يحدده ذلك الجسيم، ويمنع تحول الطاقة إلى مادة، ويتوقف الكون أيضًا.



الداروينية والتنين المجنح

«اختبار قابلية نظرية التطور للتخطئة»

أحمد يحيى

– في جراجنا تنين

عنون كارل ساجان Carl Sagan بابا بهذا الاسم في كتابه [1] "عالم تسكنه الشياطين The Demon Haunted World"

ويستعرض تحته الفرق بين العلم والزيف من خلال مثال يدعي فيه شخص وجود تنين في جراج بيته، و أول سؤال يمكن أن يطرح على هذا المدعي هو: أرنا التنين؟

يقودنا الرجل المتحمس إلى جراجه، ويشير إلى الداخل فلا نرى سوى سلم وبعض الأغراض المبعثرة..

- فنسأله: أين التنين؟

- يقول: إنه هنا بالطبع، لقد فاتني أن اذكر أنه تنين خفي.

هنا يقترح أحد الحضور نثر الدقيق كي نمسك بأثار ذلك التنين الخفي .

- فيرد صاحب الجراج قائلا: هذه فكرة جيدة لكن ألا تعلمون أن هذا التنين مجنح طائر يسبح في الهواء.

- يقول آخر: إذن سوف نستخدم جهاز تحسس يعمل بالأشعة تحت الحمراء كي نتبين ألسنة النار الخفية يرد صاحب التنين الخفي قائلا بثقة: لكن هذه النار باردة.

يمكننا أن نرش رذاذ الطلاء في كل أرجاء الجراج كي نجعل التنين مرئيا، هذا اقتراح آخر يمكنه أن يحل المسألة..

- يقول صاحب التنين الخفي بغضب: مع الأسف، هذا التنين غير مادي ولا يلتصق به الطلاء، ولا يترك أي أثر.

هكذا يمكن لهذا الرجل الواثق أن يرد علي كل اختبار يتم اقتراحه بمبرر خاص يجعل من هذا الاختبار غير صالح.

بهذه الطريقة التي تتم بها الإجابة على كل سؤال بالتحايل علي أدلة التفنيد يمكننا القول بأن فرضية وجود التنين unfalsifiable؛ أي فرضية غير قابلة لإثبات الزيف ولا يمكن اختبار مدى صحتها.

اختبار النظريات وقابليتها للتفنيد:

النظرية العلمية هي مجال من العلم يصف ظاهرة معينة بغرض تفسير كيفية حدوثها، وتقديم مجموعة من التكهنات أو التنبؤات التي يمكن عن طريق تفنيدها واختبارها تقييم مدى صلاحية هذه النظرية، ومن ذلك فإن قبول النظرية العلمية يتوقف على مدى قابليتها للاختبار testability، وقابليتها للتخطئة falsifiability.
ويطلق عليها وصف "نظرية غير قابلة للتخطئة unfalsifiable" عند غياب التجارب والاختبارات التي من شأنها إثبات صحة هذه النظرية من عدمه، لذلك فإن معيار القابلية لإثبات الزيف وفقا لبوبر وأقرانه هو إظهار الفرق بين ما هو علمي وما هو زائف، وترسيم للحدود بينهما، واختبار النظريات هو مهمة العلماء المختصين بالتعاون مع فلاسفة العلم.

موقف العلم من الداروينية:

تشير المراجع الفلسفية المختصة بدراسة العلم أن معظم الاحكام القياسية أساسها فيزيقي، حيث يمكن معرفة أسباب الظواهر بوضوح لا يشوبه أدنى غموض باستقراء قوانين معينة كالديناميكا الحرارية والجاذبية وامثالها.
لكن في علم الحياة -البيولوجيا- تأبى الأمور أن تسير بمثل هذه البساطة إلا عند المستوى الخلوي الجزيئي، وجدوى التكهن لا تكون ملحوظة إلا في مجال البيولوجيا الوظيفية ومستويات أولية تعتمد قوانين التفاعلات البيوكيميائية .

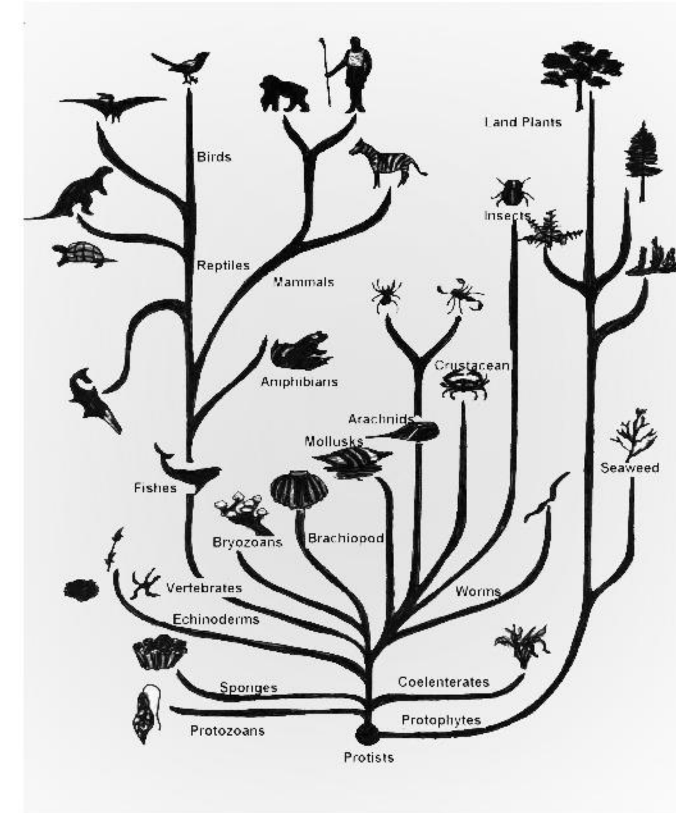
وبينما يستطيع العلماء اختبار النظريات على أكمل وجه بوساطة التجارب في العلوم العملية، نجد أن الأمر مختلف في العلوم التي يستحيل فيها إجراء التجارب ويكون التكهن محدود القيمة في اختبار فرض معين، كما هو الحال في العلوم التاريخية.
وهذا هو حال علماء البيولوجيا منذ أمد بعيد في محاولتهم للإجابة عن ذلك السؤال حول حدث تاريخي فريد هو: كيف نشأت ملايين الأنواع الحية؟

لتقصي هذا الحدث لن يكون بمقدورهم الاعتماد على القوانين الكونية، ولكن يتوجب عليهم دراسة مجموعة من المشاهدات الإضافية التي قد تساعدهم في هذا الشأن، ومن ثم يوضع سيناريو تفسيري يمكن تسميته "حكاية تاريخية".

لكنه من غير الممكن التيقن من وقوع تلك الحكايات التاريخية، لأنها غير مشهودة، وأفضل ما توصف به فرص التكهن التي قد تتيحها هي أنها احتمالية probabilistic، وذلك لاستحالة رصد واختبار ما تتألف منه من أحداث، وإذا لم تكن متيقنا من المفاوضات التي أدت الى إبرام المعاهدة البريطانية المصرية بعام ١٩٣٦م، فإن إعادة الحدث التاريخي هو اختبار غير متاح، ولا يمكننا في مثل هذه الحالة إجراء التجارب، واستدعاء المشاركين والشهود لتقدم الأسئلة نوع من الترف لأنهم في عداد الأموات، ولذلك لا يسعنا هنا سوى تقديم التكهنات، ومن هذا فباب التفنيد مفتوح أمام هذه الحكايات عن طريق الاختبارات المتكررة .
يدرك الباحثون أن الداروينية الحديثة تصنف جملة كنوع من الحكايات التاريخية، لاستحالة إعادة وقائعها من "البداية" وإخضاع أحداثها للرقابة والملاحظة المباشرة، فهي تغطي فترة عظيمة وغير مشهودة من التاريخ وقعت أغلب فصولها قبل وجود الإنسان، وفي أفضل حالتها لا يمكن للداروينية سوى تقديم مجموعة من التكهنات الاحتمالية -غير اليقينية- حول كيفية نشوء الأنواع، لأنها لن تتمكن يوما من إعادة أحداث تطوير حيوان ثديي من الزواحف لإثبات صحة الرواية التفسيرية المساقة (٢).

كيف يختبر العلم نظرية الأصل المشترك:

في عام ١٨٣٧م رسم تشارلز داروين للمرة الأولى في دفتر ملاحظاته شجرة للحياة من شأنها أن تساعده في تفسير أصل الأنواع، وافترض أن كل الأنواع الحية على الأرض قد تحدرت من سلف مشترك، مرجعا ظاهرة التنوع الأحيائي الهائل الذي نراه اليوم إلى سلسلة طويلة من الانتواعات speciation، تباعدت خلالها الأنساب فيما بينها تدريجيا، لتكوّن تفرعات شجرية من النسل المتمايز سميت بشجرة النشوء والارتقاء Phylogenetic tree.



بحسب النظرة البيولوجية يتكون الكائن الحي من صورتين متلازمتين في كيان واحد؛ هما الصورة الخبرية الجينية genotype، وتمثل في مكونات الحمض النووي الحامل للمعلومات، وهي بدورها المسؤولة عن ترميز وإنشاء الصورة الأخرى المظهرية .

ولذلك فإن الافتراض الرئيس للداروينية يزعم أن التشابه بين الكائنات الحية المختلفة هو بالضرورة نتيجة الميراث من سلف مشترك ، ويحتم ذلك وجود شجرة ترسم العلاقات التطورية من خلال الاستدلال بالتشابه في مصفوفات البيانات المورفولوجية (المظهرية) والجزيئية (محاذاة الأحرف الجينية أو متواليات الأحماض الأمينية ببروتينات محددة) بين الأنواع المختلفة.

وبناء على مدى التقارب بتلك المصفوفات يتم تسكين هذه الأنواع على شجرة الأنساب المفترضة ليمثل الجد أو السلف المشترك، الجذع الذي يتفرع منه أغصان شجرية تمثل النسل حيث تتموضع المجموعات ذات الصلة الوثيقة على مسافات متقاربة من بعضها البعض، وتبعد المسافات بين الأنواع على شجرة الأنساب هذه مع تباعد القرابة بينها، على غرار شجرة العائلة.

تنبؤات خائبة:

يشرح بوبر من خلال عرضه لسمات النظرية العلمية أنه من السهولة بمكان أن نتحصل على براهين وإثباتات لكل النظريات تقريبًا إذا كنا نتطلع لمثل هذه الإثباتات، لكنها تظل بلا قيمة ما لم تكن متوافقة مع مجموعة من التنبؤات المجازفة التي تنير بصيرتنا في المستقبل لنتائج متوافقة.

ولذلك يتوجب على الداروينية أن تضع مجموعة من التنبؤات الخاصة القابلة لإثبات الزيف والاختبار، يمكن عن طريق تفنيدها تقديم نوع من الصلاحية لهذا الزعم والبرهنة على صحته.

ومن ذلك فإن بناء شجرة انتساب تصطف خلالها الأنواع الحية في تراتب من المجموعات الهرمية المتداخلة تدريجيا بالاستناد إلى مدى التشابه بينها كان بمثابة الكأس المقدسة التي طالما حلم أنصار التطور بامتلاكها، ويمكن اعتبارها التنبؤ الرئيس لنظرية الأصل المشترك وكما تذكر مجلة New Scientist ، فإن مفهوم شجرة الحياة كان مركزيا لفكرة داروين، على نفس قدر أهمية الانتقاء الطبيعي، ووفقا لعالم الأحياء فورد دولتيل W. Ford Doolittle فإنه بدون شجرة الحياة يمكن أن نعتبر نظرية التطور لا وجود لها .

"The tree-of-life concept was absolutely central to Darwin's thinking, equal in importance to natural selection, according to biologist W. Ford Doolittle of Dalhousie University in Halifax, Nova Scotia, Canada. Without it the theory of evolution would never have happened". (3)

ويخبر Peter Atkins بجامعة اكسفورد في كتابه "إصبع غاليليو Galileo's Finger ":
بأن التنبؤ الفعال يحتم اتساق تفاصيل التطور الجزيئي مع التطور المظهري.
The effective prediction is that the details of molecular evolution must be consistent with those of macroscopic evolution. (4)

لكن هذا التنبؤ كان مجرد ترف لم يتحقق قط، فالكأس المقدسة على حد تعبير Eric Bapteste باتت مجرد سراب بعدما كان يعتقد أنها قريبة من متناول اليد، وفي تعليقه على نتاج عقود من البحث عن شجرة الأنساب قال أنه "الزمن طويل كان بناء شجرة للحياة بمثابة الكأس المقدسة، ولكننا لا نمتلك أية أدلة على أن شجرة الحياة حقيقية".

"For a long time the holy grail was to build a tree of life. We have no evidence at all that the tree of life is a reality."

وأضاف Bapteste: "في الحاضر، يرقد مشروع (شجرة الحياة) في حالة يرثى لها، ممزقا إلى أشلاء بفعل هجمة من الأدلة السلبية، وكثير من العلماء اليوم يجادلون بأن مفهوم شجرة الحياة عفا عليه الزمن، ونحتاج إلى التخلص منه".
Today the project lies in tatters, torn to pieces by an onslaught of negative evidence. Many biologists now argue that the tree concept is obsolete and needs to be discarded. (5)

بدأت المشاكل في التراكم في وقت مبكر، بداية من تسعينيات القرن العشرين مع تقدم وسائل المقاربة وتوسع رقعة البيانات المرصودة، ولاحت بالأفق بوادر خيبة أمل حول تحقيق هذا التنبؤ الرئيس للداروينية.
ففي تقرير نشر عام ١٩٩٣م بمعرفة الأقران المختصين، خلص إلى البيان التالي :
"عقد علم التشكل (المورفولوجيا) آمالا عريضة على البيولوجيا الجزيئية، ولكن نهاية تطلعاتنا كانت محبطة؛ فالتوافق بين أشجار التطور الجزيئية بعيد المنال كما هو الحال في المورفولوجيا، وكما هو الحال بين الأشجار الجزيئية والمورفولوجية"
"As morphologists with high hopes of molecular systematics, we end this survey with our hopes dampened. Congruence between molecular phylog-

"phylogenies is as elusive as it is in morphology and as it is between molecules and morphology". (6)

وتوالت بعد ذلك الخيبات عبر عشرات التقارير العلمية رفيعة المستوى، التي تخبر عن تناقضات فادحة خلال المقاربات الفيلوجينية لبناء العلاقات التطورية بين الأنواع المختلفة، ولم يثبت مرور الوقت إلا تفاقم الإشكالية أكثر من السابق، حتى خلص تقرير لجامعة كامبردج بعام ٢٠١٢م لنتائج أكثر إحباطا، ولخص بعضا من تلك المشاكل:
"لقد أصبح التعارض بشجرة النشوء والتطور مشكلة أكثر حدة مع ظهور المزيد من البيانات على نطاق الجينوم"

"Phylogenetic conflict has become a more acute problem with the advent of genomescale data sets."

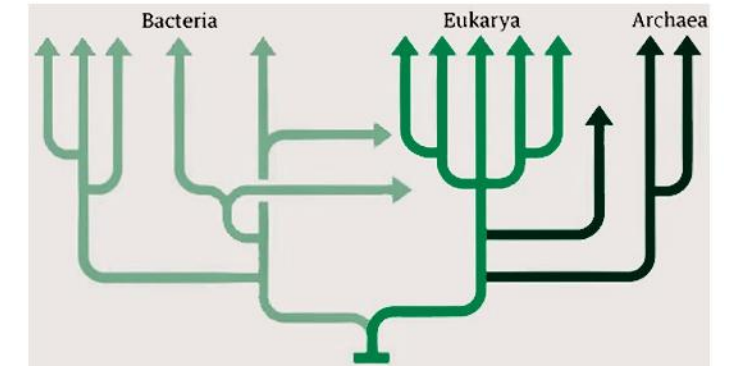
"سار التناقض بين أشجار التطور المستمدة من البيانات المورفولوجية مقابل التحليلات الجزيئية بمختلف المجموعات الفرعية يزداد انتشارا كلما توسع حجم البيانات في كافة الأنواع".

"Incongruence between phylogenies derived from morphological versus molecular analyses, and between trees based on different subsets of molecular sequences has become pervasive as datasets have expanded rapidly in both characters and species."

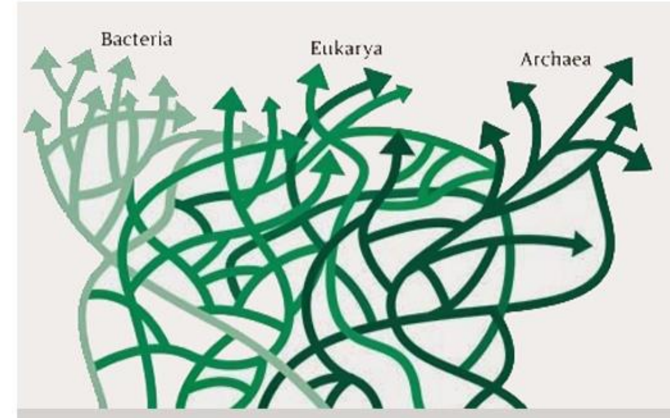
"التضارب والتعارض في شجرة النشوء والتطور هو الحدث الشائع ، القاعدة وليس الاستثناء".

"Phylogenetic conflict is common, and frequently the norm rather than the exception." (7)

وبعدما بات التعارض داخل مصفوفات الأشجار الفيلوجينية "phylogenies" الجزيئية والمورفولوجية وبينها أمرا مسلما به وعلى نطاق واسع، كان من المنتظر أن يؤدي هذا إلى الاعتراف بفشل تنبؤات الداروينية حول شجرة الحياة، وبالتالي دفع الشكوك حول صلاحية النموذج التطوري برمته لتفسير تاريخ وأصل الأنواع، لكن كما سنرى فإن هذا لم يحدث وتم اللجوء لبعض الحيل.



الشكل١: شجرة الحياة كما تتنبأ بها الداروينية.



الشكل ٢: "غابة متشابكة يصعب اختراقها"، كما رسمها فورد دوليتل، عالم الأحياء بجامعة دالهوزي- كندا (٨)

الفرضيات الإضافية:

وكأننا نتابع مشهدا دراميا من وحي الخيال، بطله فيلسوف العلم كارل بوبر يجلس في ركن قريب، يراقب عن كثب المسار التاريخي للنظرية الداروينية الحديثة ويدون ملاحظاته ليتخذها مثالا عمليا يحتذى به لتعريف العلم الزائف، حين يقر في معايير ضبط النظرية العلمية هذا الوصف:
"بعض النظريات القابلة للاختبار، يصر أنصارها والمعجبون بها على التمسك بها، حتى حينما يثبت الاختبار أنها كاذبة، وذلك عن طريق وضع افتراضات إضافية مساعدة، وإعادة تفسير النظرية بما يوافق النتائج الجديدة للهروب من خضوعها للتفنيد، ومثل هذا الإجراء ممكن دائما، ولكن كل ما يمكنه تقديمه هو إنقاذ النظرية من عملية التفنيد والاختبار على حساب تدمير حالتها العلمية، أي تحويلها لنظرية غير قابلة للاختبار».

Some genuinely testable theories, when found to be false, are still upheld by their admirers-for example by introducing ad hoc some auxiliary assumption, or by reinterpreting the theory ad hoc in such a way that it escapes refutation. Such a procedure is always possible, but it rescues the theory from refutation only at the price of destroying, or at least lowering, its scientific status. (9)

بعد اصطدامها بنتائج واضحة تفند تنبؤاتها وتثبت عدم جدواها لتفسير التنوع الحيوي أرغمت الداروينية على أن تحذو حذو صاحب التنين المجنح الخفي، ولجأ أنصارها لوضع بعض المبررات والفرضيات الإضافية لإنقاذها من الهلاك، وبسبب ذلك أصبحت النظرية غير قابلة للتفنيد وإثبات الزيف، ولم يكن أمام مسعفي الداروينية خيارًا آخر.

فقد كانت المفاضلة بين خيار فشل توقعاتها وخيار تحويلها إلى مجموعة من الفرضيات غير القابلة للتفنيد بمثابة المفاضلة بين بقاء جسدها تحت أدوات الإنعاش بسبب الموت سريريا، كحل وحيد أو ترك هذا الجسد ليصنف مباشرة في عداد الميت بيولوجيا.

علي سبيل المثال لا الحصر، تفترض الداروينية أن السمات المشتركة بين الأنواع هي نتاج تحدرها من سلف مشترك يحمل نفس السمات، فيما عرف بالتنادد homologous، وعليه يمكننا أن نتنبأ بتوزيع مصفوفات هذا التشابه بشكل هرمي متداخل سلس خلال شجرة حياة تمثل العائلة والقرابة، لكن على عكس التوقعات المأمولة ترصد المشاهدات الفعلية من خلال الفحص الفيلوجيني انتشارا واسعا لسمات مشتركة بين أنواع متباينة وبعيدة الصلة على أغصان شجرة الأنساب بصورة يستحيل معها إرجاع هذا التشابه إلى فرضية التوارث من سلف، فبينما كان من المتوقع أن نجد الحصان هو الأقرب من الأبقار والمجترات الأخرى جزيئيا، بسبب التشابه التشريحي والوظيفي والسلوكي بينهما، تخرج دراسات نشرتها وقائع الأكاديمية الوطنية للعلوم لتؤكد بأن الحصان أقرب وراثيا للخفاش منه للأبقار والأغنام ، ليصنع معضله عصية على الحل حول تناقض سمات التشريح والمورفولوجية مع السمات الجزيئية. (١٠)

وفي موقع أخر تتساءل ناشيونال جيوغرافيك تحت عنوان: كيف انتقل ربع جينوم الثعابين إلى الأبقار؟
حين تلاحظ على نحو غير مسبوق وجود تشابه في أكثر من ربع جينوم الثعابين التي تنتمي إلى الزواحف مع جينوم الأبقار، التي تنتمي لفئة مختلفة تماما هي الثدييات، لتتناقض بشدة مع أشجار القرابة المزعومة وتنبؤات السلف المشترك، وكالعادة لم تعدم الداروينية من اختلاق المبررات والفرضيات الإضافية حتى لو بدت غير منطقية، لتضع مسؤولية هذا التناقض على كاهل بقة (حشرة) صغيرة مسكينة، زاعمين أنها نقلت هذه الجينات تكرارية النسخ المسماة بالترانسبوزونات transposons نقلا أفقيا Horizontal gene transfer، والذي يعني نقل المورثات أفقيا بين الأنواع بطرق شبيهة بالعدوى، وليس رأسيا بطريق التوارث من السلف المشترك، ومثل هذا الحدث شائع في بدائيات النواة، لكن لا يوجد أي سند علمي لإمكانية حدوثه في الكائنات الراقية أو مسؤوليته عن مثل هذه التطورات كما بالسناريو السابق، والتي قامت فيه البقة بنقل الجين القافز من الزواحف إلى سلف قريب للأبقار عن طريق العدوى بسبب امتصاصها للدماء من كلاهما. (١١)

وعلى صعيد آخر ينتشر كم هائل من التناقضات بشجرة الأنساب مع توسع رقعة الرصد داخل جينومات الأنواع الحية كما تقر مجلة نيتشر nature، وتضرب لنا مثالا محيرا حول تطابق أكثر من مائتي منطقة في كلا من جينوم الخفاش والدولفين، واستحالة مسؤولية السلف المشترك عن ذلك، لتعزي ذلك التشابه إلى فرضية إضافية أخرى سميت بالتطور التقاربي convergent evolution، والتي تزعم أن السمات المشتركة بين تلك الأنواع لم تكن متوارثة من سلف مشترك، بل أتت نتاجًا لتطور كلا النوعين بطريقة متقاربة وبشكل مستقل. (١٢)


By Frits Ahlefeldt

شجرة الحياة.. وفرضية التنين:

ونتيجة ذلك تحولت الفرضية الأساسية حول شجرة الأنساب بفعل هذه المسوغات والتبريرات الإضافية إلى فرضية غير قابلة للتخطئة unfalsifiable، وأفشلت الاختبار الوحيد المتاح لتفنيدها؛ وهو الاعتماد على التشابه بين الأنواع، وبعبارة أخرى يمكننا القول أن التطور يعتمد التشابه بين مورثات الأنواع المختلفة كدليل على السلف المشترك -إن كان متوافقا- داخل شجرة الحياة التي تم اختلاقها، وفي نفس الوقت فإن التشابه في المورثات بين الأنواع التي لا تتوافق داخل تلك الشجرة يمكن تخطيه بالقول إنه نتاج تطور تقاربي convergent evolution، أو نقل جينات أفقيا Horizontal gene transfer، ومن ذلك يمكن القول باطمئنان أن شجرة الأنساب ليست علما، بل احتيالا مجردًا.

النظرية -----> التنبؤ -----> فشل التنبؤ-----> فرضية إضافية -----> نظرية غير قابلة للتخطئة unfalsifiable

خلاصة القول:

يمكننا وصف نظرية التطور بالهدف المتحرك، فمع كل اكتشاف يناقضها يتم نقلها بعيدا عن مرماه بحيث يمكن دفن الاكتشاف أو التحايل عليه، ولم يثبت العلم يوما أن نظرية التطور صحيحة، كل ما فعله هو إعادة تعريف نظرية التطور لتوائم الاكتشافات العلمية الحديثة، فالعلم يعدل باستمرار نظرية التطور لتتناسب مع البيانات الجديدة، ومن ثم يدعي أن تلك البيانات تناسب نظرية التطور.
لكن هذا ليس علما.. بل خداع.

يقول Richard Lewontin عالم الوراثة بجامعة هارفارد [١٣]:

"التطور ليس حقيقة.. إنه فلسفة، يأتي المذهب المادي في المقام الأول كمقدمة بديهية، ومن ثم يتم تفسير الأدلة في ضوء هذا الالتزام الفلسفي غير القابل للتغيير".

"Evolution is not a fact, it's a philosophy. The materialism comes first (a priori), and the evidence is interpreted in light of that unchangeable philosophical commitment".

المراجع:

(1) Carl Sagan, "The Demon Haunted World", The Dragon in My Garage, p165.

(2) Ernst Mayr, "This Is Biology: The Science of the Living World", Harvard University Press,1998.

(3) Graham Lawton, "Why Darwin was wrong about the tree of life", New Scientist, Magazine issue 2692, 21 January 2009.

(4) Peter Atkins, "Galileo's Finger: The Ten Great Ideas of Science", p.16, (Oxford University Press, 2003).

(5) Graham Lawton, "Why Darwin was wrong about the tree of life", New Scientist, 21 January 2009.

(6) Patterson et al., "Congruence between Molecular and Morphological Phylogenies," Annual Review of Ecology and Systematics, Vol. 24: 179 (Nov. 24, 1993).

(7) Liliana M. Dávalos, Andrea L. Cirranello, Jonathan H. Geisler, and Nancy B. Simmons, "Understanding Phylogenetic Incongruence: Lessons from Phyllostomid Bats," Biological Reviews of the Cambridge Philosophical Society, Vol. 87: 991-1024 (2012).
http://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC3573643/

(8) Laura Spinney, "Is life a tree - or more of a tangled thicket?", The Guardian, Monday 26 January 2009 .

(9) Karl Popper, "Conjectures and Refutations, Routledge and Kegan Paul", London, UK. Reprinted in Theodore Schick (ed., 2000), Readings in the Philosophy of Science, Mayfield Publishing Company, Mountain View, Calif.

(10) a) "Bats and horses get strangely chummy", Newscientist.com, 25 June 2006.
b) Z Chen & D E Ruffner, "Amplification of closed circular DNA in vitro", Nucleic Acids Res. Dec 1, 1998; 26(23): 1126–1127.

(11) Ed Yong, "How a quarter of the cow genome came from snakes", Nationalgeographic.com, Phenomena: January 1, 2013.

(12) Erika Check Hayden, "Convergent evolution seen in hundreds of genes", nature.com, 04 September 2013.

(13) Phillip E. Johnson, Defeating Darwinism by Opening Minds, InterVarsity Press, Illionis, 1997, p.







عندما تؤدلج السياسة مسارات العلم

الداروينية

بنكهة ماركسية

د. عبد الله الحيدلي

- عاشت أوروبا توجها عاما نحو جعل كل شيء ميكانيكيا وتجريبيا، وسعى المشتغلون بالدراسات الإنسانية -وبالأخص علم النفس- والمجتمع للوصول إلى علم يوازي الفيزياء -من حيث الخضوع للقياس والضبط- ومن ثم العمل على إعادة تشكيل البشر ومجتمعاتهم.

وأول من بدأ تناول العلوم الاجتماعية بطريقة مادية صرفة «أوجست كونت»، لدراسة الإنسان كما ندرس النبات والحيوان، وأطلق عليها مصطلح (الفيزياء الاجتماعية)، فنظرَ إلى الظواهر الاجتماعية بطريقة العلوم الأخرى، وقسمها إلى ديناميكيا اجتماعية واستاتيكا اجتماعية، ولكنه اعترف لاحقاً بأن الظواهر الاجتماعية معقدة، فتخلى عن مسمى الفيزياء وأعاد تسميتها باسم علم الاجتماع Sociology.

ثم جاء «كارل ماركس» وأسس على ما وضعه علماء الاجتماع قبله، ووضع رؤاه الخاصة مؤسسا للفلسفة الماركسية، فحلل المجتمعات البشرية وطرح فكرته التي ترمي إلى تفكيكها وإعادة تشكيلها وفق إطار نظري حتمي، استمد له مفهوم الحتمية الاجتماعية والتاريخية من الحتمية الفيزيائية الكلاسيكية، بحيث تصل المجتمعات بتطورها إلى ما اعتبره الوضع المثالي (الشيوعية)، وكان ماركس قد تأثر بأفكار نظرية دارون وقد اطلع صديقه "إنجلز" على (أصل الأنواع) ١٩٥٩م، وأرسل إليه ثناء على كتاب دارون، ثم بعد عام رد ماركس الرسالة إلى إنجلز قائلاً "إن كتاب دارون يقدم لنا أساس التاريخ الطبيعي المبني على نظرة مادية للعالم"، وبعد عام كتب رسالة إلى صديق آخر مؤكداً أن كتاب دارون يقدم أساساً في العلم الطبيعي للصراع الطبقي..

"Darwin’s work is most important and suits my purpose in that it provides a basis in natural science for the historical class struggle."

وبعد إعادة قراءة أصل الأنواع لمرة ثانية كتب ماركس «لقد أذهلني دارون لأنه استطاع أن ينقل أفكار مالتوس إلى النباتات والحيوانات أيضا»، وقد أرسل ماركس إلى دارون يستأذنه بكتابة إهداء له في بداية كتاب (رأس المال)، ولكن الأخير اعتذر منه لأنه رأى بوادر معركة ثقافية جديدة لا يريد خوض غمارها، وأرسل له نسخة من الطبعة الثانية "إلى السيد تشارلز دارون من معجبه المخلص كارل ماركس".

اعتبرت الفلسفة الماركسية المجتمع البشري مادة مرنة قابلة للتعديل، ورسمت لها إطارًا متخيلا لتطورها السابق وخارطة طريق للتطوير

> "لا يمكن للعلم أن يبقى حرًا في نظام اجتماعي يسعى للتحكم بكل الحياة الفكرية والروحية لأمة من الأمم، ولا يمكن مطلقا أن يتم الحكم على صحة نظرية علمية بناء على استعدادها لتقديم أجوبة توافق رغبة القيادة السياسية". "
>
> تشارلز ليون Charles A. Leone

المطلوب أو التطور الحتمي، وقد لوث العلماء اليساريون معظم العلوم التاريخية بمصطلحاتهم المؤدلجة، كمصطلح الإنسان البدائي والمجتمعات البدائية، ومنهم على سبيل المثال جون ديزموند برنال John Desmond Bernal صاحب كتاب (العلم في التاريخ)، الذي دمج الفلسفة الماركسية مع العلم حتى حوت كتاباته العلمية مدحاً للاشتراكية وذماً للرأسمالية، وبخلاف التصور الماركسي لتطور المجتمعات البشرية القديمة أكد البحث أن المجتمعات توصف بالأمية وليس بالبدائية بمعنى أن ما ينقصها العلوم وليس العقل، فلا يوجد عقل إنساني بدائي غير قادر على المحاكمة الدقيقة، ومن ناحية أخرى اعتبر الفكر الماركسي عقل الإنسان ووعيه لوحًا فارغا إلا من الانعكاسات الحياتية الضرورية وبرر لهم ذلك مطامح تغيير الوعي وتشكيل العقل الإنساني وفق شروط تفرض عليه للوصول إلى الحالة المثالية بزعمهم، وكان من مشاريعهم في بداية الحقبة السوفيتية تفكيك الأسرة كوحدة اجتماعية -متخلفة- حتى تعمدوا توظيف الرجل وزوجته في مدينتين مختلفتين!

ثم تراجعوا عن ذلك لما أدركوا حجم العقبات، ومن ثمار التجربة الماركسية المحاولات الحثيثة لاستئصال الدين والمتدينين كنوع من التطوير للمجتمعات، وكذلك الأخذ بوجهات نظر علمية توافق الفلسفة الشيوعية المعتمدة رسميًا، وهو ما نتناوله باختصار في هذا المقال؛ ففي المجال العلمي البيولوجي تم تبني الصيغة اللاماركية من نظرية دارون التي تقول بتوريث سهل للصفات المكتسبة وتم رفض علم الوراثة المندلية واضطهد كل من اعتقد أو عمل به لعشرات السنين، وبالمقابل نجد أن العلماء في بقية العالم غير الماركسي امتلكوا الحرية لإعادة صياغة الدارونية القديمة ودمج المندلية ضمنها في محاولة للقفز فوق عقبات علم الوراثة.

تروفيم ليسينكو:

أصبحت قصة تروفيم ليسينكو Trofim Lysenko في الاتحاد السوفيتي نموذجًا مدرسيا لحالات التدخل السياسي العقائدي في مسار العلم، فعالم النبات ليسينكو الذي عيّنه جوزيف ستالين مديرًا للبيولوجي، وامتلك تفويضا من ستالين بحيث بات كل رأي يقدمه يؤخذ كعقيدة رسمية للدولة والحزب، وقد رفض ليسينكو علم الوراثة الذي أسسه مندل ومورغان ووصفه بأنه علم غريب وغير عملي ومثالي ومنتج برجوازي رأسمالي، واعتمد علم بديل يعتمد اللاماركية الجديدة كصيغة للتطور، ومحور اللاماركية أن الصفات المكتسبة في أجساد الآباء يرثها الأبناء تلقائيًا، وكانت في بدايتها فكرة مقبولة لأنها انتشرت قبل معرفة علم الوراثة والطفرات بشكل واضح، ولم تنتشر هذه الفكرة بالطبع باسم اللاماركية في الاتحاد السوفيتي لأن "لامارك" ينتمي لطبقة أرستقراطية لا يرغب الشيوعيون بنسبة أي فضل لها، وهكذا تم اعتماد نفس الفكرة اللاماركية مع نسبتها إلى عالم النبات والوراثة السوفيتي إيفان ميتشورين Ivan Mitchurin، الذي اشتهر بتحسين وتهجين أشجار الفاكهة وذلك بعد وفاته في ١٩٣٥م، ثم وصفت الفكرة لاحقاً بمذهب الليسينكوية الذي تقبلته الحكومة الماركسية في الاتحاد السوفيتي بسرور وحماس لأنه وافق ما تهواه وتسعى إليه في فلسفتها الماركسية من هندسة وإعادة بناء طوبيا اجتماعية شيوعية هي الحالة المثالية الحتمية، وهذا التوجه السياسي العقائدي يرفض وجود الثبات في الوراثة Hard Herdity، وهو ما فرضته الفكرة المندلية وبالمقابل يتقبل الفكر الماركسي بشكل أفضل اللاماركية بصيغتها الليسينكوية التي تسمح بإحداث تغيرات سريعة ونقلها إلى الأجيال الجديدة، وهكذا بناء على أفكار الوراثة المرنة التي تسمح بنقل صفات مكتسبة سريعة ظن السوفييت أن بإمكانهم إجبار النباتات والحيوانات -بل والمجتمع السوفيتي والإنساني كذلك- على تقبل تطورات سريعة محدثة تخدم متطلبات عملية، ومن ثم يستمر وجود هذه التغيرات في الأجيال التالية، وهذه الفكرة التي انتقلت إلى الصين الشيوعية وغيرها، ونجد صداها في أكثر من بلد يساري كبولندا إذ كانت "الليسينكوية" ترى كجزء أصيل من "الواقعية الاشتراكية".



Imperial Bureau of Plant Breeding and Genetics

The New Genetics in the Soviet Union

by

P. S. HUDSON and R. H. RICHENS

منشور رسمي يظهر تأثر العالم بعلم الوراثة السوفيتي الجديد!

"أكبر مجاعة في التاريخ"

ثمرة السياسة الماوية في الصين

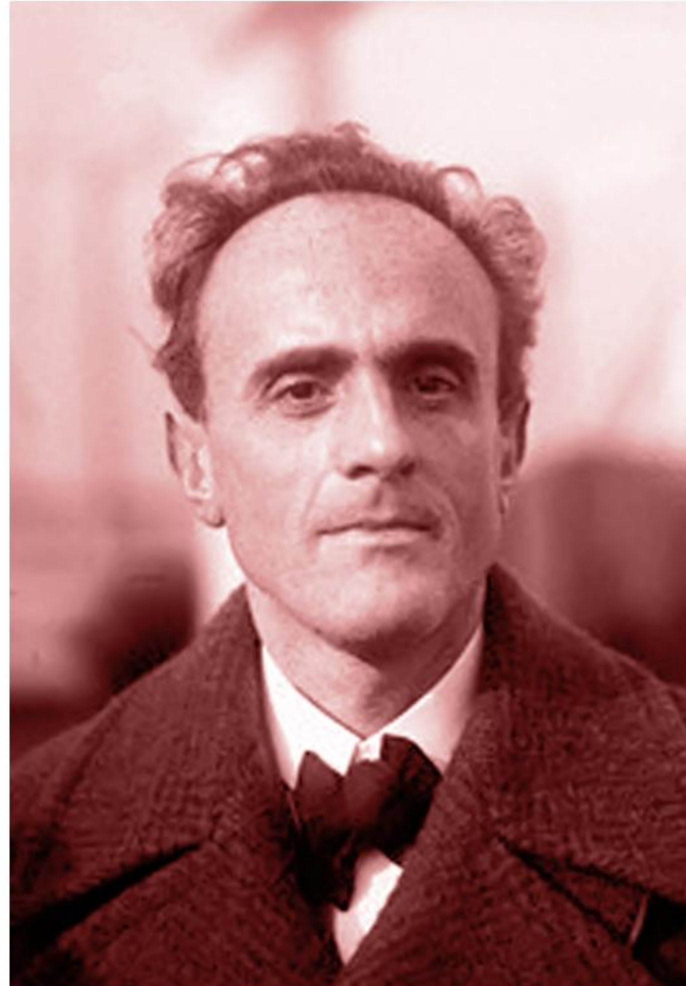
قامت حكومة "ماو" الصينية بفرض سياسات غير واقعية في الزراعة لرفع الإنتاجية، كاعتماد الزراعة المتقاربة close planting ، ففي بداية إنتاش الحبوب يعتمد النبات على ما تختزنه الحبة من المغذيات ولكنه في مرحلة لاحقة يعتمد على التربة حوله وبسبب وجود النباتات قريبة جداً من بعضها كانت النتيجة فشل الزراعة، وأثمرت هذه السياسات المفروضة من الحكومة الماركسية المركزية في الصين أكبر مجاعة عرفها التاريخ بين عامي ١٩٥٨م و ١٩٦٢م، وصورت الحكومة الشيوعية الفشل في البداية كإنجاز! وقد مات في هذه المجاعة أكثر من ثلاثين مليون صيني، ووثق المؤلف جاسبر بيكر Jasper Becker في كتابه الأشباح الجائعة Hungry Ghosts تفاصيل هذه الكارثة الإنسانية.

انتحار العالم الألماني كاميرر Paul Kammerer

أحد العلماء المتحمسين لفكرة إحداث تغييرات في الحيوانات أو توجيه التطور مباشرة وفق طريقة لاماكية، وقد قام بأبحاث عدة منها بحث على نوع من العلاجم midwife toad، وادعى أنه قد أحدث تغيرًا فيه يجعله يعكس بعض خصائص التكاثر عنده، مما يجعله أقرب لسلف له يتكاثر في الماء، ولكن بعد طلب أحد العلماء فحص الأدلة التي احتفظ بها كاميرر لسبع سنوات، اكتشف العالم الآخر في عام ١٩٢٦م أن كاميرر قد عدل النتائج باستعمال الحبر الهندي، فأرسل كاميرر رسالة إلى أكاديمية موسكو للعلوم يلقي فيها باللوم -بتحسين- النتائج على أحد مساعديه ثم انتحر.

كيفية تصوير حادثة انتحار كاميرر في الدولة الشيوعية

كعادة الماركسيين يجب أن يتم إلقاء اللوم على الشيطان الذي يعرفونه وهو "الرأسمالية"، فقام المسؤول عن الأفلام في الاتحاد السوفيتي بإعادة إنتاج قصة كاميرر، فلم يتحدث عن عالم شاب يعيش في مدينة أوربية مركزية ويخصص هذا العالم الشاب كل وقته الفائض لمساعدة عامة الناس، وقدم بحثه حول السلمندر دليلا مباشرًا على وراثة الصفات المكتسبة، ولكن أسقف كاتدرائية المدينة يسمع ببحث العالم الذي يثبت وراثة الصفات المكتسبة، فيعرف أن هذا الدليل سيهدد سلطة الكنيسة، فيجتمع مع أمير البلدة الذي كان على صلة بهنري فورد! وهكذا اجتمعت الأرستقراطية والكنيسة والرأسمالية في مؤامرة على العالم الشاب الذي أثبت أن الصفات المكتسبة يتم توريثها، وتمت المؤامرة بتعيين الأمير كمساعد للعالم في مختبره، ثم يتسلل الأمير ليلا إلى مختبر العالم ليحقن الحيوانات بالحبر الهندي، وهكذا عند عرض نتائج البحث للعموم يتسرب الحبر الهندي من العلاجم إلى الماء ويحرج العالم ويطرد من عمله، وينتهي به الأمر إلى التسول في الطرقات بصحبة قرد كان يستعمله في المختبر لإجراء التجارب، ثم ينتقل -الفيلم- إلى مرحلة جديدة، حيث تصل مساعدة للعالم من الاتحاد السوفيتي، ولما رأته وهو على وشك الانتحار أخذته معها مباشرة بالقطار إلى موسكو، حيث طلبت مساعدة السلطات، وقدم مسؤول التعليم المساعدة اللازمة للعالم الشجاع، كما استقبله جمع من الفلاحين في أرض الحرية "الاتحاد السوفيتي"!

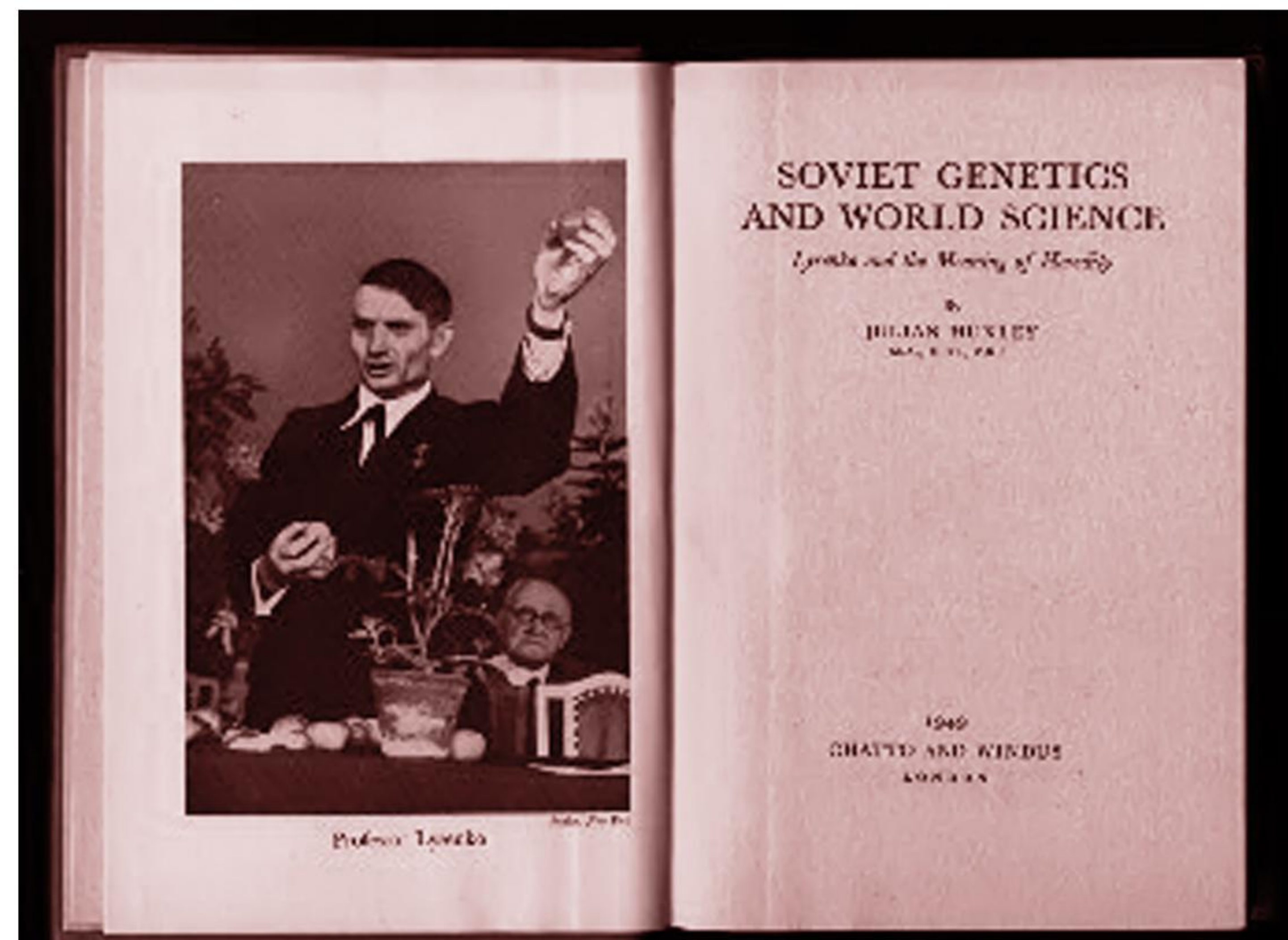


Paul Kammerer (1880 - 1926)

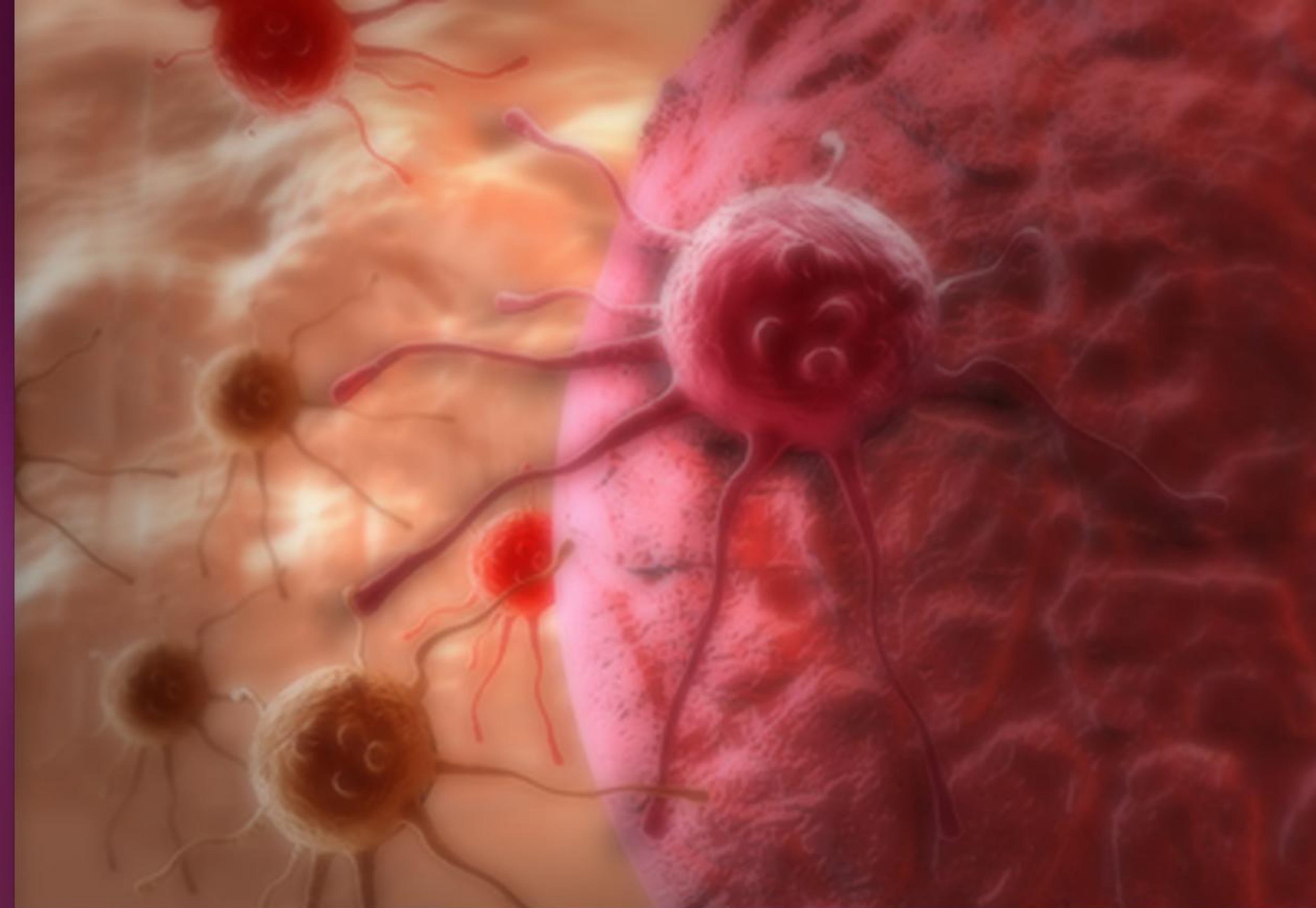
في مقابل التخريب العلمي الذي تم في الاتحاد السوفيتي تقدم العلم في بقية العالم، حيث لا توجد قيود سياسية وأيديولوجية على عمل العلماء كما حدث في الدولة الماركسية اليسارية، وختامًا تجدر الإشارة إلى أن البيولوجيين السوفيت كانوا قد نجحوا في تعديل تجريبي لبعض النباتات، ولكنهم وقعوا في المبالغة واتباع الهوى والإصرار بتكبر على الخطأ، واليوم تعود اللاماركية من جديد باعتدال في أبحاث "فوق المورثات" epigenetics بصيغة علمية معتدلة تجعل المورثات والبيئة عاملين فاعلين في صفات الكائن، ولكنهما متكاملين وغير حتميين!

المراجع:

1- Charles A. Leone, "Lysenko versus Mendel," Transactions of the Kansas Academy of Science, 1952
2- Willy Ley, Salamanders and Other Wonders: Still More Adventures of a Romantic Naturalist, The Viking Press, New York, 1955. http://www.sjsu.edu/faculty/watkins/lysenkoism.htm
3- Willy Ley, Salamanders and Other Wonders: Still More Adventures of a Romantic Naturalist, The Viking Press, New York, 1955.
4- "The International Workshop on Lysenkoism", Harriman Institute, Columbia university, December 5, 2009. http://harriman.columbia.edu/event/international-workshop-lysenkoism-0
5- Hungry Ghosts: Mao's Secret Famine, Wikipedia.
6- Richard Weikart (1999), "Socialist Darwinism: evolution in German socialist thought from Marx to Bernstein", International Scholars Publications.



كتاب "علم الوراثة السوفيتي والعلم في العالم، ليسينكو ومعنى الوراثة"، تأليف جوليان هكسلي، الصورة يظهر فيها ليسينكو ووراءه عالم سوفيتي آخر.



السرطان الغازي كدليل تجريبي على الانتحار التطوري

Invasive cancer as an empirical example of evolutionary suicide

- ما هي نظرية التطور؟

هي مجموعة فروض تفسر ظاهرة الحياة، بما فيها من تعقيد وتنوع، بآليات معينة يفترض أنها كافية وضرورية.

أي أن وجود هذه الآليات يعتبر سببا ضامنا وكافيا لوقوع هذه النتيجة، التي هي الحياة، وإلا لما أمكن تسميته تفسيرا.

بمعنى أنني لا يمكن أن أقول أنني أفسر وجود الحياة على الأرض بوجود الكربون والأوكسجين والهيدروجين وبعض العناصر الأخرى الضرورية للحياة.

لماذا؟ لأن هذه الآلية، لا يشترط من وجودها وجود النتيجة التي أريد تفسيرها!

- وقد تعجز النظرية عن تقديم سناريوهات كاملة ولا يسبب هذا سقوطها، بشرط أن تبقى الظاهرة محتملة بنفس الآليات، ولم تخرج عن إطار الممكن، فإن خرجت إلى إطار غير الممكن بظهور دليل ما، فهذا يعتبر تفنيدا للنظرية، ولا عبرة ببقاء جزئيات أخرى من الظاهرة ممكنة بالنسبة للآليات التي تطرحها النظرية.

- وبصرف النظر عن أن التطور يلزم من فروضه أشياء كثيرة، لم تتحقق، بل ظهر ما يثبت ضدها، كالتعقيد غير القابل للاختزال وفقر السجل الحفري من الحلقات الوسطى، وعدم وجود شجرة فيلوجينية ثابتة تحكي علاقة مباشرة بين الأنواع، إلا أننا سنتنزل مع الخصم ونعتبر أن كل مقدماته صحيحة، ونفكر بطريقة داروينية حيث نظن أن منشأ كل هذا التعقيد والتنوع الذى نراه هو الطفرات. وأنه مر ملايين السنين وأثناء هذا تم الانتخاب والاصطفاء لما هو صالح، أو بمعنى أصح من حاز على صفة جيدة تخدم الاستراتيجيات التي تمكنه من البقاء في بيئته وتمكنه من التكاثر كنوع بيولوجي، وبقاء هذه الجينات وهذه الصلاحية تسمى اصطلاحيا Fitness. فالطفرات تأتى بالجديد دائما، وهذا الجديد إما أن يكون زيادة في الصلاحية وإما أن يكون نقصا فيها، والانتخاب

الطبيعي دائما مع الصفات والاستراتيجيات التي تزيد الصلاحية.

- الانتخاب الطبيعي ولا يجادل في الأزمنة السحيقة -التي يفترضها الدراونة- وإنما يستخدمها لهدم النظرية. فالآن الطفرات والانتخاب الطبيعي والزمن السحيق من ملايين السنين هم من يقفون ليبنوا معضلة كبيرة ضد نظرية التطور ليس لها حل يمكن أن ينسب لآلية مادية أبدا.

- دعونا نرتدى النظارة الداروينية لنرى الأشياء بأبعادها الثلاثية؛ الطفرات والانتخاب الطبيعي والزمن السحيق، وننظر على ظاهرة الحياة ونركز في الوحدات التي تتكون منها هذه الظاهرة، وهي المجتمعات البيولوجية Population، فهذه هي الوحدة الصحيحة للنظام البيولوجي، وليس الفرد أو النوع.

- لأن النظر إلى الفرد أو النوع يغفل جانبا هاما جدا في ظاهرة الحياة، ألا وهو التفاعلات البيئية Ecological interactions، كتفاعل الفرد مع باقي مجموعته وتأثير هذا على ذاك والعكس، وكتفاعل الفرد مع الأنواع الأخرى سواء كان هو الفريسة أو الصياد، أو كان متطفلا أو مضيفا أو غير ذلك من التفاعلات البيئية الكثيرة، وأضف إلى ذلك الظروف الفيزيائية ومدى تأثر المجتمع المجتمع بها، فكل هذا لا يمكن أن يدخل إلى المشهد إلا بدراسة المجتمع البيولوجي، واعتباره الوحدة الصحيحة لدراسة ظاهرة الحياة.

> هذه هي الظاهرة، وهذا هو لازمها الذى لا ينفك عنها، فمن أراد أن يعطي تفسيرا للحياة لابد أن يمتلك آلية تمنع وقوع الانتحار التطوري.

- وهذا ما انتبه له الباحثين في مجال Adaptive dynamics، ووضعوا النماذج الرياضية لرصد احتمالات غزو طفرة لها صلاحية كبيرة نسبيا Invasion fitness لمجتمع له استراتيجياته المعينة ونتائج هذا كيف ستكون، فوجود مثل هذه الطفرة صاحبة الصلاحية الأعلى و الاستراتيجية الأفضل سيسبب خللا في هذا المجتمع بلا شك، وسيؤثر عليه تأثيرا لا يمكن متابعته إلا من خلال التفاعل البيئي، والذى قد يفضي إلى تغير كامل في شكل المجتمع، بل و التحول إلى مجتمع جديد تماما تسوده الطفرة الجديدة، و ينقرض النوع القديم والصاحب الأصلي لهذا المكان وهذا المجتمع.

- لكن الأهم من هذا بكثير؛ وهو الانتحار التطوري Evolutionary Suicide، الذى يحدث عندما يكون هذا المتطفر الغازي الجديد استراتيجياته تدمر مصادر الغذاء أو تدمر أي شرط أساسي من شروط حياة هذا المجتمع، سواء كان هذا الشرط بيولوجي أو فيزيائي، أو كان وجود الطفرة الغازية يؤدي إلى تدمير مصدر الغذاء الذى يتنافس عليه المجتمع، أو كان المصدر باقيا لكن رفع مستوى التنافس يؤدى إلى تدمير المجتمع بما فيهم الغازي أيضا.

كالتنافس بين النباتات في الوصول للضوء واستهلاك كل الطاقة المتاحة في ذلك، مما يؤدى إلى عدم وجود طاقة كافية لتمام عملية التكاثر وإنتاج البذور فيتوقف النوع، ففي البداية قضى المتطفر الغازي على النباتات الأقل طولا وحجب عنها مصدر الضوء، ثم عجز هو عن إبقاء النوع، فتسبب في انقراض تلك الجينات.

- حسنا، ما هو المتوقع لو أننا نظرنا بهذه النظارة الداروينية الثلاثية الأبعاد -الطفرات والانتخاب والزمن الطويل- إلى الوحدة الأساسية التي يتكون منها النظام البيولوجي ألا وهي Population، فلم نستطع رؤيتها!، ولم نستطع إعطاء تفسير دارويني لهذه الظاهرة أو لهذه اللبنة والوحدة الأساسية التي تتكون منها الظاهرة!، لا شك أن هذا يعني نهاية النظرية كفرضية لتفسير الحياة.

وهذا ما أثبته البحث بالفعل، وسوف نشرح كيف حدث هذا..

- اتفقنا أن «المجتمع» هو الوحدة الأساسية التي يتكون منها النظام البيولوجي الموجود على ظهر الأرض، والذي نريد تفسير وجوده الآن، وأنه قد يقصد به مجتمع من الخلايا، فليس شرطا أن يكون مجموعة من الكائنات المستقلة. نحن أمام ظاهرة، وهي كل مجتمع موجود بالفعل، وهذا الوجود في حد ذاته دليلا على أن هذا المجتمع لم يتعرض لمتطفر غازي واحد يتسبب في حدوث انتحار تطوري له، لأنه لو حدث لما كان هذا المجتمع أمامنا الآن!

إذًا كل مجتمع Population هو دليل على عدم وقوع انتحار تطوري.

أحمد ابراهيم

هذه هي الظاهرة، وهذا هو لازمها الذى لا ينفك عنها، فمن أراد أن يعطي تفسيرا للحياة لابد أن يمتلك آلية تمنع وقوع الانتحار التطوري.

- والآن نرتدي النظارة الداروينية لننظر من خلالها

على آلية تملكها نظرية التطور تقدر على منع وقوع الانتحار التطوري..

١- الطفرات:
هل يمكن أن نقول إن الطفرات منعت وجود هذا المتطفر الغازي الذى سيسبب فيما بعد الانتحار التطوري للمجتمع الذى سيظهر فيه؟
الجواب: بالقطع لا..
لأن الطفرات عبارة عن عملية عشوائية تماما لا ضابط لها، وليس في وجود هذا المتطفر الغازي أي مانع جيني، فالطفرات لا تقدر على منع شيء ممكن وقوعه جينيا، فهي إذن لا تملك تلك الآلية المانعة للانتحار التطوري.
٢- الانتخاب الطبيعي:
هذه المرة الانتخاب الطبيعي يدعم بكل قوة وجود هذا المتطفر الغازي، الذي سيتسبب في حدوث الانتحار التطوري لو أتى، لأنه أعلى صلاحية من غيره، وله استراتيجيات في البقاء أفضل من غيره، وللمرة الأولى يتحول الانتخاب الطبيعي لآلية ضد نظرية التطور، والتي طالما عول عليها الدراونة كمفتاح سحري لكل باب مغلق، فهو إذًا لا يملك تلك الآلية المانعة للانتحار التطوري أيضا.
٣- الزمن السحيق:
ملايين السنين كانت تطرح دائما كمفتاح سحري آخر يلجم السائل عن التعقيد أو الوظائف المبهرة الموجودة في الكائنات الحية، لكن للأسف هذه المرة يعطي ظهره هو الآخر للداروينية ويتحول كعامل ضدها، فكلما مر زمن أطول كان احتمال ظهور المتطفر الغازي الذى سيسبب الانتحار التطوري أكبر، وفق النماذج الرياضية التي تتعامل مع الاحتمالات العشوائية كالطفرات فهو أيضا لا يملك تلك الآلية المانعة.

إذًا لا مغيث لنظرية التطور من الانتحار التطوري!

وبالتالي ليس هناك آلية مانعة له من خلال نظرية التطور، و ليس هناك تفسير لوجود أي population نريد تفسير وجوده، و ليس هناك تفسير يمكن أن تقدمه نظرية التطور للحياة.

كل هذا لا شك فيه ولا مجال للمراوغة فيه، لكن كانت هناك مشكلة واحدة وهي عدم وجود أدلة تجريبية تثبت هذه النتائج المثبتة رياضيا، لأن الانتحار التطوري لم يشاهد إلا في نطاق بيئي ضيق.

وبالمناسبة.. فكل هذه الأبحاث ليست لخلقيين أو أنصار لنظرية "التصميم الذكي"، بل هم بيولوجيون ورياضيون وعلماء بيئة قادتهم النماذج الرياضية إلى هذه النتائج، ومعظمهم دراونة أو يتجنبون مهاجمة نظرية التطور.

دور البحث كان منصبّا على تقديم نموذج عملي للانتحار التطوري، بشرط أن يكون لهذا النموذج تفاعلات بيئية كثيرة جدا وشاملة لإثبات وقوع الانتحار التطوري في كل هذه الظروف البيئية بنموذج عملي، أضف إلى ذلك أن هذا النموذج هو التجسيد الوحيد والنموذج العملي الوحيد للسيناريو الدارويني لتطور الحياة على وجه الأرض، أي أن له ميزات رهيبة في تطبيق الانتحار التطوري بشكل عملي وشامل.

وهذا كان على قسمين:
القسم الأول: إثبات أن السرطان ينتج من نفس آليات نظرية التطور التي هي الطفرات والانتخاب الطبيعي، وهذا مجال بحثيّ مستقل فيه أبحاث كثيرة جدا.
والقسم الثاني: كان إثبات أنه حالة من حالات الانتحار التطوري لأنه متطفر غازي، يتسبب في تدمير الموارد التي يتنافس عليها مع غيره، مما يؤدى إلى هلاك المجتمع كله بما في ذلك السرطان وذلك بموت المريض، وهذا أيضا مجال بحثيّ مستقل تدعمه أبحاث كثيرة.

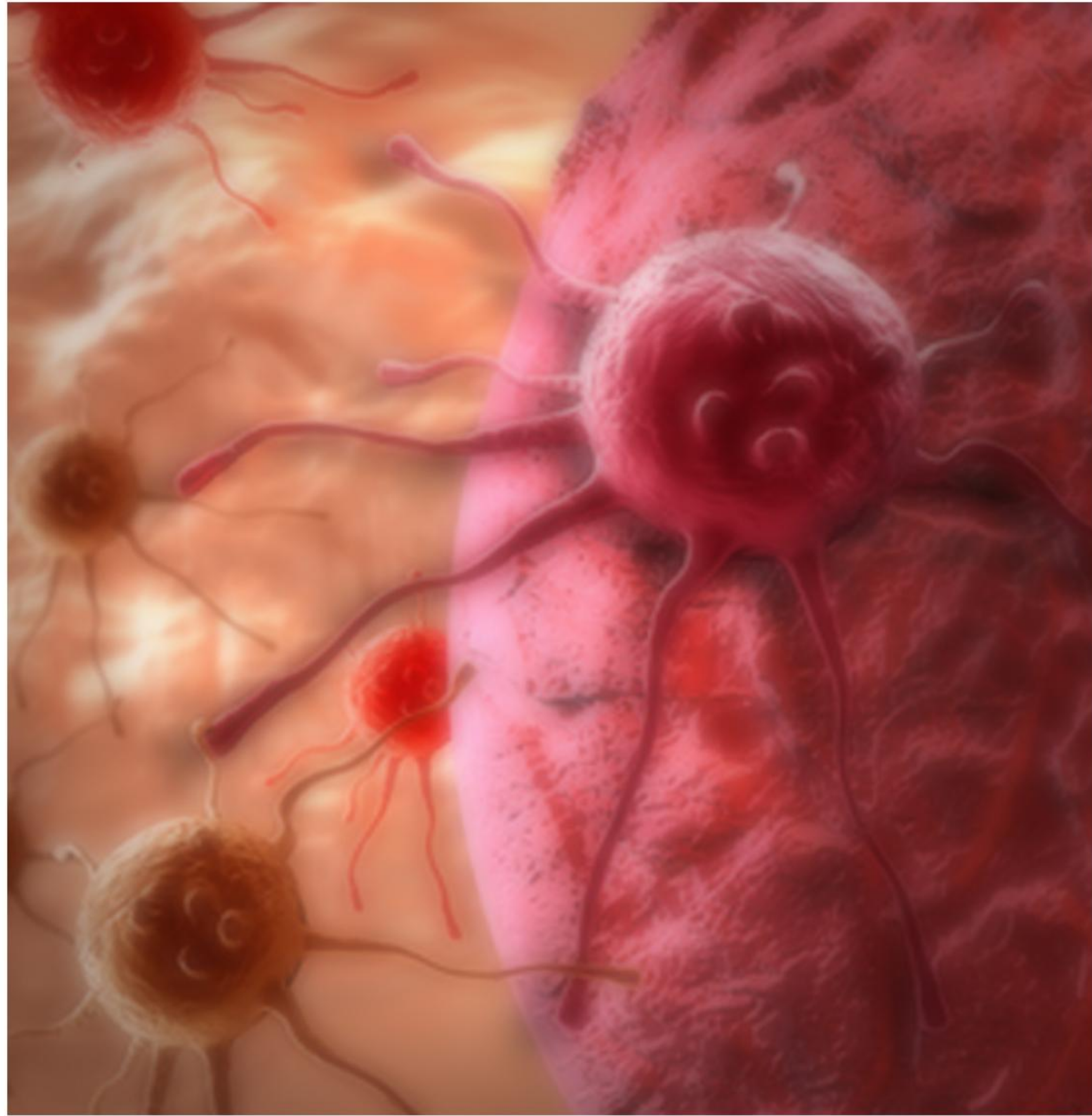
فما فعلته هو عبارة عن تجميع قطع البازل لتظهر الصورة واضحة، مع إظهار النتيجة والتي تصب في غير مصلحة نظرية التطور.

الانتحار التطوري هو نفس ما يسمى في الاقتصاد بمأساة الموارد المشتركة Tragedy of the commons، وهو في الحقيقة تطبيق بيولوجي لها وهناك أبحاث ذكرت هذا، فكما أن نظرية Game theory هي اقتصادية في الأصل لكنها الركيزة الأساسية الآن في حسابات نظرية التطور، فكذلك مأساة الموارد المشتركة.

فهي عبارة عن تدمير المصدر الذى يتنافس حوله المستثمرون نتيجة قوة أحد أو بعض المستثمرين في التربح بشكل يضر بالسوق نفسه وبالموارد نفسها، مما يؤدى إلى انهيار الموارد وخسارة الكل، بما فيهم هذا الذي أفرط في السلوكيات الاستغلالية over Exploitation، فهذه خسارة وانهيار للجميع نتيجة قوة مفرطة لأحدهم وليس نتيجة ضعفه.

لاحظوا أن المشكلة الآن في وجود آلية تمنع الانتحار التطوري والذى هو تطبيق لمأساة المشاع، فلو كان هناك حل يمنع وقوع مأساة المشاع لكان هو نفسه حلا للانتحار التطوري، و لَوُجِدَتْ آلية تمنع وقوع الانتحار التطوري!

- فهل هناك آلية يمكن أن تمنع مأساة المشاع وتحل المشكلة؟



نعم، كل الدراسات التي أجريت على مأساة الموارد المشتركة أثبتت أن الحل يكمن في وجود حكومات تضع عقوبات وتنظم استغلال الموارد، أو في مفاوضات، أو في وجود موانع أخلاقية أو دينية.

أي بمعنى أصح وجود تدخل ممن يملك حكمة (ذكاء) وقدرة على التنظيم ورسم صورة مستقبلية للواقع، وهذا يمكن تلخيصه بتدخل ذكي، فهذه هي الآلية الوحيدة القادرة على حل هذه المعضلة، وبالتالي فالآلية الوحيدة التي يمكنها منع الانتحار التطوري، وكذا تفسير الحياة، هي وجود مصمم حكيم.

- البحث نشر في مجلة Network Biology، مجلة علمية محكمة (peer reviewed)..
Impact factor المجلة لعام ٢٠١٣ هو ١،٠٨٩٥

رابط البحث:
http://www.iaees.org/publications/journals/nb/articles/2014-4%282%29/3-Ibrahim-Abstract.asp

رابط التحميل:
http://www.iaees.org/publications/journals/nb/articles/2014-4(2)/invasive-cancer-as-an-evolutionary-suicide.pdf

نسعد بتواصلكم

fb.braheen.com

t.braheen.com

info@braheen.com



لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية

for Studying Atheism and Contemporary Issues of Faith